المهاجرون

تقديم

كتبت هذه القصة بأسلوب جديد .

بدلاً من الوحدة الزمنية التي يحافظ عليها كتاب القصة عادة ، اعتمد سليم اللوزي ـ وهو صحفي مشهور في الوطن العربي ـ رواية احداث قصته ورسم شخصيات أبطالها بطريقة الأفكار المتداعية . وهذا الأسلوب الجديد في الكتابة ، أعطى القصة عنصراً مشوقاً ، يدفع القارئ لمتابعتها ، ويوفر له حافزاً للملمة ملامح شخصياتها المتناثرة بين الفصول بطريقة عفوية لا افتعال فيها . فالرواية تسرد تارة على لسان الأبطال ، وتارة أخرى على لسان الكاتب ، وهذا ما جعلها تتخلص من رتابة وصف الأشياء التي قد تقتضيها الدقة في التصوير ، أو تفرضها النزعة الأدبية عند الكاتب ، ولكن القصة لا تفقد شيئاً من غيابها .

يقول سليم اللوزي : ان هذا الاسلوب يتلاءم مع عصر الطائرة . في الماضي كان المسافرون يضطرون للمرور على مدن وقرى ليست لهم حاجة ولا رغبة في اضاعة وقتهم فيها ... لكي يصلوا في النهاية الى حيث يقصدون . اليوم ، أصبح المسافر يقفز الى المكان الذي يختاره مرة واحدة . وهكذا يجب أن يكون اسلوب الكاتب في عصر أصبح الوقت فيه مهماً للقارئ .

انه أقرب الى اسلوب السيناريو السينمائي منه الى اسلوب أدب الرحلات . مجموعة لقطات تسقط كل التفاصيل غير الضرورية ، والتي تجعل القارئ يقفز فوقها ، يدركها بخياله دون اضاعة الوقت في تتبعها ...

هل هو الاسلوب الصحفي الذي فرض نفسه على قصة سليم اللوزي ؟

أحد النقاد ، وصف الأسلوب الذي اتبعه سليم اللوزي في رسم شخصيات قصته بانه يشبه الى حد كبير الأسلوب الذي يستعمله الأطباء النفسيون لمعرفة أسرار مرضاهم . سؤال ، يتداعى الجواب بعده ليحمل جزءاً واحداً من حياة الشخصية التي يرسمها . ثم تجيء شخصية أخرى لتقدم جزءاً آخر من هذه الحياة ، قد تكون مختلفة تماماً عن الزاوية التي قدم فيها الجزء السابق . انها لعبة ذهنية نشطة ، فصور الشخصيات واحداثها تتناثر في فصول القصة ، كأنها قطع من الحجارة ، تبنى في النهاية بطريقة تجعل الذهن مشتعلاً بالفضول والرغبة في المتابعة .

لم تثر قصة عربية من قبل الجدل الذي أثارته قصة « المهاجرون » .

انها قصة جديدة في فكرتها ، جديدة في أسلوبها ، جريئة في رسم شخصياتها ... التي تمثل نماذج عصر بكامله من تاريخ العالم العربي .

مقـــدّمَة

صيف عام ١٩٧٢ ، ذهبت إلى شاطىء الريفييرا الفرنسية ، لألقي بنفسي وسط بحر الناس الذين توحي تصرفاتهم وكأنهم بلا هموم ، أو كأنهم جاؤوا مثلي لينسوا همومهم !

وبعكس الذين ينشدون الوحدة ، فأنا لا أحب الشواطىء المهجورة إلا إذا كنت أنوي الكتابة . عندها أفضل أن أخلو لنفسي لأعيش مع أفكاري . أما عندما أبحث عن الراحة ، فإني أفضل أن تتقاذفني أمواج البشر ، وأن أصبح مجرد واحد بين المئات والألوف ، لا أعرف منهم أحداً . ولا يهتم أحد منهم بمعرفتي .

هناك .. على الشاطىء ، التقيت بوجه أعرفه . صديق قديم من العالم العربي ، كنا قد تقابلنا قبل تسع سنوات في جنيف . وكان هو قد اختار الهجرة إلى أوروبا ، هرباً من

النظام القائم في بلاده ، بل ومن التجربة الثورية في العالم العربي كله . بعد معاناة شخصية ، حولته من أحد دعاتها إلى لا منتم للتجربة ولا إلى المجتمع الذي أفرزها .

كان يبدو على شاطىء « مونت كارلو » كملك بين ملوك المال . يتناول العشاء ، على مائدته في اليخت ، أمير موناكو وزوجته غريس كيلي ، واوناسيس ، وجاكلين كنيدي ... وأقل ضيوفه شأناً كان المخرج الإيطالي دولورنتس !

كان نجاحه جديراً بأن يحسد . وكنت أشعر عندما يدعوني إلى سهراته في يخته أنني أطل على عالم كنت أقرأ عنه ولا أعرفه .

وفي إحدى الأمسيات ، وبعد أن انصرف المدعوون ، وبقينا وحدنا في اليخت ، أخذ صديقي يروي قصة هجرته ، وكأنه كان يستأنف حديثنا الذي بدأناه منذ تسع سنوات في جنيف . ومن خلال ذكرياته ، وجدت نفسي انتقل من عالم المترفين في « مونت كارلو » إلى عالم المهاجرين من الوطن العربي .

إن هذه القصة واقعية في أحداثها وأشخاصها ، وإن تغيرت بعض الأسماء . أقول بعض الأسماء ، لأنه لم يكن في الإمكان تغيير اسماء ينسب إليها عصر كامل من التاريخ العربي . كل دوري في هذه القصة ، أنني اكتشفت في أشخاص أبطالها ، نماذج للتيارات والصراعات والايديولوجيات السياسية والاجتماعية والطائفية التي صنعت

أحداث عالمنا العربي خلال العشرين عاماً الماضية .

لم أذهب إلى الريفيير بحثاً عن قصة ، ولا كنت أفكر أنني سأكتب قصة عندما جلست استمع لصديقي سامي الشريف . لقد تركت كتابة القصة منذ سنوات طويلة . زحمة الأحداث ، وتضاعف المسؤوليات ، ودوامة العمل الصحفي ، حرمتني من أكبر متعة احترفت الكتابة من أجلها ، وهي كتابة القصة . ولكن الجوانب الإنسانية التي تكشفت في حياة سرب من المهاجرين الهاربين بعكس حركة التاريخ ، جعلتني أعيش في جوها ، فأنسى كل مشاكلي ، واتفرغ لها ، كلما استطعت أن اقتنص لها فراغاً ... حتى انتهيت من كتابتها .

ولا أخفي ، أنني عندما أعدت قراءتها ، قبل أن ادخلها إلى المطبعة ، أحسست أنها أحب عمل قمت به .

سليم اللوزي

١

صيف عام ١٩٧٢

كان لقاؤهما بالصدفة ...

الفضول وحده ، هو الذي دفع الصحفي اللبناني سعيد الطرابلسي إلى « كازينو مونت كارلو » . فلم يكن من المعقول أن يصل سائح إلى « مونت كارلو » دون أن يزور الكازينو . ولم يكن سعيد الطرابلسي مقامراً . كان يقول ضاحكاً عندما يسأل عن السبب : « عندي مساوئ لا تحتمل المزيد » . والحقيقة أن كراهية سعيد للقمار كانت عقدة موروثة . كان أبوه من نوع المقامرين الذين يجدون لذة في اللعب بكل شيء حتى بحياته . وكان يسمي تعلقه بالقمار هواية . كان يقول : « بعض الناس يحب النساء ، وبعضهم يحب السيارات ، وبعضهم يحب السينما . أما أنا فأحب المقامرة . ولست آسفاً على شيء . لقد عشت كما أردت أن أعيش » .

وهكذا قامر أبوه بمستقبل أولاده . باع كل ما ورثه من أراض وأملاك . قامر بتجارته . وقامر بمصاغ زوجته . ثم أخذ يوقع شيكات بدون رصيد ، حتى أصبح مطارداً يتسلل عائداً إلى البيت لكي لا يقع في قبضة دائن أو رجل بوليس . وكان سعيد الطرابلسي يقول : « بعض

الناس يولدون ومعهم حساسية ضد البرد ، أو الخمر ، أو التدخين ، أما أنا فمصاب بحساسية ضد القمار . لقد رأيته يهدم رجلاً كان يمثل لي كل شيء . ولن أسمح له أن يهدمني » .

ولعل هذا هو السبب الذي جعل سعيد الطرابلسي يهتم بتأمل فخامة بناء الكازينو وجمال لوحاته أكثر من اهتمامه بقاعة الألعاب .

وفجأة ارتفع صوت سيدة كانت تقف بجانبه في الممر الموصل إلى صالة الألعاب ، تقول لصديقات لها : هذا هو . العربي الذي كسب مليون فرنك ليلة أمس !

وكانت صحف الصباح قد نشرت الخبر في صفحاتها الأولى ، وقالت أن أحد أصحاب الملايين العرب قد كسب في الكازينو مليون فرنك ، وأن الرجل يملك يختاً فخماً في مرفأ « موناكو » !

والتفت سعيد الطرابلسي إلى حيث كانت تتجه أنظار النساء ، فإذا به يراه .

« غير معقول ــ قال سعيد الطرابلسي ــ هل هو سامي الشريف ؟ » إنهما لم يلتقيا منذ أكثر من تسع سنوات .

ولم تطل حيرته ، فقد وقعت أنظار سامي الشريف عليه ، فهتف هو أيضاً « غير معقول » !

وبعد لحظات ، كان الرجلان يتعانقان .

وقال سعيد : هل أنت الذي يتحدث عنه الناس هنا ؟ أنت الذي كسبت أمس مليون فرنك ؟

ـــ أنا الذي خسر أكثر من ثلاثة ملايين منذ أول هذا الصيف ، ولكن أحداً لا يتحدث عادة عن الذين يخسرون . وعندما استعدت بعض

ما خسرت أمس ، اعتبروني كسبت . والذي يكسب يتحول دائماً إلى خبر هام في الصحف . وأصبح الناس ، كما ترى ، يتراكضون ليراقبوني كيف ألعب » !

ولاحظ سعيد أن فتاة جميلة من النوع الذي يخطف العين كانت تقف بجانب سامي ، وتستمع إلى حديثهما وابتسامة عذبة ترتسم فوق شفتيها المقلوبتين كأنهما شقتا منذ لحظات .

وقدمها سامي إليه قائلاً : سلمى .

واكتفى بذلك .

وهتف سعيد : عربية ؟ لقد حسبتها اسبانية أو مكسيكية .

— عربية طبعاً .. بنت علي الشيخ !

ولم يحاول سعيد أن يسأله أكثر من ذلك ، وإن كان اسم « علي الشيخ » قد رن في مسمعيه وكأنه سمع بهذا الإسم من قبل .

وعاد سامي يسأله : ماذا تفعل في « موناكو » ؟

— اجازة .

— لمدة طويلة ؟

— حسب التساهيل . في برنامجي أن أقضي خمسة عشر يوماً على الشاطئ الفرنسي ، يوماً في نيس ، وآخر في «كان» وثالثاً في « جوان لوبان » ورابعاً في « سان تروبيز » وخامساً وسادساً وسابعاً ... إلى أن أشعر بالملل فأعود عن طريق روما .

وابتسم سامي ثم قال وهو يتأبط ذراع صديقه القديم : إسمع ، لقد التقينا في وقت أنا بأشد الحاجة فيه إليك . إني أعيش هنا في اليخت الذي أقضي فيه عطلة الصيف كل سنة ... وأنت ؟ اين تقيم ؟

— في الفندق هنا ... أوتيل ده باري !

— عال ، اذهب وضع ثيابك في حقائبك . سوف أحجز لك غرفة في فندق « مونت كارلو بيتش » . ستكون ، هناك ، قريباً من اليخت حيث أقيم . لا تتردد ، ولا تناقش ، فلن تندم على الوقت الذي سنقضيه معاً .

وكانا قد أصبحا خارج الكازينو ، فالتفت سامي إلى سائقه وقال له : اذهب مع مسيو طرابلسي ، واحمل حقائبه إلى « مونت كارلو بيتش » . سأتولى أنا حجز غرفة له بالتليفون .

ثم اتسعت ابتسامة سامي وقال لسعيد وهو يغمز بعينه نحو الحسناء ذات الثياب الأوروبية والملامح المكسيكية والإسم العربي :

سلمى هي الأخرى تسكن في « مونت كارلو بيتش » !

وتنهد سعيد وقال : حسبتها زوجتك !

— زوجتي ؟ وهل أنا ممن يتزوجون ؟ قلت لك أنها سلمى الشيخ بنت علي الشيخ ... ألا تذكر علي الشيخ ؟

ولم يتذكر ، بل لم يكن اسم « الشيخ » ينسجم إطلاقاً لا مع المكان ولا مع الحسناء . وكان كلما ازداد نظراً إليها ، كلما اكتشف فيها مكامن جديدة للجمال . سمرتها الخفيفة . والشعر الأسود الطويل . والعينان الخضراوان . والرموش الطويلة التي لم تكن تحتاج إلى نظرة ثانية ليتأكد المرء أنها رموش طبيعية . والشفتان المقلوبتان بلون الدم الطازج الحار ، واللتان كانتا تنفرجان عن ابتسامة تطل منها أسنان من الخطأ وصفها باللؤلؤ ، فليس هناك لؤلؤ بهذا البياض إلا اللؤلؤ الصناعي . أما قامتها فتكاد تكون في طول قامة سامي ، وهي أقرب إلى النحافة منها إلى الامتلاء.

وعندما قالت له « تشرفنا » شعر بشحنة جنسية غريبة ، كما شعر بالاضطراب عندما نظرت إليه . كانت نظراتها ثابتة وواضحة وصريحة وكأنها تعريه من ثيابه .

وأراد سامي أن يسحب نظرات صديقه الصحفي عن سلمى فقال له :

ـــ علي الشيخ ... مندوب القيادة .. ألا تذكر ؟ مندوب القيادة في سجن المزة !

وعادت الكلمة التي تعودت أن تنطلق من بين شفتيه في مثل هذه المواقف : غير معقول ... ابنة علي الشيخ ؟ الآن تأكدت أن أسلاف علي الشيخ في اللاذقية كانت لهم علاقات عميقة بالغزاة الصليبيين !

وقال سامي ، وهو ينظر إلى ساعته : أمامك ثلاث ساعات . سوف تحملك سيارتي إلى اليخت في التاسعة ...

وركب سامي سيارته ، وجلست سلمى إلى جانبه ، وبقي السائق الإيطالي مع سعيد ليحمل له حقائبه إلى فندق « مونت كارلو بيتش » !

* * *

كانت الساعة قد قاربت الثامنة ، عندما انتهى سعيد الطرابلسي من اعادة ترتيب ثيابه في فندقه الجديد ، ومن حلاقة ذقنه ، وارتداء بذلة صيفية خفيفة ... فخرج إلى الشرفة ليتأمل البحر ، والشاطئ الذي اشتهر بأنه ملتقى ملوك المال والجمال في العالم .

يقع الفندق على الطرف الشمالي من خليج « مونت كارلو » ، والغرفة التي خصصت له تقع في الطابق الأرضي ، وعندما خرج إلى الشرفة شعر وكأنه أصبح في البحر . الشاطئ يمتد إلى يمينه ، حيث أقيمت مئات الكبائن فوق الرمال ، وآلاف الصبايا في ثياب البكيني لا يزلن على

الشاطئ ، وكأن الشمس لم تغب ، والليل لم يزحف من التلال الخضراء العالية التي تحيط بالشريط الساحلي . وهناك ، في آخر الشاطئ الطويل ، تتلألأ أنوار المدينة ، وتتمايل مئات اليخوت في المرفأ ذي الأرصفة الممتدة داخل البحر كأنها أحواض مسبوكة .

وغرق في الطبيعة والليل ، بينما كانت أصوات الموج تترامى إليه وكأنها همسات العاشقين . وحدق الى الماء ... وغرق في شريط الذكريات

* * *

ذات ليلة من صيف عام ١٩٦٣ ، في مطعم « الشاندلييه » في جنيف .

وكانوا ثلاثة : سعيد الطرابلسي وسامي الشريف ومصباح المختار مراسل المجلة التي يملكها سعيد الطرابلسي .

وبدأ سامي الحديث قائلاً : لعل صديقنا « مصباح » قد أبلغك كم أنا معجب بمجلتك ... ولكن ما لم يخبرك به أن إعجابي بها قديم . كانت في يوم من الأيام تمثل المنبر الذي تتردد من فوقه ما لا استطيع التعبير أنا عنه من مبادئ وأفكار وشعارات ! » .

— والآن ؟ من الذي تغير ... أنت أم المجلة ؟

— كلنا يتغير . ولكل منا أسبابه . ولكن إعجابي بالمجلة لم ينقص . إني أعتقد أنها أحد الأعمال الصحفية القليلة في العالم العربي التي تدار بعقلية واعية . وهذا ما دفعني إلى التعرف بك .

وابتسم سعيد الطرابلسي ، وتذكر أن مراسله « مصباح المختار » قد أعطاه فكرة سريعة عن سامي الشريف . شاب دمشقي ـ كان عضواً في حزب البعث ـ ، اعتقل في أواخر أيام الوحدة في سجن المزة . ولولا

حركة الانفصال ، لما تيسر له الخروج من السجن وبالتالي من سوريا ليهاجر إلى سويسرا ، ويستقر في جنيف ، ويعمل في تجارة العقارات .

وقال سعيد : أخبرني « مصباح » أن لديك موضوعاً هاماً تريد عرضه علي ...

— فعلاً . إني ألاحظ أن مجلتكم تشن حملة شرسة ضد الملك سعدون .

— وهل تعتقد أن في العالم العربي سياسة تغري بالنقد أكثر من تلك التي يتبعها الملك سعدون ؟ إني أوجه لك هذا السؤال بصفتك بعثياً سابقاً ...

— أنا لا أريد الدخول في جدل سياسي معك . لقد طلقت السياسة منذ سنوات . ولكني أريد أن نبحث الأمر كصفقة بين رجال أعمال ... فكم تريد لوقف هذه الحملة ؟

وفوجئ سعيد . لم تكن بينه وبين سامي معرفة سابقة . كان ذلك هو أول اجتماع بينهما . فأمسك بكأس الشراب الذي كان أمامه ، وعب منه جرعة كبيرة ، ثم رسم على شفتيه ابتسامة ساخرة وقال : سأخاطبك بالمنطق الذي تفهمه ، وهو منطق الأرباح والخسائر ... فأنا لا أخفي عليك أن لي مفهوماً خاصاً للأخلاق والقيم ، هو أنها هي أيضاً مصلحة بعيدة النظر . بعض الناس في بلادنا يفكرون في الثراء عن طريق زراعة الحشيش . وبعضهم يسعى إلى الثراء عن طريق السمسرة . وبعضهم يعتقد أن في الإمكان الحصول على ثروة باقتناص الفرص ... وأنا لست من هذا النوع . أنا من الذين يفضلون زراعة الزيتون ، ويؤثرون الصبر مع ربح أقل ، لأن ذلك يضمن لهم أن يأكلوا هم وأولادهم وأحفادهم من ثمار هذه الشجرة المباركة . أنا من حزب زراعة الزيتون . ومن أجل

أن تنشر زراعة الزيتون في بلادي ، يجب أن نكشف كل تجار الحشيش .

وعاد يمسك بالكأس ، ويعب منه جرعة أ كبر ، وقد شعر أنه رد لسامي تحيته بألعن منها !

وقال سامي ، ليتفادى الصدام : معظم السياسيين تجار حشيش ، ولكن بعضهم أقل ذكاء من الآخر !

ــ أنا صحفي ولست سياسياً . وقد تعجب إذا قلت لك أني لم انتم في حياتي لحزب ، ولم أتعصب لزعيم سياسي ضد آخر . وإذا كنت قد راهنت على عبد الناصر ، فلأنه أول حاكم عربي توجه إلى الجماهير ، وحاول أن يكسبها بالكلمة . الآخرون كانوا يهتمون بالقمع . والحكم في كل أنحاء الدنيا يقوم اما على البنادق واما على الكلام . وميزة عبد الناصر في عالمنا العربي أنه استعمل الكلمة بدلاً من البندقية ، رغم أنه رجل عسكري . واخلاصي لمهنتي يفرض علي أن أكون مع هذا الطراز من الرجال ، ولا سيما أن معارضة عبد الناصر هي نوع من الانتحار أو على أحسن الفروض هو حكم بالهجرة . وأنا لا أحب أن أنتحر ، ولا أريد أن أهاجر مثلك . ثم لا تنس أنه في نظام يعتمد على كسب الجماهير ، هناك مكان معترف به للصحافة ، بعكس نظام الملك الذي تتفاوض معي باسمه ، والذي لم يعترف بالصحافة ولا بالفكر ، ولم ينظر يوماً إلى الصحافيين إلا على أساس أنهم مجموعة من السماسرة والمرتشين » !

وجاءت « فرانسواز » ساقية مطعم « الشاندلييه » ــ وكان مصباح المختار قد قدمها لسعيد ــ فتحول الحديث من السياسة إلى الغزل . ولكن سامي ، عاد يثير الموضوع من جديد ويقول : في الحقيقة صلتي بالملك تجارية . إنني أشرف على استثماراته واستثمارات غيره من كبار الأثرياء العرب في أوروبا . لا أدري إذا كان الأخ مصباح قد أخبرك بأنني أملك

مكتباً في جنيف لمثل هذه العمليات . الحمد لله .. لقد نجحت في مضاعفة ثروة كل من تعاملت معه ...

وسأله سعيد : وأنت ؟

ـــ وأنا أيضاً . أنا لم أعد مثالياً .

ثم استطرد بعد لحظات من الصمت فقال :

ـــ كنت مثالياً يوماً ما ، إلى أن امم الثوريون هذه المثالية ... ربما لقاؤنا الليلة هو آخر ما تبقى عندي من المثالية . ولذلك أشعر وكأنني في مكان غير مكاني . لقد لاحظت أن جماعة الملك مستاؤون من حملاتك ، وتطوعت للتفاهم معك . ليس هذا عملي ، ولكني اعتقدت أنني أستطيع أن أقدم لك عرضاً مجزياً !

وضحك سعيد ثم قال : كم ؟

ـــ ٣٠٠ ألف ليرة عند الاتفاق . ومثلها بعد سنة !

وتدخلت « فرانسواز » وقالت : لماذا لا تتحدثون بالفرنسية وكلنا يتقنها ؟

وضحك سعيد وقال لها : لأن ما نقوله يصعب فهمه بغير العربية !

ووقف سعيد في مكانه ، وأخذ « فرانسواز » من يدها وهو يقول لسامي : عن اذنك ، سأكتفي بعملية « فرانسواز » الليلة ... وابتعد بها في اتجاه الحلبة .

كان واضحاً أن سعيد يهرب من نفسه إلى الرقص . وكان واضحاً أن « فرانسواز » مأخوذة برجولة سعيد ، وطريقته في فرض شخصيته على من حوله ... فكانت تشد جسدها إلى جسده وكأنها قطة تبحث عن

الدفء . ومع ذلك ، فلم يحل الدفء المتبادل بينهما دون التفكير بالعرض الذي قدمه سامي الشريف مقابل التوقف عن مهاجمة سياسة الملك ...

* * *

حتى آخر الليل ، وسعيد الطرابلسي يتسلل من فراشه في اوتيل « ده رون » إلى غرفة الحمام ، وتنهدات « فرانسواز » لا تزال في مسمعيه ، وجسدها العاري المثير ملقى فوق السرير ، ظل يتذكر عرض سامي الشريف .

وعندما كان يضم أطراف « البرنس » بعد الحمام الفاتر ، ويستلقي فوق المقعد الوثير أمام النافذة ، راح يفكر في حديثه مع سامي .

كانت النافذة تطل على نهر « الرون » . وكان ، وهو في مقعده ، يرى نافورة « جنيف » الشهيرة وقد انعكست الأضواء عليها وعلى مياه البحيرة التي تنطلق منها . وكانت الساعة قد تجاوزت الخامسة صباحاً ، حيث تنتهي حياة وتبدأ حياة جديدة .

هل يكون اللقاء ، الذي لم يسع إليه ، مع سامي الشريف هو بداية حياة جديدة له ، كبداية هذا النهار الجديد ؟

خلال رحلته الطويلة في عالم الصحافة ، تعرض لإغراءات مادية كثيرة ، لكن إغراء واحداً منها لم يكن بهذه الضخامة .

٦٠٠ ألف ليرة لبنانية دفعة واحدة . لقد هرب أمس من نفسه بالرقص مع فرانسواز . ثم عاد فهرب بها ، ومعها ، ومن نفسه ، ملقياً بجسده في خضم ليلة حب عاصفة .

مرة ، كان يجلس وحده في مقهى « دبيبو » قريباً من صخرة الروشة في بيروت ، عندما لمح شبح إنسان يركض قريباً منه . وفي لحظات

كان الشبح يلقي بنفسه فوق الصخور ، من ذلك العلو الذي لم ينج من الموت فيه أحد . وتراكض مع الذين كانوا هناك ، وشاهد ما شاهدوا ، وسمع قصة تتكرر باستمرار . إنسان هرب من نفسه ، من متاعبه ، من هواجسه ليلقي بنفسه في أحضان الموت .

بعض الناس يهربون إلى الموت ، وبعضهم يهربون إلى الحب ، إلى جحيم الجسد ، يطفئون فيه النار التي تطاردهم ... هل كان هو يهرب من سامي الشريف ليلة أمس ؟

ها هو يعود إلى نفسه ، وها هي كلمات سامي الشريف تعود إليه كلمة كلمة !

* * *

عام ١٩٥٦ ، عندما صدر العدد الأول من مجلته ، قرر أن يكون أميناً مع نفسه ومع قرائه . كانت الصحف تنطق بلسان الزعماء ، فقرر أن يكون الناطق باسم القراء . وبدلاً من أن يكون في خدمة الحكام ، أخذ على نفسه أن يكون في خدمة المحكومين . الحقيقة ، يجب أن يقول الحقيقة ، كل الحقيقة ، وأن يتصدى لأشياء كثيرة لا تجرؤ الصحف الأخرى على التصدي لها . وكان يعرف أن ذلك قد يكلفه حياته ، ولكن ، ما قيمة حياة الإنسان بدون قضية ، فكرة ، رأي يؤمن به ؟

لكن الصدمة الأولى جاءته بعد صدور بضعة أعداد من مجلته .

كان عبد الناصر قد خرج منتصراً من حرب السويس .

منتصراً ؟

نعم ... ألم ينجح في تأميم القناة ؟ ألم يستطع أن يحمل الولايات المتحدة الأميركية والاتحاد السوفياتي على إيقاف الحملة العسكرية في بور سعيد ؟

وفي أقل من اسبوعين تحول عبد الناصر إلى « نبي » للجماهير . معبودها . كلامه لا يناقش ، وإنما يحفظ ويردد . كل كلمة من كلماته حولها الانتصار إلى معنى يشق طريقه إلى قلوب الجماهير ، فيطربها .

وكان عبد الناصر يقول للناس ، برغم الهزيمة العسكرية : « انتصرنا » . وكانت الملايين تردد من المحيط إلى الخليج : انتصرنا ، انتصرنا !

وكان هو أحد الملايين الذين أحبوا عبد الناصر ، ووجدوا فيه تجسيداً لأماني الأمة العربية وآمالها .

ولكن الترتيبات التي اتفق عليها عبد الناصر مع هامر شولد لم تكن تشمل عودة القوات المصرية إلى غزة ، لأن هذا القطاع لا يعتبر أرضاً مصرية . وعندما طال « غياب » غزة ، كتب أحد أصدقائه الفلسطينيين مقالاً صغيراً في مجلته بعنوان : « أين غزة ياجمال ؟ » . . وكان المقال مهذباً ، كلماته تنبض بالحب والتقدير . لم يكن الصديق يقصد التشكيك بعبد الناصر ، أو اتهامه بأنه أضاع غزة . كان مقاله عبارة عن خاطر ألح عليه كما ألح على كثير من الفلسطينيين الذين استبد بهم القلق على مصير قطاع غزة ... ومع ذلك فقد فوجيء بحملة صحفية تنقض عليه وعلى مجلته كالزلزال ...

كيف يجرؤ على التشكيك بالزعيم ؟
كيف يتطاول على بطل القنال ؟
كيف ؟ وكيف ؟ ولمصلحة من ؟

واتهم بالعمالة ، والرجعية ، وخدمة المصالح النفطية .

وكان هذا أول « درس » تلقاه سعيد ، وكشف له فداحة الثمن الذي يدفعه من يتصدى لتيار الجماهير .

طبعاً لم يقنعه الدرس في أن يغير من قراره بقول الحقيقة ، لكنه أدرك أن بعض الحقيقة يجب أن يبلع في بعض الأحيان !

وتتابعت الدروس ...

وكان يشعر بأنه ينضج معها ، لكنه لم يتخل يوماً عن الالتصاق بقرائه ، والتعبير عن ... أفكارهم ...

* * *

ليلة أمس ، جاء رجل من الماضي يحاول أن يغيِّر طريقه . والثمن ٦٠٠ ألف ليرة لبنانية !

وتطلع إلى فرانسواز ... وحسدها !

لقد انتهت مهمتها ، وها هي تنام باطمئنان وهدوء . لا تفكر بالأمس ، لأنه انقضى . ولا تفكر بالغد ، لأن الغد لا يحمل لها أية مفاجأة . أما هو ، فعالمه كبير وبلا حدود . وحياته ، كحياة كل صحفي في العالم العربي ، تدور في دوامة لا تنتهي .

وقام من مقعده . ثم اتجه إلى السرير ، والتصق بفرانسواز ، وكأنه يحتمي بها !

ورن جرس التليفون .

واستيقظ سعيد ليجد نفسه لا يزال في الفراش . فمد يداً متكاسلة ، ورفع السماعة . وكان مصباح المختار على الطرف الآخر يصيح : ألا تزال نائماً ؟

— كم الساعة الآن ؟

— الواحدة ...

— صباحاً ؟

ــ بل مساء ... يبدو أن فرانسواز كانت رائعة لدرجة جعلت الليل عندك يختلط بالنهار .

وتمتم سعيد ، وهو يلقي نظرة على الجسد العاري المثير ، الذي كان قد انقلب على الجنب ، هرباً من الضجيج ، ضجيج جرس التليفون ، وضجيج الحديث ، فقال : نعم ، لقد اخترقت بها حاجز الزمن !

قالها بالفرنسية لتسمعها « فرانسواز » .

فتثاءبت متثاقلة ، ثم زحفت نحوه ، وبدأت تمرغ وجهها فوق صدره !

وقال سعيد ، وهو يمشط شعرها بأصابعه : ما رأيك في زيارة لسامي الشريف في مكتبه ؟

ــ يظهر أنك اقتنعت ؟

ــ يا أستاذ ، أنا لا أختلف عنك لا في حب النساء ولا في حب المال ، ولكن الخلاف محصور بيننا في الأسلوب !

وتنهد مصباح ثم قال : لو قضيت معك العمر كله ، فلن استطيع أن أفهمك ! !

* * *

كان مكتب سامي الشريف يقع على الضفة الثانية من نهر «الرون» في الدور التاسع من بناية بنك « انترا جنيف » .

وقال سعيد لمصباح ، وهما يتجهان نحو المصعد : ما رأيك بسامي الشريف ؟

ــ ذكي جداً ، وهو من النوع الذي يمسك التراب فيتحول بين

يديه إلى ذهب !

وضحك سعيد وقال : لا شيء يلهب خيالك أكثر من الذهب والملايين !

— وهل تعتبر ذلك شذوذاً ؟ أنا مثل كل الناس . وهج الثروة جذاب وساحر ومن الصعب مقاومته ...

وتناولتهما سكرتيرة حسناء ، لتسلمهما إلى سكرتيرة أكثر حسناً ، حتى دخلا مكتب سامي الشريف .

كان يتحدث بالتليفون ، وبالعربية .

وراح سعيد الطرابلسي يتأمل المكتب ، إلى أن انتهى سامي من حديثه التليفوني ، فقال سعيد : حتى في جنيف تجري معاملاتك بالعربية؟

— صحيح نحن نعيش في أوروبا ، ولكن معظم معاملاتنا مع عرب .

وقال مصباح المختار : هل تعلم أن العرب قد أصبحوا أغلبية في جنيف ، وأن النكتة الشائعة هنا ، أن السويسريين يفكرون بمطالبة حكومتهم بإقامة قنصلية ترعى مصالحهم ؟

ورد سامي الشريف : البركة في النظم الثورية . حركة الهجرة إلى أوروبا توشك أن تفرغ العالم العربي من أصحاب الأموال ومن أصحاب الكفاءات !

وشعر سعيد الطرابلسي أن سامي الشريف يريد الاعتذار عن العرض الذي طرحه أمس في مطعم « الشاندلييه » إذ قال له : أرجو أن لا تكون قد أسأت فهمي ليلة أمس . أنا لم أعرض عليك ما عرضته إلا اعتقاداً مني بأني أقوم بعملية مفيدة ... لم أتصور أنك مثالي إلى الحد الذي ترفض

فيه عرضاً بـ ٦٠٠ ألف ليرة !

وأراد سعيد أن يخفف عنه ، فضحك وقال : يبدو أنك أنت المثالي رغم كل ما تتظاهر به من واقعية . أنا لم أتردد في قبول العرض إلا لأنني أقبض أكثر من ذلك !

وبدت الدهشة على وجه سامي الشريف ، وسأل : ممن ؟

— اسمع يا صديقي . في العالم العربي الآن فريقان : فريق ثوري يقوده جمال عبد الناصر ، وفريق انفصالي تقوده أموال البترول . ومن حسن الحظ أن العالم الثوري قد تنبه إلى أن المناضل لا يستطيع أن يعيش على المبادىء وحدها ، بل لا بد له من ضمانات ... وهو يقدم لنا فعلاً هذه الضمانات !

— ضمانات ؟ يعني فلوس !

— نعم ...

— إذن ما الفارق بين ما يدفعونه لك وبين ما عرضته عليك ؟

— الفارق كبير بين الدعم من أجل الاستمرار في النضال ، وبين صفقة من أجل التخلي عن قضية الثورة !

وهنا وقف سامي الشريف من مكانه وراء المكتب ، وقد بدت على وجهه علامات من تذكر أمراً لم يكن يحب أن يتذكره ، ثم ما لبث أن قال في انفعال ظاهر : أية ثورة ؟ ثورة علي الشيخ ؟

واستغرب سعيد التسمية : علي الشيخ ؟ هل هناك ثورة اسمها علي الشيخ ؟

— نعم ... يطلقون عليها اسم ثورة الجماهير ، ولكنها في الحقيقة ثورة علي الشيخ !

— من هو علي الشيخ ؟

— هل تريد أن تعرف من هو علي الشيخ ؟ سوف أروي لك القصة كلها ... ما رأيك في تناول العشاء في منزلي هذا المساء ... وحدنا بدون « فرانسواز » ؟

وقال مصباح المختار : وبدوني أنا ؟

وتابع سامي الشريف ، وكأنه لم يسمع كلام مصباح المختار ، فقال :

— سوف أروي لك القصة الكاملة للثورة التي خدعت أنا بها وخدع بها الكثيرون غيري ... ولذلك أقترح أن نتناول العشاء بدون فرانسواز .

وقال سعيد الطرابلسي : وماذا بقي من فرانسواز بعد ليلة أمس ؟ لقد جئت إلى أوروبا بحثاً عن التغيير لا الاستقرار .

وقال مصباح المختار : إذن سوف أنتظرك في ملهى « الباتاكلان » .

وقال سامي الشريف : على أية حال ، الصيد لا يبدأ قبل الثانية صباحاً . واعتقد أن قصتي لن تطول إلى ما بعد منتصف الليل !

* * *

ولم يكن سامي الشريف دقيقاً في وعده . لقد فتك « علي الشيخ » بالليلة كلها . وحتى الساعة الرابعة صباحاً ، كانا لا يزالان يسيران على غير هدى في شوارع جنيف ، بعد أن انتهى العشاء ، وخرجا من شقة سامي ...

لقد كان البعثي السابق يروي قصته ...

وكان سعيد الطرابلسي يستمع إليه ...

٢

— ألو . . .

ولم يتكلم أحد .

— ألو . . .

وأقفل التليفون .

كانت الساعة قد تجاوزت منتصف الليل ببضع دقائق ، عندما دق جرس التليفون . وردت السيدة سلوى الشريف ، فقيل لها : سامي موجود ؟

— من يريده ؟

— زميلته هدى !

— لحظة على الخط .

والتفتت السيدة سلوى وقالت لابنها : صوت آنسة يطلبك على التليفون . تقول انها زميلتك هدى . ولكني أعرف صوت هدى . انه مختلف . وهذه هي المرة الثالثة التي تطلبك !

وكان سامي قد عاد الى المنزل قبل حوالي ربع ساعة ، فأمسك بالتليفون ، ولم يكد يقول : « ألو . . . ألو » حتى أقفل الخط !

وقال : لعلها دعابة من أحد الرفاق !

ولكن لم تمض بضع دقائق حتى رن جرس الباب .

وفتحت الخادمة ، لتفاجأ برجل يمد قدمه الى الداخل ليحول دون إغلاق الباب . وقبل أن تنبس بكلمة ، كان زائر منتصف الليل يقول : نريد سامي بك !

ولم تكد الخادمة تعود الى الصالة حيث كان سامي وأمه ، حتى كان ثلاثة رجال يقفون خلفها . وجوههم وتصرفاتهم لم تترك مجالاً للسؤال عن هوياتهم .

كان سامي يعرف أن هنالك حركة اعتقالات في صفوف البعثيين ، بعد أن أقنع عبد الحميد السراج الرئيس عبد الناصر انهم يعملون ضده . ولكن سامي مثل كل الذين يعتقلون ، كان يستبعد أن يصل اليه الدور ، فلم يفكر لا في الاختفاء ولا في اجتياز الحدود .

قال أحد الرجال الثلاثة : تفضل معنا سامي بك .

وكالعادة سأل سامي : خير إن شاء الله !

— بسيطة . . . سؤال صغير .

— « عن اذنكم » ، سأرتدي ملابسي .

وامتدت نظرة من عين الرجل ، جمدته في مكانه ، تبعتها ابتسامة مصطنعة ، ثم قال : « ما في ضرورة . . . كلها خمس دقائق ! »

وفهم سامي وسكت . ولكن أمه صاحت : لا يجوز أن يخرج من البيت بالبيجاما ؟

كان سامي يعرف أن لا جدوى من النقاش . واكتشف انه يقف عارياً عاجزاً في مواجهة ثلاثة رجال يمثلون سلطة القمع .

وكأن السيدة العجوز أدركت عبث الاعتراض ، فحاولت أن تتودد للرجال قائلة : « طيب فنجان قهوة » !

كانت تحاول أن تمنح ابنها بضع دقائق من الحرية قبل أن يأخذه المجهول .

وفي تهذيب مثير للأعصاب قال الرجل ، وابتسامته تزداد تصنعاً : « حضري القهوة ستي . . . سنرجع ونشربها مع سامي بك ! »

ومعهم بالبيجاما خرج سامي .

* * *

ولم أشرب القهوة طوال ستة شهور ، شربت خلالها كل شيء .

ركبنا سيارة « فولكسفاكن » انطلقت بنا الى مقر المباحث العامة .

ودخلوا مبتهجين بفرحة العائدين من الصيد . وتركوني في غرفة فسيحة في الطابق الأرضي . نورها خافت . ليس فيها الا مقعد واحد . ورغم انها بلا نوافذ ، الا انها كانت رطبة باردة .

أشعلت سيجارة ، وجلست على المقعد ، وأنا أحاول أن أجمع أفكاري في انتظار التحقيق .

ومرت الساعات بطيئة ، بينما نفدت السجائر بسرعة ، وأخذ القلق يطحن أعصابي .

لماذا هذا الهجوم المفاجيء في الليل ؟ ولماذا التخوف من ارتداء ثيابي ؟ لو كان الأمر هيناً لاستدعوني في الصباح وهم يعرفون إنني لن أستطيع الهرب . لا بد أن الأمر أخطر مما يبدو حتى الآن .

ورحت أستعرض تصرفاتي في الشهور الأخيرة . وشعرت إنني تحولت

الى سلطة اتهام ، لأعثر على تهمة أوجهها لنفسي ، تبرر اعتقالي بهذه الطريقة .

ومرت الساعات واقترب الصباح . لم أعرفه الا من الساعة في يدي .

* * *

لو سئل سامي الشريف : « لماذا انتميت الى حزب البعث ؟ » . لما وجد جواباً مقنعاً يرد به على مثل هذا السؤال . كل ما يذكره هو أن زميلاً له في الثانوية اسمه « خالد » استطاع أن يؤثر عليه ، ويقنعه بأن أمة لها أمجاد ضخمة كالأمة العربية ، لا يجوز أن ينتهي بها الأمر لأن تكون محكومة من مجانين أو مغامرين أو مهرجين . وكان « خالد » يعدد حكام العرب الذين تنطبق عليهم هذه الأوصاف ، ثم ينتهي الى القول بأن لا مستقبل للأمة العربية بدون وحدة ولا أمل في التحرر من الزيف والأمراض والعادات والقوانين القديمة التي تتحكم فينا بدون وحدة . وان لا ازدهار ولا قوة ولا قدرة على مواجهة التحالف الصهيوني الاستعماري الاّ بالوحدة . . . كان يستعمل كلمات كبيرة ، لها وقع في الأذن ، وتأثير في نفوس زملائه الذين كانوا يستمعون اليه وهم مبهورون به وبكلامه وصوته الأجش الهادىء العميق . ولو سمع الآن مثل هذا الكلام لما تأثر به على الاطلاق ، لأن كل هذه الكلمات قد استهلكت لكثرة ما رددتها الألسنة وسمعتها الآذان . وعندما سمعها من خالد كانت لا تزال جديدة . فخالد كان قليل الكلام ، وكان يستعيض عن قلة كلامه بابتسامة جذابة ترتسم دائماً فوق شفتيه وكأنها خلقت معه . ابتسامة هي مزيج من الود والمحبة والسخرية . ولكن هذه الابتسامة كانت تختفي عندما يتحدث عن الأوضاع السياسية في سوريا ، فيحل مكانها لمعان مؤثر يتصل بين عينيه وانفراج شفتيه وبياض أسنانه . لقد استطاع أن يكون زعيماً في الفصل دون أن ينتخبه أحد . ومن خلال

شخصية خالد ، اهتم سامي بالسياسة . وبواسطته أصبح عضواً في حزب البعث ، وعن طريق أحاديثه المثيرة الشيقة أخذ يحلم بالأمة العربية الواحدة ذات الرسالة الخالدة . لقد أصبحت لديه قضية يحلم بها ، يحب ويكره من أجلها ، ويتطلع الى المستقبل من خلالها ، وينفعل بها لدرجة انه كان يستعذب عصي البوليس عندما كان يستعملها في تفريق المظاهرات التي كان سامي يشترك فيها !

وظهر عبد الناصر .

وسرعان ما وجد فيه كل الصفات التي كان يحلم بها لقيادة الأمة العربية الممزقة المشتتة الملقاة على أرصفة التاريخ .

وكان يحلو له القول أن مبادىء البعث تجسدت في عبد الناصر . فالفكرة كانت تبحث عن بطل . والبطل كان يبحث عن فكرة . . . وأخيراً التقيا .

وبعد الوحدة كان يسمع انتقادات الحزب للتسلط وحكم الأجهزة، ولكنه كان يعتبرها مجرد خلاف محتوم بين مثالية الحزب وواقعية السلطة . ولما استقال وزراء الحزب ، وقرر التنظيم العودة الى العمل السري ، حاول أن يبتعد عن هذه المشاركة ، لأنه كان يؤمن أولاً بعبد الناصر ، وبقدرته على اكتشاف الخطأ ، وانقاذ الموقف في آخر لحظة ، شأن أبطال الأساطير . ولأنه ثانياً ، كان يعرف انه لا يجيد عمل الخلايا السرية ، ولا يتقن فن مكافحة السلطات ، فهو في الأساس ينتمي الى عائلة تجارية ، اهتم بالسياسة من زاوية تأثيرها على اهتماماته الاقتصادية ، وآماله في بناء مجتمع عربي قوي . . .

ولأنه اعتقد أن طريق عبد الناصر هو الذي يفتح باب الازدهار أمام التقدم العربي ولأنه أيضاً — وهذا ما لم يقله سامي — اعتاد الجانب السهل

من الحياة ، فهو يحب الاستمتاع ، والرفقة الحلوة . حتى في صلاته الحزبية ، لم يكن متزمتاً شأن الرفاق ، بل حاول في أول لقاء له مع الرفيقة « هدى » أن يغازلها وهي في قمة حماستها ، تشرح مبادىء الحزب ، الأمر الذي أثارها ، وجعلها تتهمه بأنه بورجوازي منحل وتافه . . .

ومن يومها توقف عن مغازلتها ، وحرص على اقامة صداقة معها .

مثل هذه العلاقات الانسانية ، هي التي منعته من أن يقطع صلته برفاقه في الحزب ، حتى بعد أن أصبحوا موضع مطاردة جهاز الدولة الوحدوي . فالحزب لم يكن بالنسبة له مجرد مبادىء وشعارات ، بل مجموعة من الأصدقاء تعوَّد الحديث معهم ، والسهر برفقتهم ، وأحياناً ، مشاركتهم في سهرات حمراء لا علاقة لها بالاهتمامات السياسية .

هدى . . . ؟ لماذا استخدموا اسم هدى للسؤال عنه ؟ هل كانوا يعرفون كل شيء ؟ وهل صحيح أنهم — كما كان يقول الحزب — يتلصصون حتى على العلاقات الشخصية ؟ .

وحوالي الساعة العاشرة صباحاً ، وبعد أن وصل الى حالة ، تعب فيها حتى من القلق ، فتح الباب ، وسمع اسمه لأول مرة ينادى ثلاثياً : « سامي أحمد الشريف » .

وكأنه قد تعود على ذلك منذ سنوات ، فقد هب بطريقة لاشعورية وهو يقول : نعم سيدي !

ونقلوه في سيارة « بيك أب » الى سجن المزة ، حيث جردوه من الساعة ، والقداحة ، وهما كل ما كان في جيب بيجامته ، ثم قذفوا به الى الزنزانة .

* * *

— نعم ، قذفوا بي . . . ليس في ذلك مبالغة . أو بالأحرى قذفت بي يد عزت أفندي ، السجان الشركسي المشهور الذي كان يتولى استلام المعتقلين الجدد ، ويدخلهم الى الزنزانات بصفعة على القفا . ولم أكن — قبل ذلك — أتصور أن الانسان يمكن أن يطير في الهواء بصفعة على قفاه .

وعندما تعودت عيناي على الظلام ، وأفقت من دوار الصفعة ، تلفت حولي في الغرفة المقفلة ، لأجد نفسي في شبه سرداب طوله حوالي مترين ، وعرضه لا يتجاوز المتر ونصف المتر ، تتصدره بعرض الحائط مصطبة من الاسمنت ، فوقها حصيرة من القش المضفور ، وفي طرفها حفرة ، اكتشفت بعد ذلك انها دورة المياه . ثم لا شيء الا البلل والعفن . الجدران مخضرة من الطحالب النابتة عليها . ورائحة قاتلة تنبعث من تلك الحفرة التي كلما تذكرتها اقشعر جسدي ، وانتابني ميل للغثيان . في البداية لم أتصور انني أستطيع البقاء هنا ساعة واحدة . وقررت أن أبقى واقفاً حتى استدعى للتحقيق .

وبعد ساعة ، كنت جالساً على طرف المصطبة . ثم وجدتني ممدداً عليها ، وأنا حريص على أن أبقي رأسي بعيداً من الطرف الآخر القريب من الحفرة ، منكمشاً على نفسي لكي لا تلمس قدماي الحفرة ، مقسماً بكل الايمان بأنني لن أستعملها .

وساعة بعد ساعة ، كانت مقاومتي تنهار ، وانسانيتي تتلاشى . لم أعد أشم رائحة العفن . لم أعد أبالي إن سقطت قدمي في الحفرة . بل كثيراً ما كنت أنام ورأسي على حافتها . لقد تبينت أن الحضارة هي مجرد قشرة ، وان الانسانية عندما تنعدم خارج الزنزانة ، لا يمكن أن تستمر داخلها .

وبقدر ما انزعجت في الأيام الأولى للاهمال الذي عوملت به ، بقدر ما أصبحت أحمد الله عليه ، وأتمنى لو بقيت منسياً بقية عمري ، فقد كنت أسمع صيحات البؤساء الذين يتركونهم في الزنزانات المجاورة .

* * *

وأمسك سامي الشريف كأس الويسكي بيده وسكت طويلاً وقام من مقعده وأطل من وراء نافذة شقته القريبة من بحيرة ليمان في جنيف ثم قال : يخيل اليَّ يا سعيد ان الصرخات التي كنت أسمعها لم تكن أصواتاً تصدر عن تعذيب حقيقي ، بل شريطاً مسجلاً لممثلين محترفين من أجل تحطيم أعصاب المسجونين ، لأن ما كنت أسمعه يفوق قدرة

البشر ، ليس على التحمل ، فأنا أعرف أن الانسان يتحمل ما لا طاقة لكائن بتحمله . . . ولكن السؤال الذي كان يعذبني ويطرد النوم أحياناً من عيني هو : هل يوجد بشر يمكن أن يمارسوا مثل ذلك التعذيب ، ويستمروا فيه رغم كل هذا الصراخ الذي يمزق القلوب ؟

لقد كنت أسمع عن قصص أقبية المخابرات وما يجري فيها من « نفخ » و « كي بالنار » في الأماكن التي تسمى بالأماكن الحساسة ، كأن في جسم الانسان أماكن غير حساسة . ولكن السماع عن هذه العمليات يختلف تماماً عن الاستماع الى صرخات من يجري تعذيبهم ، وأنت في زنزانة مغلقة تنتظر دورك في أية لحظة .

* * *

وفتح الباب .

وأخذوا سامي الشريف الى غرفة مأمور السجن . وهناك رأى علي الشيخ يجلس وراء طاولة وبجانبه كاتب ومقعد تهالك عليه وهو

يفتح عينيه ، يكاد لا يصدق . هل هو فعلاً علي الشيخ ؟ أم رجل آخر يشبهه ؟

ضابط في الجيش ؟ . . محقق عسكري ؟

كان التقى بعلي الشيخ أكثر من مرة . كان آخرها قبل خمس سنوات . وكان الشاب متخرجاً حديثاً من المدرسة الحربية في حمص . ولم يره بعد ذلك ، وكل ما عرف من أخباره انه سحب أخته « غزالة » من العمل في منزل العائلة . . وها هو يجلس أمامه في مقعد المحقق . . .

ولكن من يضمن أنه هو لا غيره ؟ كيف السبيل الى التأكد من ذلك ؟

* * *

وبكل تهذيب قال الضابط المحقق : « أنا آسف يا أستاذ سامي أن نلتقي بعد هذه الغيبة في مثل هذه الظروف . . ولكن من يدري ، قد يكون في ذلك خير ، لأنك تعلم انني لا أريد ايذاءك ! ! »

* * *

اذن هو علي الشيخ . .

وانفرجت أساريره ، شعر براحة من وجد نبع ماء بعد سير شاق طويل في صحراء قاحلة ليس فيها سراب . مرة واحدة ، انزاح عن صدره كل تلك الأثقال التي تراكمت في أعماقه منذ خروجه من منزله .

وفجأة ، تداعت الصور في مخيلته . وأخذت تتزاحم وكأنها تريد أن تخرج مرة واحدة . . .

* * *

ــــ سيدي سامي . . . ألا تريد رؤية أخي علي ؟

ونظر سامي الى غزالة ، يتأمل السعادة التي كانت تشع من عينيها الخضراوين ، ثم قال لها ، وهو يشير الى فستانها المشقوق من الجانبين : هل قابلت أخاك بهذا الثوب الفاضح ؟

ــــ لم يكن لدي الوقت لتغييره . كان حضوره مع أبي مفاجأة . وقد أنستني الفرحة بلقائه ما كنت ارتديه . وعلى كل انه يعرف أن الفستان ليس لي ، وإني لا أخرج بمثله أمام الناس .

ــــ الذي أخشاه هو ما يمكن أن يثيره هذا الفستان من شكوك وظنون حولك . . .

واحمر وجه غزالة . وخفضت رأسها ، وحل محل البريق في عينيها الخضراوين شعاع حزين .

وأدرك سامي أنه جرحها ، فقام من مقعده وقال : انت تعرفين يا غزالة كم أحبك وأحرص عليك ، فأنا لا أريد أن يداخل الشك أحداً من أهلك !

واتجه الى الصالون حيث كان والده ، وبجانبه يجلس قاسم بقمبازه المقلم الذي تعود أن يلبسه في المناسبات ، وعلى مقعد آخر يجلس شاب في التاسعة عشرة أو العشرين من عمره ، لا بد أن يكون عليا شقيق غزالة ، بالرغم من أنه لم يكن هناك شبه قريب بينهما . وكانت أول مرة يلتقي فيها سامي الشريف بعلي الشيخ .

وهب قاسم من مكانه عندما رأى سامي يدخل الصالون ، وركض اليه وهو يقول : ما شاء الله ، يحميك من عين الشيطان يا ابني . لقد أصبحت شاباً . آخر مرة رأيتك فيها لم تكن ترتدي البنطلون الطويل !

وكان سامي يرتاح لقاسم ، ويحب أن يستمع الى قصصه ونوادره التي لا تنتهي . فمنذ أن أتى بابنته « غزالة » من قريته النائية القريبة من اللاذقية ، وهو يتردد عليهم في المناسبات . ولم تكن غزالة قد تجاوزت العاشرة من عمرها عندما جاءت لتخدم عندهم بالطريقة التي كانت متبعة في سوريا ، أي التعاقد لعدة سنوات نظير مبلغ مقطوع يدفع للأب سلفاً . ولم يكن سامي قد تجاوز الخامسة عندما دخلت غزالة الى بيت أحمد الشريف ، فكبرا معاً . وكانت نظرته لها نظرة أخ لأخته . صحيح أنها أخت من الدرجة الثانية ، ولكن عدم وجود شقيقة لسامي في البيت جعلها تأخذ مكاناً وسطاً بين الخادمة والأبنة ، ولا سيما أنها كانت الابنة الوحيدة في البيت .

وقال قاسم مخاطباً سامي : خادمك « علي » نجح في شهادة البكالوريا ، وقد جئنا اليكم لنستشير الوالد في مستقبل علي ، وأعتقد أنك تستطيع أن تساعدنا في الرأي !

ونظر سامي الى علي .

كان يبدو وكأنه مربوط داخل البدلة الجديدة التي يرتديها . كان شديد الإحساس بها . ومنذ دخول سامي الى الصالون وعينا علي لم تكفا عن تأمل ثيابه وثياب والده أحمد الشريف . وعندما دخلت أخته « غزالة » لتقدم القهوة والحلوى — وقد غيرت فستانها ، لكنها لم تستطع أن تخفي مفاتن جسدها الذي طالما ألهب عيون الرجال في منزل أحمد الشريف — ظهر على وجهه شيء من الضيق .

ولاحظ سامي أن « علي » كان ينقل نظراته بينه وبين أخته غزالة كمن يحاول أن يستشف ما يمكن أن يصل اليه مراهق يعيش مع شابة — وان كانت تكبره ببضع سنوات — تحت سقف واحد .

وقد يكون أحمد الشريف قد شعر بالحرج الذي يعانيه علي الشيخ ، فاستأنف الحديث المحبب اليه والى والده ، والذي جاءا من أجله ، وهو مستقبل علي . لقد كان الشاب هو الصبي الوحيد في عائلة قاسم الشيخ . لقد أنجب قاسم أربع بنات توزعن العمل بين اللاذقية وحمص ودمشق ، وأرسل الصبي الوحيد الى المدرسة . . فكأن الأقدار قد اختارته لكي يضحي الجميع من أجله . كلهم يخدمون ، حتى أبوه كان يخدم في بستان خالد بك ، لكي يوفر له احتياجات التعليم .

وقال قاسم : فكرنا في أن يدخل علي كلية الهندسة ، فقد يجد عملاً في مصانعكم . ولكن خالد بك نصحني بأن أوجهه الى كليه الطب فليس في قريتنا طبيب !

وقال أحمد الشريف : الله يسترها مع خالد بك ، هل عندكم في القرية من يملك مالا يدفعه الى الأطباء ؟ كلهم سيتعالجون عند ابن « أبوعلي » بالمجان

وتكلم علي لأول مرة ليقول : هذا إذا لم يطلبوا منا ثمن الدواء أيضاً !

وتأمل أحمد الشريف علي الشيخ ، ثم سأله : كم طولك ؟

— ١٧٦ سم .

— عال ، أعتقد أن المدرسة الحربية هي أفضل الآن من الهندسة والطب . ثم ان المدرسة موجودة في حمص ، وهي قريبة منكم . التعليم والطعام والمنامة والوظيفة كلها مضمونة . لن تكلفكم المصروفات الضخمة التي تحتاجها الدراسة في كليات الطب والهندسة . والدولة الآن مهتمة بالجيش . ان حركة حسني الزعيم جعلت المستقبل مضموناً للعسكر !

ولأول مرة لمعت عينا علي الشيخ بنشوة .

* * *

— صدقني يا سعيد ، لا أزال أذكر ذلك اللقاء وكأنه حدث أمس. خيل اليَّ يومها انني لمحت النياشين تطل من عينيه . وكنت كلما حاولت مداعبة غزالة بعد ذلك ، أقول لها : من يدري ، قد يصبح أخوك علي مثل نابوليون ، فالضابط الكورسيكي لم يكن شيئاً قبل أن يأتي الى باريس ويركب موجة الثورة الفرنسية !

وعندما جاءنا مرة ، وكان ذلك في عيد الفطر عام ١٩٥٢ ، يرتدي ثياب طلاب المدرسة العسكرية في حمص ، قلت له مازحاً : احذر أن يراك أديب الشيشكلي، فأنت منافس خطير له ، على الأقل بوسامتك !

* * *

واعتدل المحقق علي الشيخ في مقعده . وفتح ملفاً كان بين يديه ، ثم قال لسامي الشريف : لا أخفي عليك ، انني عندما قرأت المعلومات التي تحتويها « اضبارتك » ، لم أصدق أن شاباً مثلك يرتكب ما فعلت . ولكن كلنا يخطىء .

قالها ببرود ، ثم التفت الى الكاتب وقال له : افتح المحضر !

ودهشت أن يكون لي ملف ، وأن أكون قد ارتكبت أعمالاً خطيرة تستحق أن أسحب من منزلي بالطريقة التي سحبت بها ، ويلقى بي في زنزانة منفردة أسمها « زنزانة أبو ريحة » في سجن المزة . وقلت لعلي ، وكأني أريد أن أستعين بكل الذكريات الطيبة التي كانت تربط عائلتي بعائلته .

— ما هي التهمة ؟ أؤكد لك إنني بريء . . لا بد أن هناك خطأ ما . .

وجاء صوته بارداً أجوف وهو يقول :

يا استاذ سامي ، إذا كنت بريئاً فعليك أن تتكلم بالتفصيل . . لا تحاول أن تخفي شيئاً عني . هذا أفضل وأكرم لك .

— أتكلم عن ماذا ؟

— عن كل شيء .

— أنا مستعد .

— اذن تكلم من الأول . من البداية .

— بداية ماذا ؟

— قصة حياتك . حياتك في البيت . عن حقيقة العلاقات بين أمك وأبيك ؟ هل كانا يتشاجران كثيراً ؟ وما هي الأسباب ؟ !

وهمست بيني وبين نفسي : الى أين يريد الوصول ؟ ولماذا يريد أن يعرف حقيقة العلاقات بين أمي وأبي ؟ وماذا يهمه من حياتي في البيت ؟ هل يريد أن يعرف حقيقة علاقاتي بأخته « غزالة » ؟ وهل كان — عندما جاء الى بيتنا أول مرة مع والده ، وراح يستشف ما يمكن أن يصل اليه مراهق يعيش مع أخته تحت سقف واحد — ، يعرف شيئاً عن . . .

* * *

— استغفر الله يا سيدي .

كانت يد « غزالة » قد انتقلت من ظهري الى فمي ، بعد أن استدرت فجأة ، وقد اشتعل جسدي برغبة لا أعرفها ، ولكنني كنت أحسها لأول مرة . كنت مستلقياً باسترخاء داخل برنس الحمام ، و « غزالة » جالسة تجفف قدمي ، ثم امتدت يداها حتى ركبتي . وفجأة تنبهت الى أننا وحدنا في المنزل . وإن ريقي قد جف في حلقي . وان

لمساتها على ساقي كانت تطرق قلبي بعنف . وان حرارة الغرفة أصبحت أكثر ارتفاعاً من الحمام الساخن الذي خرجت منه لتوي . وامتدت يداي المرتعشتان تتشبثان برأسها . ورفعت الي عينيها الخضراوين ، وفيهما نظرة لم أعرفها من قبل في عيني غزالة . ربما كانت فيهما دائماً ، ولكن عيني هما اللتان تفتحتا اليوم لأول مرة . وانحنيت فقبلت يدها ، وبينما كانت تهمس : « أستغفر الله يا سيدي » كنت أشعر أن يدها تجذبني من مقعدي اليها على الأرض . ولا أدري حتى اليوم كيف أصبحنا عاريين . ومن الذي بدأ . فقد كانت هذه تجربتي الأولى . . . مع امرأة .

وجاء صوتها مرة ثانية دافئاً حنوناً « احترس من البرد يا سيدي » .

كانت تنام على ذراعي ، وقد سترت نصفها الأسفل بطرف ثوبها ، بينما استلقيت أنا عارياً فرحاً بكشف رجولتي أمام عيني المرأة التي مهما تعريت أمام نساء بعدها فلن أستطيع أن أنساها !

ويوماً بعد يوم ، تعودت على غزالة . كانت نافذتي الى عالم الجنس بكل ما فيه من اكتشافات مراهق لم يتجاوز الرابعة عشرة . وكنت أشعر أن غزالة قد أحبتني . كانت تنطلق معي على سجيتها . وكنت أتجاوب مع كل رغباتها . وشيئاً فشيئاً اكتشفت أنها تعرف الكثير ، ثم تنبهت الى أنني لم أكن الرجل الأول . لم يكن هناك دم يوم الحمام . ولم تكن هناك صعوبة في الممارسة الأولى معي . وبدأت أتساءل : من هو الرجل الأول في حياة غزالة وقد جاءت الى بيتنا في سن العاشرة ؟

وقفز الى خاطري « أبو عبدو » سائق سيارتنا ، ولكنني استبعدت الخاطر بسرعة . غزالة الحلوة ، الرقيقة ، المعتزة بنفسها ، لا يمكن أن تسلم نفسها « لأبو عبدو » . وعندما راقبت تصرفاتها معه لاحظت أنها تتسم بشبه تعال لا يمكن أن يصدر عن امرأة سلمته جسدها !

وانتقلت شكوكي الى أولاد الجيران . . ولكن أين ؟ إنها لا تكاد تخرج من البيت . . وقد وصل بي الفضول الى درجة تساءلت معها : هل فقدت غزالة عذريتها في القرية قبل أن تأتي الينا ؟

وأخيراً استجمعت شجاعتي وسألتها ، ولكنها كانت تعرف كيف تتهرب من الاجابة ، فتسكتني بقبلة على فمي ، وهي تتثنى على نحو يجعلني أنسى السؤال ، بل وأحياناً أشكر ذلك الرجل المجهول الذي مهد لي الطريق .

* * *

ذات ليلة ، لم يستطع سامي الشريف النوم . كان بحاجة الى غزالة . لكنها لم تأت كما اعتادت . ولم يستطع أن يقاوم أكثر ، فتسلل على أطراف أصابعه حتى وصل الى « تتخيتة » المطبخ حيث تعودت أن تنام . وقبل أن يضع قدمه على أول السلم ، سمع أصواتاً لم يكن من الصعب عليه أن يفهم معناها .

رجل مع غزالة ؟

وغلت الدماء في عنقه وهو يسمع التأوهات التي تعود أن يسمعها من غزالة ، وهمسات رجل يعرف صوته . ولكن لم يشأ أن يصدق إنه هو . كان ذلك أفظع من أن يصدق .

وتراجع الى باب غرفته ، مختبئاً في الظلام ، وهو ممزق بين فضوله بأن يتأكد بأنه هو ، وبين رغبته في تجنب الصدمة .

وبعد انتظار بدا له طويلاً ومرهقاً ، خرج الرجل من المطبخ .

وتأكد أنه أبوه !

كانت هذه صدمته الأولى ، وكانت مزدوجة . فجيعته في أبيه ،

وفجيعته في غزالة حبه الأول .

وأقسم ألا يمس غزالة بعد اليوم . ولكنه لم يستطع أن يتقيد بقسمه طويلاً . وبالرغم من أن أحد زملائه في المدرسة اصطحبه الى بيت سري ، إلا أن التجربة كانت فاشلة ، وأعادته أكثر شوقاً وأكثر حقداً على غزالة . تحول الحب الى ادمان ، بكل ما في الادمان من لهفة واذلال ومرارة .

* * *

وعاد صوت المحقق علي الشيخ يصيح : أين سرحت ؟

وقال سامي الشريف : أبداً ، إني أفكر في السؤال ، فما دخل أبي وأمي في هذا التحقيق ؟

— أنت لم تدرس علم النفس الحديث . ما من أحد يولد منحرفاً ، ولكن البيئة هي التي تصنع المنحرفين . نريد أن نعرف الأخطاء التي ارتكبت في تنشئتك ، والتي قادتك الى هذا الطريق !

— أي طريق ؟

— لا تضيع وقتنا . . . أنت تعرف ماذا ارتكبت . وهذا ليس هو المهم ، فنحن أيضاً نعرفه ، ولكننا نريد أن نعرف من أنت ؟

— من أنا ؟ أنا سامي الشريف ابن النائب السابق أحمد الشريف . من عائلة تعيش في سوريا ، ربما من أيام الأمويين . من أنا ؟ سؤال لم أكن أتصور أنه سيوجه اليّ في دمشق ، ومن علي الشيخ بالذات !

وبدأت أروي قصة حياتي ، وكأنني كنت أرويها لنفسي . . .

٣

كنت أكثر حرصاً من علي الشيخ على اكتشاف الغلطة التي قادتني إلى هذا الموقف . بل وأهم من ذلك ، اكتشاف الغلطة التي وضعت علي الشيخ فوق مقعد المحقق ، وألقت بي في قفص الاتهام .

في البداية ، كنت أبذل كل جهدي لإثبات براءتي . وبعد عدة جلسات أصبح كل طموحي هو أن أعرف تهمتي .

لقد اكتشفت أن هناك تصميماً على ادانتي ... ليكن ، فقط ، أريد أن أعرف بأي تهمة سأدان . أريد أن أعرف أية تهمة اختاروا لي ؟

هل لأنني انتميت لحزب البعث ؟ ولكن منذ أسابيع فقط كان حزب البعث شريكاً في السلطة .

ولم أنجح في السيطرة على أعصابي ، بل اندفعت صائحاً : هل نحن جزء من جهاز الدولة ، نغير انتماءاتنا بتغير موقف السلطة ؟ نحن لسنا موظفين !

وانفعل علي الشيخ ، ورد في غضب :

ماذا تقصد ؟ نحن لسنا أدوات ، نحن نتصرف عن اقتناع . عندما كان حزب البعث في السلطة ، لم تكن انحرافاته قد كشفت بعد . كان يتمسح بشعار الوحدة ، فكان طبيعياً أن نطارد خصومه . أما الآن ، وقد ثبت تآمره على دولة الوحدة ، فقد أصبح من واجب كل وطني أن يكشف هذا التآمر !

وغلبت عليَّ روح السخرية فقلت : ولكنكم مقصرون في حقنا . كان عليكم أن تخطرونا بهذه الحقائق قبل مدة كافية ، لكي نعدل موقفنا ، لا أن تفاجئني بهذه المعلومات في سجن المزة ، حيث فرصة الاختيار معدومة !

— لقد اخترت وتآمرت يا سامي بك ، والفرصة لم تضع بعد ... تعاون معنا ، انه الطريق الوحيد للخلاص !

* * *

— يا سامي ، نحن تجار ، والتجارة لا تتفق مع السياسة .

— لا أحد يستطيع الهرب من العمل في السياسة يا أبي . لماذا رشحت نفسك أنت للنيابة ؟

— أنا لم أنتم لأي حزب . والنيابة فرضت عليَّ فرضاً بحكم مركزنا ، لأننا أكبر عائلة في الدائرة . وعندما دخلت المجلس النيابي ، ورأيت الصراع بين الأحزاب والكتل ، امتنعت عن المشاركة فيه . بل تغيبت عن معظم جلسات البرلمان .

— وهل تعتبر ذلك ابتعاداً عن السياسة ؟ لقد قاطعت البرلمان لأنك لم تؤمن به . كنت تفضل حل مشاكلك وحماية مصالحك من خلال

الاتصالات الشخصية ، وممارسة النفوذ على طبقة السياسيين ... ولكن الدنيا تغيرت يا أبي ، كل شيء أصبح بالشعب . وكل شيء لا بد أن يتم عن طريق البرلمان !

وعندما عطلت الانتخابات ، وبدأت دوامة الانقلابات ، واعتقل النواب ، وحوكم الوزراء ... كان أبوه يسخر منه مردداً عبارته « صحيح الدنيا تغيرت . كل شيء أصبح بالشعب » !

* * *

وعاد المحقق علي الشيخ يسأل ، ولكن في قسوة هذه المرة :

— قل لي كيف انتميت إلى حزب البعث ؟

— مثل كل الشباب الذين اعتقدوا أن في استطاعتهم خدمة بلادهم عن هذا الطريق !

— وهل يمكن خدمة البلاد عن طريق توجيه الانتقادات والاتهامات للوحدة ولشخص عبد الناصر ؟

وعبثاً حاول سامي الشريف أن ينفي التهمة عن نفسه . ولكن صبر علي الشيخ كان قد نفد ، فخبط على الطاولة بيده وقال : إذا كنت ستبقى مصراً على المراوغة ، فهناك وسائل كفيلة باقناعك بالكلام !

وشعر بأن ليس أمامه طريق للخلاص إلا بالاعتراف بأي شيء ، ولو كان غير حقيقي . ولكنه لم يستطع أن يمنع نفسه من التساؤل بين الحين والآخر : لماذا يعامله علي الشيخ بتلك الشراسة والعنف والاصرار على انتزاع اعترافات تدينه ؟ لماذا كان متلهفاً على سماع أي شيء يدين حياته العائلية ؟

وراح يروي قصصاً عن خلافات كانت تقع بين أمه وأبيه لم تحدث

قط . ووجد نفسه يقول : ... وسمعت صراخ أبي يرتفع في مكتبه . وكانت أمي تبكي وتردد بأنها لن تبقى في البيت . وأنها لا ترضى بأن تعيش مع رجل يخونها مع خادمة !

ولمعت عينا علي الشيخ ، وقاطع سامي قائلاً : مع خادمة ؟ أية خادمة ؟

وشعر سامي بأنه انزلق بالرغم منه ... هل يقدم على توجيه ضربة إلى هذا الرجل الذي يجلس أمامه وكأنه القضاء والقدر . يدفعه إلى الكذب. إلى الافتراء على نفسه ؟ هل يخطو خطوة أخرى في هذا الطريق فيقول له أن الخادمة كانت اخته « غزالة » ؟

* * *

كانت الساعة قد تجاوزت منتصف الليل . وسامي الشريف لا يزال يتحدث . ولا ينقطع حديثه إلا عندما يعب الكأس ، أو عندما يشعل سيجارة من عقب سيجارة توشك على الانطفاء .

لقد سيطر علي شعور غريب ، وانا امعن في رواية الأكـاذيب عن عائلتي . عن رفاقي في الحزب . عن اجتماعات سرية لم تحدث ، حضرتها وانتقدنا فيها أخطاء الوحدة . وحكم المخابرات . وتسلط أجهزة عبد الحميد السراج . لقد انسجمت في إختلاق الروايات الخيالية بعد ان اقتنعت بانني مدان سلفا ، وان علي الشيخ هو القاضي ، وهو الوطني ، وهو الناصري الوحدوي . وأنا ضد الخط الوطني ، وضد الوحدة ، وضد عبد الناصر ، لا لأنني بعثي فحسب ، بل لأنني بالدرجة الأولى ولدت في بيت غني ، وأن أبي يمتلك المصانع ، وأنه كان نائباً في البرلمان الذي جاء بعد الاستقلال ، وكان السبب في هزيمة ١٩٤٨ ، ثم وهذا هو الأهم ، لأن اخته كانت تخدم في منزلنا .

كل شيء قبل الانقلابات ، وقبل الوحدة ، وقبل عبد الناصر كان مداناً . وكنت على استعداد لأن أدين الماضي كله . بل لقد ادنته قبل أن أدخل سجن المزة . كنت اعتبره متخلفاً عن عصرنا . عقبة في طريق نمو وتقدم المجتمع العربي . ولكنني لم أكن أتصور أنني سأطالب يوماً بإثبات براءتي من أبي . لعلها كانت هذه هي تهمتي الوحيدة في نظر علي الشيخ... انه ، وهو يجلس فوق مقعد المحقق كالطاووس ، كان يبدو شديد الفخر بأنه هو الذي يمثل الوطنية وأنا الذي أمثل الخيانة ... وصدقني إذا قلت لك يا سعيد ، انني خلال تجربتي مع علي الشيخ أدركت أن السلطة والوطنية هما وجهان لعملة واحدة في نظره . الوطني هو من في السلطة . ومعارضة السلطة تعني الخيانة . واعتقد أن جميع الضباط الذين قفزوا إلى السلطة يفكرون على هذا النحو . يتصرفون عن اقتناع مطلق بأنهم يدافعون عن الوطن عندما يدافعون عن بقائهم في السلطة . وفي مواجهة مثل هذا المنطق تسقط كل حجة ويستحيل الاقتناع ...

* * *

كانت الأسئلة تنهال عليه كالسياط .

وكان المحقق علي الشيخ يلح عليه بالأسئلة : « لقد قلت أن الاجتماع الثاني كان في مقهى الكمال . وقلت أن « ناظم » كان يتردد على زعيم الحزب . من هنا ، من هذه النقطة ، تكلم ... »

ويتكلم سامي كيفما يسعفه خياله ...

ولكن علي الشيخ لا يلبث أن يكتشف أن سامي يخدعه ، وأنه يروي له قصصاً من الخيال ، فيغضب ، ويقف من وراء الطاولة ، ويقول في عصبية ظاهرة :

« لقد عجزت . سأرسل لك من يستطيع أن ينتزع منك الحقيقة . كل الحقيقة » .

ويخرج من الغرفة .

ويعيدون سامي إلى زنزانته !

* * *

وقال سعيد الطرابلسي وهو يقف من مقعده : ما رأيك في الخروج من هذه الزنزانة ؟؟ وخرجا من شقة سامي إلى شوارع جنيف . كانت الساعة قد تجاوزت الثانية صباحاً . وسارا في اتجاه البحيرة . كان الهواء البارد يلفح وجهيهما ويخفف عن سامي التهاب الذكريات .

وسأل سعيد : هل صحيح أنك كنت تكذب على المحقق ، وأنت تتحدث عن المؤامرات التي اشتركت فيها ضد دولة الوحدة ؟

والتفت سامي إليه دهشاً وقال : هذه نقطة غريبة ، كنت أظن أنها تحيرني أنا وحدي . لقد خيل إليَّ أثناء التحقيق أنني لا الفق ضد نفسي ، بل أقول الصدق ، وانني متآمر فعلاً . وعندما انتهت المحنة ، وخرجت من سوريا ، ودرست علم النفس الذي نصحني علي الشيخ بدراسته ، تنبهت إلى أنني لم أكن كاذباً تماماً . كنت أتمنى لو كنت هذا المتآمر . كنت مجرماً في نظر نفسي لأنني لم أتآمر ضد مثل هذا النظام الذي يمثله علي الشيخ ... فرحت أكفر باعترافاتي الكاذبة . واليوم عندما اسمع اعترافات المعارضين للنظم العربية في الإذاعة والتلفزيون عن المؤامراتالتي دبروها ، أفهم دوافعهم ... أنهم يعترفون بما كانوا يتمنون أن يفعلوه .

وقال سعيد : أنا أفهم مشاعرك . واعذر موقفك تماماً ، فليس أفظع من الظلم ، ولا أقسى من أن يتهم الإنسان في وطنيته .. ولكني

اعتقد أنك أذكى من أن تبني مواقفك القومية على اعتبارات فردية لقد اعترف عبد الناصر نفسه بوقوع أخطاء في سوريا . وهل تستبعد أن تكون بعض هذه الأخطاء قد ارتكبت عن قصد من عناصر متآمرة ، لكي تدفعك أنت وأمثالك للكفر بالوحدة ؟

ـــ المأساة ، أنني مقتنع أن علي الشيخ لم يكن متآمراً ، بل كان يمثل عقلية النظام . لو كانت المشكلة في خيانة أو انحراف أحد أجهزة السلطة لما هاجرت ، بل بقيت وكافحت هذا الانحراف . ولكن الخطأ هو مفهوم السلطة أساساً . في الربط بين الصواب والسلطة . ولأنني لست في السلطة ، لم يعد لي مكان في سوريا ، بل ولا في العالم العربي !

ـــ كل الثورات تقع في أخطاء . والمهم هو حركة التاريخ . هل تذكر كم من الأبرياء ماتوا في الثورة الفرنسية ، ثم في الثورة الروسية ؟ فليس المهم أن نظلم الأفراد ، المهم أن لا نظلم الشعوب . وقبل عبد الناصر كانت أمتنا مظلومة بالتخلف والتمزق والخضوع للأجنبي ، فجاء عبد الناصر ورفع الظلم عن الأمة ... أنت الآن مهاجر في أوروبا ، ولكن ألا تحس بالفخر لأنك عربي ، ولأن عبد الناصر أعاد للعرب كرامتهم ؟

وقذف سامي بسيجارته إلى البحيرة ثم قال . نظرتنا إلى الأمور مختلفة . أنا لا أهتم بهذه الانتصارات التي تتحدث عنها . انني أؤمن ـ ربما عبر تجربتي الذاتية ـ أن المقياس في الحكم على أي نظام هو مدى ما يمنحه من حرية وضمانات للمواطن . ولا اعتقد أن هناك قضية عامة تحتاج لكبت حرية الإنسان . ولا أظن أن أمة تنتصر إذا ما عومل أفرادها المعاملة التي لقيتها .

ـــ من الخطأ أن ندين نظاماً من خلال مأساة فردية ، ربما لعبت

فيها العوامل الشخصية دورها .

— لم أكن حالة فردية ، بل لعل ما أصابني كان أقل بكثير مما أصاب الآخرين . البعض قتل ضرباً بكعوب الأحذية . والبعض اذيبت جثتهم بالحامض . تقليع الأظافر والكي بالكهرباء وتعذيب الأهل ، كلها أساليب معروفة ومقبولة . ولكن ما هو أخطر من ذلك أنك لا تعرف التهمة الموجهة إليك .. لأنك لا تحاكم .

وأحس سعيد أنه قد ضيق عليه الخناق ، فتحول إلى الهجوم :

— لا تجعل من نفسك بطلاً للحريات ، كل هذه الأساليب البوليسية كانت معروفة قبل الوحدة . السراج كان يحكم سوريا قبل عبد الناصر . وخلافكم مع عبد الناصر لم يكن حول الحريات ، بل على المصالح الطبقية . لقد هاجر آلاف من سوريا دون أن يعتقلوا ولو يوماً واحداً . هربوا بأموالهم ومصالحهم الطبقية . أنت لم تفقد جذورك في سوريا باعتقالك ، بل عندما صفيت كطبقة ...

ولم ينفعل سامي . ربما كان قد تعود سماع مثل هذه الاتهامات ، مثلما اعتاد على أن يدان لمجرد أنه من عائلة بورجوازية . وبهدوء قال :

— بالعكس . عندما صدرت قرارات التأميم قبلتها دون تردد ، وخاصة عندما عينوا والدي مديراً للمصنع . كنت في السجن . وكنت كبعثي قديم أحمل بعض بذور الاشتراكية . وكانت ملكية المصانع في ذهني مقترنة بنمو القدرة الوطنية لبلادي . ولكنني ، عندما خرجت ، وجدت أن التأميم قد نقل الملكية من أبي إلى علي الشيخ ..

وهنا قاطعه سعيد : هل باعوا المصنع لعلي الشيخ ؟

ضحك سامي وقال : ليس تماماً . ولكن السلطة في نظري كانت

في تلك الأيام هي علي الشيخ . والذين كانوا في السلطة ، كانوا يتصرفون في الملكية العامة ، وكأنها ملكيتهم الخاصة . ولا تنس أنني لست وحدي الذي هاجر . هناك آخرون لم تؤمم مصانعهم ، ولكنهم أحسوا بفقدان الانتماء للوطن .

— ما هو الانتماء في رأيك ؟

— هذا هو السؤال الذي كثيراً ما طرحته على نفسي . في ليالي المزة الباردة الموحشة . كنت أسأل نفسي : وطن من هذا ؟ هل هو وطني أنا العاجز الذي لا يعرف ما هي تهمته ، انتزعت من بيتي ومن بين أهلي ومن كل الملكية التي بناها أجدادي ، أم هو وطن ذلك الذي يقف على الجانب الآخر من باب الزنزانة ، والذي يملك بكلمة واحدة أن ينقلني من صف المواطنين الشرفاء ، إلى صف المتآمرين الخونة ، بل وأن يشنقني معلقاً ورقة في عنقي في ساحة المرجة ؟ .. يومها اتخذت قرار الهجرة ... فإذا كنا فقدنا حقوق الانتماء ، فليكن لنا حق اختيار البلد الذي ننتمي إليه !

* * *

حتى في « شامونيكس » كان سامي الشريف يتحدث عن حق الاختيار ، وهو متعتع بالسكر ، يلف يده حول خصر إحدى الصبيتين الالمانيتين اللتين دعاهما لقضاء ثلاثة أيام في الشاليه الذي يملكه في تلك القرية العالية التي تغمرها الثلوج معظم أوقات السنة . لقد أراد أن يعوض على سعيد الطرابلسي الليلة التي سرقها من عطلته عندما راح يروي له قصة حياته في سجن المزة ... ولكن لماذا ألح عليه هو بالذات ليأتي معه إلى هنا ؟ أنه لم يلتق به إلا منذ أسبوع . صداقتهما لا تزال طفلة .

ومع ذلك كان يشعر كأنه يعرفه منذ زمن بعيد . هل أحب فيه

رائحة بلاده ؟ إن سعيد الطرابلسي لبناني ، وهو سوري دمشقي . هل أصبح يشعر أن فيه شيئاً منه بعد أن سكب في مسمعيه أهم ذكرياته ؟

لم يحاول أن يجيب على مثل هذه الأسئلة . لقد وجد نفسه في اليوم التالي لتلك الليلة التي امتدت حتى الصباح ، يروي له قصته فوق أرصفة شوارع جنيف ، يتصل بمدام «كلود» لتوفر له صبيتين ترسلهما إلى « الشاليه » في « شامونيكس » كما تعودت أن ترسل دائماً . ولم ينس أن يوصيها بأن تختار الفتاتين من النوع « الممتاز » لأن الصديق الذي سيقضي عنده عطلة الأسبوع شخصية هامة .

وفي الطريق ، وبينما كانت السيارة تنطلق بهما من جنيف إلى « شامونيكس » قال سامي الشريف لسعيد الطرابلسي :

— كيف قضيت ليلة أمس ؟

— هل تصدق إذا قلت لك أنك أفسدت عليَّ رحلتي بقصتك مع علي الشيخ ؟ لقد قضيت ليلة أمس أقرأ قصة « ستيفان زفايغ » الشهيرة: « حذار من الشفقة » .

وضحك سامي الشريف ثم قال : أرجو أن أتمكن الليلة من اقناعك بكتابة قصة بدلاً من قراءتها !

وبالرغم من أن سامي الشريف كان أخبر سعيد الطرابلسي بأنه دعا فتاتين لقضاء العطلة معهما ، إلا أن المفاجأة كانت في نوعية الفتاتين . لقد كانت مدام «كلود» عند حسن الظن بها وأكثر ...

وفي آخر الليل ، قال سامي لسعيد وهو يشير إلى الفتاة التي كان

يشدها إلى صدره : هل اخترت ؟

— لم أفكر في الموضوع . كان من الطبيعي أن تكون لي واحدة منهما . كلتاهما أجمل من الأخرى .

— أرأيت ، كيف يجري الاختيار بدون وعي ؟

وقهقه سامي الشريف ، وراح يعري الفتاة التي كانت بين يديه قطعة قطعة .

وأدرك سعيد أن صديقه بدأ يمارس عقده النفسية ... فأخذ فتاته ، ورحل إلى الغرفة ...

* * *

في الصباح ، والفتاة الألمانية عارية بجانبه تغط في نومها كالأطفال ، شعر سعيد الطرابلسي برغبة في تنشق هواء الجبل . فتسلل من الغرفة ، لكي لا يوقظها . وحاول أن يغلق عليها بالمفتاح ، ولكنه لم يجد مفتاحاً في الباب . ثم ما لبث أن اكتشف بعد فترة أن لا ثقب في الباب ، وأنه لا يغلق من الخارج .

وتردد بين أن يتركها عارية هكذا في غرفة مفتوحة ، وبين أن يبقى بجانبها ويحرم نفسه من استنشاق الهواء ...

وأخيراً خلع ثيابه من جديد ، وتمدد بجانبها .

وعندما التقى بسامي الشريف حول مائدة الإفطار ، روى له حيرته بالأمس .

واكتسى وجه سامي بطابع غريب ، وراح يهز رأسه قائلاً : لو كان الأمر بيدي ، لوضعت تشريعاً يحرم صنع أقفال للأبواب ، لكي لا تغلق من الخارج !

واستطرد قائلاً : إن أفظع عمل وحشي اخترعه الإنسان هو إغلاق الباب على إنسان آخر بالمفتاح ، ثم الانصراف ... هل سمعت أحداً من سكان الغابات استعمل الاقفال من الخارج ؟ أليس الإنسان هو الذي اخترع القفص ؟ لقد كان في الأصل لصيد الوحوش ، ولكنه سرعان ما احتوى الإنسان ...

وحاول سعيد الطرابلسي أن يخفف من جو الحديث فقال :

ـــ لا تنفعل هكذا ... أنا أيضاً دخلت القفص أكثر من مرة !
وقلب سامي شفتيه وقال :

ـــ القفص ؟ هل تسمي هذا قفصاً ؟ أن تذهب ببدلتك ، وربطة عنقك ، والعطر يفوح من ذقنك الناعمة ، وعشرة محامين يحيطون بك ، وأضواء الكاميرات تتخاطفك ... أهذا هو السجن ؟

ـــ هل أزعجك أنهم لم يسمحوا لك بالحلاقة ؟

ـــ أكثر ما أزعجني هو تعودي على حياة ليس من السهل وصفها...

* * *

عندما أعادوني إلى زنزانتي في سجن المزة ، كنت أتوقع أن استدعى في اليوم التالي ، أو الثالث ، أو الرابع ، أمام المحققين الذين هددني

بهم علي الشيخ ... ولكن الأيام مرت ...

الأيام ؟ هل كان الزمن في الزنزانة يحسب بالأيام ؟ بالليالي ؟ بالساعات ؟ لقد تطلعت إلى ساعتي بحكم العادة ، فلم استطع أن أرى حتى آثارها . كانت الساعة في « الأمانات » . كنت اتلفت حولي لأعرف ما إذا كنت في الليل أعيش أم في النهار ... فلا استطيع . ما من منفذ واحد كان يسمح للزمن بالعبور إلى الزنزانة . الزمن كان موجوداً خارج الزنزانة . ولكنه كان معدوماً داخلها . فالزمن لا يدخل الزنزانات ، كما لا يدخل القبور . الزمن هو وعي الأحياء وارتباطاتهم ، وهو السلم الذي يتنقلون على درجاته من مرحلة إلى مرحلة . أما في السجن ، فأنت خارج إطار الزمن . لا مواعيد . لا ارتباطات . لا هدف تسعى إليه . حياة بلا حدود ولا فواصل ... في الخارج ينقسم الزمن إلى ليل ونهار ، أما في السجن فهو ينقسم إلى أرق وشبه غيبوبة وتأمل في الظلام ، من الصعب أن تعرف إن كان يقظة أم مناماً ... تلك هي الليالي السود ، عندما ينتابك الأرق ، وتظل عيناك وأذناك وكل حواسك معلقة بذلك الثقب ، وذلك الكائن فوق مستوى البشر الذي يملك أن يدير المفتاح في ذلك الثقب ، فيسقط الحاجز بينك وبين عالم الأحياء . بينك وبين الذي يقذف لك ، عندما يفتح الباب ، بشيء مستدير هو الخبز . كل شيء يختلط في الذهن . حتى الآن لا أدري ، إذا كان ذلك الذي رأيته كان كابوساً أم حلماً من أحلام اليقظة ، أم كان خليطاً بين اليقظة والنوم..

* * *

كانت الشمس ساطعة ، دافئة . كان يوماً من أيام الربيع . وليس أحلى من أيام الربيع في دمشق .

ووجد سامي الشريف نفسه بين عشرات الألوف الذين خرجوا لاستقبال عبد الناصر يوم وصوله أول مرة إلى دمشق . كانت الجماهير تتدافعه بالمناكب ، وهو مستجيب غير متبرم بذلك ... إلى أن اقترب من السيارة ، وانحنى مع الألوف ، يرفع معهم السيارة فوق الأعناق . والتفت عن يمينه فوجد « أحمد لطفي » عامل النسيج في مصنع والده ، يهتف به وهو يحمل معه أو عنه :

— « يعطيك العافية يا سامي بك . كلنا فدى الرئيس » .

وبدت السيارة خفيفة كأنها تطير ، تحمل فوقها كل الآمال في الوحدة الوطنية التي تذوب فيها الطبقات ، والتي طالما نادى بها عبد الناصر... في تلك السيارة كانت تتجسد آمال أمة وارادتها في النصر والحياة والوحدة والحرية ...

ولكن السيارة بدأت تثقل ، وتضغط على أكتاف حامليها . وشعر سامي الشريف أنها أخذت تهبط من فوق الأكتاف إلى ظهور الناس ...

ترى ، هل اجتاز في هذه اللحظة الشعرة التي تفصل بين اليقظة والنوم ؟

لقد شعر بعجلات السيارة تطأ عنقه . وتلفت سامي الشريف حوله فلم يجد أحداً . أين اختفت عشرات الآلاف من المستقبلين المهللين الذين كانت أصواتهم تملأ الساحات كالرعد ؟ كيف أصبح عبد الناصر ثقيلاً إلى هذا الحد ؟ هل سيحمله وحده ؟ ... إنه يختنق .

وراح يضرب بيده على رفراف السيارة ، لينبه عبد الناصر أن العجلات توشك أن تسحقه . ولكن الزعيم لا يسمع ... وأخذ سامي يصرخ ... ولكن الرجل الذي كان في السيارة لا يلتفت إليه . ومد عنقه ليناديه فإذا

به يرى علي الشيخ مكان عبد الناصر في السيارة .

وفتح عينيه ، ليرى باب الزنزانة يفتح ، وأمامه علي الشيخ ، وإلى جانبه عزت أفندي السجان الشركسي الذي لا يستطيع أن ينساه كل من دخل سجن المزة ...

٤

— تفضل سامي بك !

ورفع رأسه في تثاقل . وهمس لنفسه : الى أين ؟ الى التحقيق ؟ هل تذكروه الآن ؟ ولكن لماذا ناداه باسمه مشفوعاً بلقب بك ؟ هل كان ذلك مجرد سخرية ؟

وهنا ترامت الى مسمعيه أصوات منبعثة من باحة السجن تهتف : « المجد والخلود للجيش السوري » . . . « يسقط عهد الطغيان » . . . « الموت للسراج وزمرته المجرمة » !

وارتفع صوته خافتا : ماذا حدث ؟

— كل خير . الحمدلله على سلامتك .

والذي أدهش سامي الشريف أن علي الشيخ هجم عليه وأخذه بالحضن .

— انقلاب شيوعي ؟

— أعوذ بالله ، ما الذي جعلك تفكر بالشيوعيين ؟

— الهتافات .

— الحركة التي قام بها الجيش السوري صباح أمس ، حركة قومية مائة بالمائة .

— الحركة قامت أمس ؟ ولم نعرف هنا شيئاً ؟

وابتسم عزت أفندي . كانت أسنانه الذهبية تبدو شديدة الاصفرار ، باهتة كابتسامته ، ثم قال : لم تكن الحركة قد استتب لها الأمر بعد !

وقال سامي الشريف لنفسه : كان لا بد لهم من الانتظار حتى يعرف المنتصر من المهزوم .

وأمسك علي الشيخ بيد سامي الشريف ، وخرج به من الزنزانة الى باب السجن ، حيث كانت تنتظرهما سيارة جيب عسكرية .

* * *

وسحب سامي الشريف نفساً طويلاً من سيجارته ثم قال :

— عندما دخل علي الشيخ الزنزانة في ذلك الصباح من شهر تشرين الأول — اكتوبر ١٩٦١ ، ورأيته مرتدياً ملابسه العسكرية ، ثم أخذني من يدي بحركة فيها كل عاطفة الصديق المحب ، لم أستطع أن أكبح مجموعة من الأسئلة تزاحمت في رأسي : لماذا انقلب موقفه مني بهذه الصورة ؟ بالأمس القريب كان يجلس فوق مقعد المحقق . كان يبدو شديد الفخر لأنه هو الذي يمثل الوطنية وأنا الذي أمثل الخيانة.. لماذا تغير ؟ هل لحزب البعث علاقة بالانقلاب ؟

وسألته ، وأنا جالس بجانبه في سيارة الجيب : هل الحركة ضد عبد الناصر ؟

وابتسم في ذكاء ثم قال : نحن دائماً مع سوريا . نكون حيث هي تكون . نختلف مع من يختلف معها .

— ومتى اختلف عبد الناصر مع سوريا ؟

— عندما سلط عليها أجهزة المخابرات . عندما اعتبر الوحدة عملية انضمام أو تمدد مصري .

— هل نسيت إنك كنت محققاً في جهاز المخابرات ؟

ونظر الي وقد ارتسمت فوق شفتيه ابتسامة ساخرة وقال : لا أنا نسيت ، ولا أنت يمكنك أن تنسى . كان عليّ أن أقوم بدوري كأحسن ما تكون الأدوار . فالمهم أن تحتفظ بأرائك الى الوقت المناسب !

كان واضحاً انه يريد أن يتودد اليّ . حاسته السادسة كانت تنبئه أن العهد الجديد سيحاول إعادة الماضي . وأنا كنت أمثل في نظره جسراً مع هذا الماضي ، قد يحتاجه يوماً . فتجربتي مع علي الشيخ أقنعتني بأنه يجيد حفظ الأوراق ليستخدمها ولو بعد خمسين سنة . وأدركت أن عليّ أن ألعب ورقتي الآن ، وقبل أن يطمئن علي الشيخ على مركزه ، أو قبل أن يكتشف إنني لم أعد أساوي شيئاً .

قلت له : هل للحزب يد في العملية ؟

— أبداً . الضباط الذين قاموا بالحركة لا علاقة لهم بالأحزاب . ولكن سوريا في حاجة الى كل أبنائها .

ولم أستطع الحصول منه على تفاصيل . وكل ما فهمته من الحديث الذي جرى بيني وبينه ، فيما سيارة الجيب تنطلق بنا باتجاه دمشق ، ان العسكرية هي شيء منفصل عن الانتماءات والميول والأحزاب ، وانها تطحن كل ذلك في جوفها ، فلا يبقى في النهاية الا شخصان : العسكري الحاكم والمدني المتهم . بالأمس ، عندما كان يقوم بدور

المحقق ـــ كأحسن ما تؤدى به الأدوار ـــ كانت السلطة والوطنية عنده وجهين لعملة واحدة . الوطني هو من في السلطة . ومعارضة السلطة تعني الخيانة الوطنية . واليوم ، وهو يبحث لنفسه عن مكان في الانقلاب العسكري الجديد ، لا يزال يفكر بالمفهوم نفسه ، وأعتقد أن العسكريين جميعاً يفكرون على هذا النحو ، ولا يخامرهم أدنى شك في صواب هذه النظرة . ومن السخف أن نتهمهم بالقسوة أو الديكتاتورية ، فهم يتصرفون عن اقتناع مطلق بأنهم يذودون عن الوطن عندما يدافعون عن بقائهم في السلطة . وفي مواجهة مثل هذا الواقع ، ماذا يفيد المنطق ، وبماذا ينفع الاقناع ؟

وقررت أن أتبع معه الأسلوب نفسه الذي يتبعه معي ، فقلت له : هل نتغدى معاً اليوم ؟

وقال : خليك مع أهلك اليوم ، وأنا عندي أعمال كثيرة . وليكن عشاؤنا غدا ، عندي في البيت !

ولم ينتظر جوابي ، بل استطرد قائلاً : سأمر عليك في المنزل حوالي الثامنة مساء ، أرجو أن تكون حاضراً بمجرد سماعك بوق السيارة !

* * *

ـــ هل تذكر الكابوس الذي رأيته أول مرة بعد عودتي الى الزنزانة في سجن المزة ؟ لقد رأيت سيارة الرئيس عبد الناصر مرة ثانية في أول ليلة عدت فيها الى البيت . لم يكن علي الشيخ هو الذي يركب سيارة الرئيس ، بل كان صالح الحاج علي . كان في ثياب غريبة . مزيج من ثياب الجنرال والقصاب . يحمل في يده خروفاً مذبوحاً وملفوفاً بعلم الثورة الفرنسية .

وسأله سعيد الطرابلسي ، الذي كان يستمع الى سامي الشريف ، وهـو مسترخ فـوق كرسيـه تحـت الشمس ، خـارج الشاليـه في « شامونيكس » : ومن هو صالح الحاج علي ؟

— رفيق بعثي عراقي . التقيت به في بغداد عندما ذهبت الى عاصمة الرشيد ضمن وفد من جامعة دمشق للتهنئة بثورة ١٤ تموز . كانت بغداد تعيش أروع أيامها . النفوس ملتهبة بالحماس أكثر من ساعات النهار التي تلتهب عادة في الصيف ، وتصل فيها الحرارة الى ما فوق الخمسين درجة . الخونة كانوا يسحلون في الشوارع ، والرجعيون معتقلون في السجون . وكل من تلقاه يروي لك تفاصيل مثيرة عن قصة اختفاء نوري السعيد في زي امرأة ، وكيف استطاعت الجماهير أن تتعرف عليه وتسحله في الشوارع . وكانت المطابع تعمل ليلاً نهاراً في طبع صور عبد الناصر . وكانت الوحدة مع العراق منتظرة بين يوم وليلة . ودعانا صالح الحاج علي الى « أكلة » سمك مسقوف في شارع أبو نواس على نهر دجلة . وخلال التهامه للسمك المشوي ، بدأ يروي لنا كيف حملت الجماهير يوم ١٤ تموز جثة عبد الاله ، وعلقتها في الميدان العام أمام فندق بغداد . وبدأ سباق هستيري بين الناس في البصق على جثته ، ثم بقذفه ببعض الأوساخ . واندفع بعض المتحمسين فراحوا يطعنون الجثة بالأسياخ والمدى . . .

وقطع صالح الحاج علي قطعة كبيرة من السمكة المشوية التي كانت أمامنا ، وراح ينقيها من الحسك قبل أن يقذف بها الى فمه وهو يقول :

— « وغمرني الحماس . وتذكرت القرارات الخائنة التي وقعها عبد الاله بيده ، فقررت أن أقطع اليد التي وقعت حلف بغداد . فخطفت سكيناً من أحد الرفاق ، وصعدت على كتفيه ، وقطعت اليدين اللتين

حالتا دون دخول الجيش العراقي حرب فلسطين عام ١٩٤٨ ، ومرغت سمعتنا بوحل الكلمة التي أصبحت مشهورة في تاريخ العرب : ماكو أوامر » .

والتفت سامي الشريف وقال لسعيد الطرابلسي الذي كان مغمض العينين يستمتع بشمس « شامونيكس » : أذكر الآن ، أن ضحكاتنا لم تتوقف . وطعامنا لم يضطرب . كنا في غمرة انفعال ثوري منبثق من اعتقادنا أن طريق التحرير لا بد أن يخضب بالدم . كنا نذكر قصص الإرهاب التي رافقت الثورة الفرنسية ، والتي أثمرت حرية فرنسا وقوتها . كنا نعتقد أن جثث عبد الاله وأمثاله هي التي تعترض زحف الأمة العربية وانتصارات عبد الناصر العظيم . . . حتى عندما انقسم الصف القومي في العراق ، وبدأنا في دمشق نسمع قصص تعذيب الناصريين والبعثيين والقوميين على أيدي الشيوعيين وأعوان عبد الكريم قاسم ، كنا من بعيد ، نعتبر ذلك ضريبة التحرر . حتى استفقت من هذا الكابوس في ليلتي الأولى في بيتنا بعد خروجي من سجن المزة . . . ورحت أفكر في تأثير القناعات الحزبية على مواقف الملتزمين بها . كيف كنت استمع في بغداد الى قصص السحل وتقطيع الآذان والأيدي والأصابع ، وأنا لا أجد في ذلك أية غضاضة ! هل كان يجب أن يلقى القبض عليّ بتهمة لا أعرفها حتى الآن ، ويلقى بي في زنزانة تفقد الانسان كل مزايا آدميته ووجوده ، حتى أدرك ماذا يعني حق الانسان في أن يحصل على محاكمة عادلة حتى ولو كان مجرماً ؟ ليلتها اكتشفت أن ليس في الدنيا مبدأ واحد يبيح أن تمزق جثتي ، ولا أن أحرم من حقي في الدفاع عن هذه الجثة وهي ما زالت حيَّة . ليلتها اخترت . فاذا ما استحال وجود المبدأ الذي يحقق المصلحة القومية مع الحرية الفردية ، فأنا مع الحرية الفردية . إن جسدي هو الحقيقة التي لا تحتمل الشك . وأنا مسؤول

أولا عن الدفاع عن هذا الجسد . . هل تعرف أن صالح الحاج علي قد شنق منذ أسابيع ، وبحكم صدر من قيادة حزب البعث ، ونفذ على أيدي الحرس القومي الذي أنشأه علي صالح السعدي ، واستخدمه في تصفية منافسيه في حزب البعث ؟ أين هي الحقيقة ؟ ومن هو على حق ؟ ومن هو على خطأ ؟

* * *

وخرجت من غرفتي الى الشرفة . كان الهواء في شهر تشرين قارساً ، أنت تعرف مناخ دمشق في الليل . . إنه ينخر العظام . ومع ذلك جلست في الشرفة متلحفاً بالروب . ففي استطاعتي هنا أن أفكر في جو أفضل بكثير من ذلك الذي كنت فيه في الزنزانة المنفردة في سجن المزة . لقد شعرت في تلك الليلة أن كل الجدل والحوار الدموي العنيف اللذين يدوران في سوريا حول الوحدة والحرية والاشتراكية والرجعية والامبريالية والصهيونية ، يدوران فوق جسدي . وانه لكي أحافظ على هذا الجسد ، ولكي تتوفر لي فرصة معرفة الصواب والخطأ ، يجب أن أهاجر من مجتمع يحرم الخطأ ، ولا يعترف بأية ضمانات للانسان . . . ليلتها قررت الهجرة . وقررت أن أستعين بعلي الشيخ من أجل تسهيل خروجي من دمشق الى بيروت بأي ثمن . . . علي الشيخ ؟ إنه لا يفكر الى أبعد من تغيير العهد القائم ، ليصبح واحداً من رجال العهد الجديد ، يمارس في ظله الأسلوب نفسه الذي يقول الانقلابيون إنهم اعترضوا عليه في العهد السابق . أما أنا فكان عليّ أن أفكر في الهجرة من كل تلك العهود . الهجرة من بلد لم أعد أشعر أنه بلدي ، لأنني لم أعد أشعر انني أملك شيئاً فيه . ولم يعد يوفر لي أول شروط الانتماء لوطن ، أي وطن ، وهو الأمن . حتى اللذين في السلطة لا يشعرون بالأمن . لقد رأيت علي الشيخ صباح ذلك اليوم ، يرتدي ثيابه

العسكرية ، ويسرع ليخرجني بنفسه من السجن الذي أمر بادخالي اليه . لقد كان أكثر ذعراً مني . ولقد أدركت ليلتها ، وأنا أستعيد حديثي مع علي الشيخ ، وأعيد النظر في كل المفاهيم التي تشكل قناعات راسخة في ذهني ، ان الأمان مفقود في بلادي ، بصرف النظر عن الجانب الذي يقف فيه المواطن من السلطة .

* * *

« أبو رمانة » ؟ حي الذوات ؟ حقاً ان استيلاء العسكريين على السلطة قد استولد طبقة جديدة من البورجوازية . . . ولكن أين الخطأ في ذلك ؟ ألم تستولد أرباح الحرب طبقة بورجوازية جديدة ؟ ألم يستولد ظهور البترول في بلادنا طبقات بورجوازية جديدة ؟ الحياة لا تقبل الاستمرار على وتيرة واحدة . لا بد من التجديد . والجديد أن استيلاء العسكريين على السلطة في بلاد ليس فيها أحزاب سياسية حقيقية كان ظاهرة ، قد لا تكون مبررة ، ولا مقبولة من الذين احتكروا السلطة لأنفسهم ، ولكنها على كل حال أصبحت واقعاً لا يمكن انكاره ولا القفز من فوقه !

وتوقفت سيارة علي الشيخ أمام بناية من ثلاثة طوابق . وسأله سامي الشريف وهو ينزل من السيارة : هل تسكن هنا منذ مدة طويلة ؟

ـــ منذ سنة . لقد اشتريت الطابق الأرضي من صاحب البناية . كان يريد أن يسافر الى الكويت . اغتنمت الفرصة ودفعت له مبلغاً صغيراً . أقل من نصف الثمن . لم أكن أتوقع أن يقبل . كان عندي جزء من المبلغ ، واستدنت الباقي من البنك بفائدة قليلة .

ولم يحاول سامي الشريف أن يفكر في الموضوع طويلاً ، فعلي الشيخ مثل كل الذين وصلوا الى السلطة ، من الصعب أن تسألهم كيف

استطاعوا أن يجمعوا ثروة لا يمكن أن تجمع إلا من شح أو حرام . وإن يكن من السهل مقارنتهم بجميع الذين وجدوا في السلطة ، فانفتحت أمامهم كل الأبواب . . . فسامي نفسه ، على استعداد الآن لتقديم هدية ذات قيمة لعلي الشيخ ليساعده في الخروج من دمشق .

واجتازا الحديقة .

وفتح علي الشيخ الباب الخارجي بمفتاح أخرجه من جيبه ، وقال له وهو يدعوه الى الدخول : أهلاً وسهلاً سامي بك . تشريفكم غال علينا !

كان الصالون مليئاً بالتحف الصغيرة .

« إنه لم يضيع وقته » قال سامي الشريف لنفسه .

وكانت هناك في الزاوية مائدة وضعت عليها زجاجة ويسكي وبعض الكؤوس الفارغة وحولها بعض الأطباق التي ملئت بالموالح . فستق مملح . ولوز مملح . ومخلوطة مملحة .

وغاب علي الشيخ لحظة ، ثم عاد ومعه سيدة لا تتجاوز الخامسة والعشرين من عمرها .

— أقدم لك أم الأولاد . باسمة ابنة خالي !

— كم ولداً أنجبت ؟

— ابنتين . لم نرزق بصبي بعد !

قالها علي الشيخ وقد ارتسمت على وجهه مسحة من الحزن . . . حاول أن يهرب منها بسؤال زوجته : أين سلمى ؟

وهرعت الزوجة لتنادي ابنتهما الكبرى ، فلما عادت ، تسمرت عينا سامي الشريف على الابنة . إنها تقترب من حافة الأنوثة . تبدو

وكأنها بلغت الثانية عشرة ، مع أن أباها قال انها لم تبلغ العاشرة . . . كم كانت تشبه عمتها غزالة ، ولكن الصبية الصغيرة كانت أكثر نضارة . سمرة خفيفة . عينان خضراوان . شفتان مقلوبتان . كأنها غزالة . ولكن حياة العز جعلتها أكثر تألقاً . كان عندها لمسات رفاهية . وبريق عينيها هو نفسه الذي رآه في عيني غزالة عندما لمس جسدها بيده أول مرة . يبدو أن هناك صنفاً من النساء يولد وفي عروقه نداء ليس من السهل مقاومته .

وحاول سامي أن يهرب من نفسه ، ومن نظرات الابنة ، محاولاً أن يركز انتباهه على امها . . . لم تكن الزوجة في جمال ابنتها . وقد تذكر ما روته له غزالة عن أخيها علي . لقد تزوج ابنة خاله قبل دخوله المدرسة الحربية في حمص . وقد تعهد خاله أن يسدد نفقات تعليمه أثناء الدراسة . وكان واضحاً أن علي الشيخ يعامل زوجته بشيء من التبرم . هل السبب انها لم تنجب له صبياً ؟ ولكن ما ذنبها هي إذا كانت بذرة علي لا تنجب الا بنات ؟

وكانت الزوجة تتصرف كما كانت تتصرف « غزالة » في بيت الشريف . أي ضمن الاحساس بانها عضو من الدرجة الثانية في العائلة . مرغوب فيه جنسياً بعض الأحيان ، ولكنها خادمة مطبخ ومربية أولاد في كل الأحيان .

ولفت نظر سامي الشريف ، وهو يشرب الكأس الأولى ، صورة معلقة في صدر الصالون ، تمثل علي الشيخ في ثياب المدرسة الحربية ، فقال له : هل كنت تتصور انك ستشتغل في السياسة وأنت طالب في المدرسة الحربية ؟

— أبداً ، ولكني كنت مهتماً بالعمل السياسي وأنا طالب في

الثانوية . . . هل تصدق انني كنت عضواً في حزب البعث ؟

وكاد سامي الشريف يقفز من مكانه .

— بعثي ؟

— نعم . . .

— ومع ذلك ، حققت معي بتهمة الانتماء الى حزب متآمر ؟ حزب منحرف ؟ وكنت تعاملني بشراسة واصرار على انتزاع أي اعتراف يدينني ويدين حياتي العائلية ؟

— اسمع يا سامي . عندما اختارني عبد الحميد السراج في قسم المباحث الجنائية قال لي إنه درس اضبارتي ، فوجد اني منضبط وفهيم ومولع بدراسة القانون . وهذا صحيح . قد لا أكون ذكياً بالمعنى الذي كان السراج يفهم الذكاء من خلاله ، ولكني ، بدون شك ، كنت متعطشاً للوصول . . . أنت تعرف عائلتي . كلها كانت تكد وتعمل وكأن قدرها أن تعيش في فقر دائم . ان قريتنا وحدها زودت معظم عائلات دمشق بعدة أجيال من الخدم . هل كنت تنتظر مني أن لا أقفز على أول فرصة تسنح لي ؟ ثم ما هو الانتماء الحزبي ؟ أليس هو محاولة للخروج من حالة سيئة الى حالة احسن ؟ عندما كنت في المدرسة الابتدائية ، كان لي زميل طيب القلب ، حلو المعشر ، ولكنه كان يعاملني باستعلاء . وكان لا يستطيع أن يخفي شعوره بالانتماء الى فصيلة بشرية مختارة ، عندما كانت سيارة أبيه النائب تنتظره أمام باب المدرسة لتنقله الى البيت . وأكثر من مرة دعاني الى ركوب السيارة معه ليوصلني الى بيت خالي الذي كان يبعد عن المدرسة أكثر من ثلاثة كيلومترات . ولكني كنت أرفض . وأحياناً لم أكن أخفي عليه احتقاري له وللسيارة ولأبيه نائب اللاذقية . كان أبوه عضواً في الحزب الوطني . وكان ذلك

كافياً لكي تتجند السلطة له وتؤمن فوزه في الانتخابات . هل كنت تنتظر مني أن لا أحقد ؟ ان لا أثور ؟ أن لا أبحث عن حزب يوفر لي الأمل ، مجرد الأمل ، في العثور على فرصة ؟ . . . لقد جاءتني الفرصة بعد ما تخرجت من المدرسة الحربية بأربع سنوات . كنت في ذلك الحين برتبة ملازم عندما استدعاني عبد الحميد السراج ، وقال لي ما قال . هل كنت تريدني أن أضيع الفرصة لا لشيء إلا لأنني كنت بعثياً ؟ لقد أصبحت الآن بثلاث نجوم ، واذا بقيت الدنيا مبتسمة لي ، فسوف أصبح بنسر ونجمتين . عندما كنت في الثانوية ، كنت مولعاً بالموسيقى الكلاسيكية . هل سمعت سيمفونية بيتهوفن الخامسة ؟ لست أدري لماذا أصر على تسمية مطلع السيمفونية « ساعي البريد يدق الباب » مع أن بيتهوفن كان يسمي المطلع : « القدر يدق الباب » وكان يقصد نابوليون . ان الحظ مثل ساعي البريد ، فاذا دق عليك الباب ولم يجدك ، ذهب ، وذهبت معه فرصتك التي تنتظرها . وأنا لم أكن على استعداد لأضيع فرصتي في سبيلك أو في سبيل أي شخص آخر ، حتى ولو كان أبي . أنا لم أكن حاقداً عليك عندما توليت التحقيق معك . صدقني . انني كنت أتمزق عندما أحيلت اضبارتك اليّ . . . ولو لم أحقق معك ، لكان تولى التحقيق شخص آخر ، ثم لا تنس إنني كنت رفيقاً بك ، لم أحولك الى غرفة التعذيب . لم أطلب أن يحقق معك أحد غيري عندما يئست منك ، وآثرت أن أتركك في السجن دون أن أوجه اليك تهمة معينة . لعل ذلك يفيدك في يوم ما . . . وقد أفادك . لو كانت هناك تهمة موجهة اليك لما تسنى لي أن أخرجك من السجن بالسهولة التي أخرجتك بها أمس . . .

ورفع سامي الشريف الكأس الذي أمامه ، وقال لعلي الشيخ : في صحتك . أرجو أن تسامحني . لقد كنت حاقداً عليك . كنت أتساءل

عندما كنت تحقق معي : « لماذا تحاول أن تقيم بيني وبينك ستاراً لنسيان الماضي ؟ » .

وابتسم علي الشيخ ، ثم أمسك بكأسه ، وقبل أن يرفعه الى شفتيه قال :

أنا لا أخاف من الحقد . انه في بعض الأحيان ملهم ودافع الى شيء ما . ثم ان الانسان لا يحقد الا على صديق . الذي لا تحبه ولا تربطك به علاقة حب لا يمكن أن تحقد عليه .

— يبدو أن ممارسة السلطة قد انضجتك قبل الأوان .

— أبداً . . . كم عمرك أنت الآن ؟

— ٢٧ سنة .

— وأنا ٣١ ، ولا أخفي عليك أن أشياء كثيرة قد تصححت في ذهني خلال الفترة التي توليت فيها رئاسة مكتب المباحث الجنائية . واعتقد أنك أنت أيضاً قد نضجت خلال الشهور القليلة التي قضيتها في السجن .

— وهل تسمي اليأس نضوجاً ؟ هل تعتبر الشعور بفقدان كل القيم التي تحبها نوعاً من التصحيح ؟

— ليس هناك أروع من أن تبدأ حياتك من جديد . ومن أن تعيد النظر بالمسلمات التي قادتك الى التجربة ، أنت الآن رجل جديد . أنت تختلف تماماً عن الرجل الذي كنته قبل دخول سجن المزة .

— هذا صحيح . . . ولكن الى أي مدى يستطيع الانسان أن يهاجر من ماضيه ، من الناس الذين أحبهم وكرههم . من البيوت والشوارع والساحات التي تشكل ما نسميه بالوطن ؟

— اسمع يا سامي . لقد سألتني قبل دقائق ، هل كنت أتصور

أنني سأشتغل في السياسة ؟ وقلت لك : أبداً . وهذا صحيح . فعندما كنت في المدرسة الثانوية ، وبعد ذلك في المدرسة الحربية ، كنت أنظر الى رجال السياسة كأنصاف آلهة ، يصنعون القرارات ويتحكمون برقاب الناس ، ويفهمون في كل القضايا . كان الضابط المحظوظ منا هو الذي ينتدب لحراسة وزير أو مرافقته ، يدق كعبيه بالتحية له كلما دخل أو خرج . معالي الوزير . أو دولة الرئيس . أو عطوفة البيك . ألقاب كنا نظن أنها تمثل حقيقة . . . الى أن انتقلت الينا السلطة . فاذا بكل شيء يبدو على عكس ما كنا نظنه ونتصوره . لم يقاوم أحد منهم . جميع الانقلابات أو « الثورات » — سمها ما شئت — وقعت بدون قطرة واحدة من الدم .

وضحك علي الشيخ ، وهو يعب ما بقي في كأسه ، ثم استطرد قائلاً :

— لم تكن الجماهير وحدها هي التي دقت الكعوب وهللت للأسياد الجدد ، بل كان رجال السياسة أيضاً . كل الزعماء والبكوات هرعوا الينا يطلبون البركة والرضى . أذكر اني حققت مع أحد الشيوعيين . وكان عندما القي القبض عليه يقرأ كتاباً عنوانه « التعب من السلطة » . أعجبني عنوان الكتاب . وعندما قرأته فهمت أن طبقة البكوات تعبت من السلطة . ويبدو أن كل السياسيين يتعبون من السلطة عندما يواجهون مشاكل أكبر من طاقتهم على حلها . ليلتها فهمت لماذا رحب بنا السياسيون عندما استولى العسكر على الحكم . كانوا يبحثون عن فئة جديدة تحمل متاعب السلطة عنهم . ولذلك ارتموا على أقدامنا . . .

— ألا ترى أن التعبير فيه قسوة ؟ من هم الذين تراموا على أقدامكم؟

— كلهم . . . كلهم بدون استثناء .

ونادى علي زوجته ، وطلب منها علبة الكافيار . فأحضرت له

واحدة ، نظر في غطائها ، ثم أعادها قائلاً : هاتي الكافيار الإيراني .

والتفت الى سامي الشريف وقال له : روسيا اشتهرت بشيئين ، الفودكا والكافيار . كنت أعتقد ذلك ، الى أن اكتشفت أن الفودكا البولونية أفضل من الروسية . والكافيار الإيراني أفضل من الروسي .

وعادت الزوجة تحمل علبة كافيار أخرى ، ولكن علي الشيخ عاد يقول لها : « هاتي العلبة المستطيلة » . فلما أحضرتها له ، فتحها ثم راح يقطع منها بالسكين ، ويضعها فوق كسرة من الخبز المحمص . . .

واستطرد في حديثه قائلاً : لم يتركوا هدية لم يبعثوا بها الينا . أذكر بعد أن استلمت رئاسة مكتب المباحث الجنائية ، انني فوجئت بزيارة ثلاثة وزراء من الطقم التقليدي يدخلون بيتي القديم القريب من سوق الحميدية . كنت لا أزال في « البيجاما » ، وكان الأولاد يتناولون افطارهم على الطبلية . قابلتهم بثياب النوم وأنا خجل . ولكنهم لم يتركوني استمتع بهذه الفضيلة طويلاً ، بل أداروا الاسطوانة : « سيادتك » . . . « البلد أمانة في أيديكم » . . . انتم « الكفاءات » . . . وكنت كلما تثاءبت — وهي عادة لم استطع أن أتخلص منها — كانوا يسارعون لتقديم امكانياتهم ووضعها تحت تصرفي . . . اني أذكر أول مرة قبلت فيها دعوة للعشاء في نادي الشرق . كنت أسمع بالنادي ولكن لم تكن قد أتيحت لي فرصة زيارته . كنت أسمع انه ملتقى الذوات . وأنه المكان الذي تجتمع فيه أجمل حسان دمشق . ووجدت نفسي وسط مجموعة من النساء ، عاريات الصدور . سكبن كل ما في خزائنهن من عطر . وحملن كل ما عندهن من مصاغ . . .

وأدارت الخمرة رأسي . ورأيت عجلاً مذبوحاً ومشوياً فوق مائدة تسير على « كراجات » ، يقطع منها « الميتر » الذي تطوع ليخدمنا

بنفسه ، شرائح من اللحم لم أذق ألذ منها في حياتي ، أنا الذي كنت أحمل صحني وأنتظر دوري في الصف لأتناول « القراوانة » في « القشلة » . صدقني إذا قلت لك اني شعرت في تلك الليلة انني امبراطور من اباطرة القرون الوسطى الذين كنا نراهم في الأفلام . وكانت السيدة التي جلست بجانبي تطعمني بيدها ، ويظهر جزء مثير من صدرها وهي تحنو عليّ وتهمس في أذني آخر نكتة من نكات المجتمع الذي انتزع كل أوراق التوت عن حياته ومباذله وفضائحه . . . لقد شعرت في تلك الليلة ، إن الذي يصل الى السلطة يصبح من حقه أن يفعل كل شيء . . . ألم ننقذ البلد من كارثة غير معروفة — كما كانوا يرددون —؟ أليس من حق الذي يحكم أن يتمتع ؟

— والمسؤولية ؟

— قمنا بها كاملة . اسأل البكوات الذين كانوا يرددون على مسامعنا ليل نهار ، إننا جمعنا كل الكفاءات . . . هل نلام إذا صدقنا كلامهم ، وحكمنا ، واستمتعنا ؟ الآن ، وبعد فترة من الحكم العسكري ، ضاقوا بنا بعد أن يئسوا من اقتسام المنافع معهم . أخذوا يتآمرون علينا ، ويرددون في مجالسهم الخاصة اتهامات كثيرة عن « حكم المباحث » و « سيطرة الدبابات » . . . هل هناك حكم من غير دبابة ؟ كل حكم في الدنيا يحتاج الى دبابة ويافطة .

— يافطة ؟

— هذه كلمة تعلمتها من إخواننا المصريين . يافطة تعني شعاراً . ديموقراطية ، حرية ، اشتراكية ، رسالة خالدة . . . أي شيء من هذا القبيل ليصدق الناس أنهم أصحاب مصلحة في ما يجري في البلاد . فالحكم الناجح هو الذي يستعمل يافطات أكثر ودبابات أقل . وأزمتنا اليوم هي أن الشعارات تراجعت ، والدبابات تقدمت أكثر من اللزوم...

يبدو أننا نحن أيضاً تعبنا من السلطة . . . لا بأس ، قد نعيدها مرة أخرى للمدنيين ، لكي تحتل الشعارات مكان الصدارة ، وتختفي الدبابة خلف الشعارات . . . ولكن هل يمكن أن تختفي الدبابة من فوق المسرح ؟ هل هناك سلطة بدون دبابة ؟

* * *

كان سعيد الطرابلسي لا يزال يستمع الى صديقه سامي الشريف ، وهما مستلقيان فوق كراسيهما تحت الشمس ، خارج الشاليه في « شامونيكس » ، وهو نصف نائم . لم يحاول أن يقطع عليه حديث الذكريات ، وإن كان يبدو عليه بين الحين والآخر ، اعتراضات على رؤية الأمور بالمنظار الذي كان يراه فيها .

ـــ ألا تعتقد أن مأساتك الشخصية يا سامي ، قد أثرت على صحة تقييمك للناس والأشياء ؟

ـــ وما الخطأ في ذلك ؟

ـــ الخطأ في أن الأمور العامة لا تقيم من خلال الانفعالات الفردية. إذا كان كل الذين أممت مصانعهم يقررون الهجرة ، فمن يبقى في البلاد ؟

ـــ هناك طبقة جديدة حاكمة أرادت أن تبتر كل علاقة مع الماضي . وأنا وغيري كثيرون هم جزء من ذلك الماضي . إن هجرة الكفاءات كارثة بدون شك . ولكن من المسؤول عن هذه الهجرة ؟ ان الكفاءات التي هاجرت من البلاد التي حكمها العسكر هي أثمن رأسمال لتلك البلاد . في الامكان شراء المصانع ، أو اقامتها بقرار جمهوري ، ولكن الكفاءات البشرية لا يمكن أن تتوفر بقرار ثوري أو بمرسوم يصدره حاكم . لا بد من زمن حتى تتوفر الكفاءات . والنظام الذي يسمح بتبديد المدخرات الوطنية ، ولا يعرف كيف يستفيد

من الكفاءات هو نظام غير صالح ، أو على الأقل فيه خلل يجب اصلاحه !

— وهل كان النظام السابق صالحاً ؟ هل كان يستفيد من المدخرات العلمية ؟ وهل كانت الثورة تلقى كل هذه الاستجابة لو كان النظام الذي سقط يلبي احتياجات النمو ؟

— أنا أرفض الانتماء لنظام حجته الوحيدة أن النظام الذي كان قبله سيء . هل تعرف ما هو الفارق بين النظامين ؟ في النظام السابق الذي تنسبونني اليه ، كانت المدخرات المالية والبشرية أشبه بالرصيد المعطل . محبوس في الخزائن أو تحت البلاط . أما الآن فقد بددت هذه المدخرات أو سرقت . في النظام السابق كان هناك أمل في استخدام صالح للكفاءات المعطلة . أما الآن فحتى الأمل ضاع ، لأن الكفاءات تبددت

— أمتنا غنية . وفي العالم العربي اليوم عملية استيلاد كفاءات جديدة من نوع جديد ، عقليتها تنتمي لهذه المجتمعات الجديدة ، وأنا أعلم أن ليس من السهل على إنسان عاش في الماضي ، أن يتقبل واقعنا الجديد . ولكن أمتنا لا بد أن تشق طريقها ، وتجدد كفاءاتها وخبراتها ، ولن يعرقل مسيرتها فرار بعض الكفاءات المترفة ، أو التي شاء قدرها أن يصيبها لهيب الثورة !

وضحك سامي الشريف في عصبية وقال لسعيد الطرابلسي :

— أنت الآن تتكلم مثلما كان يتكلم علي الشيخ ، ولكن اعتراضه على كلامي ، لم يمنعه من قبول « رشوة » قدمتها إليه ليساعدني على الخروج من دمشق إلى بيروت ...

وسكت سامي الشريف لحظات ثم استطرد قائلاً :

— هل تعرف يا سعيد كيف خرجت من دمشق ؟ لقد عرفني على

شاب اسمه « خليل الأزرق » هو الذي تولى نقلي إلى شتوره عبر طرق غير معروفة على الحدود بين سوريا ولبنان ، ولكن يبدو أن هذه الحدود تختفي بسحر الليرات .

* * *

وفجأة ، استيقظ سعيد الطرابلسي من شريط الذكريات الذي استسلم إليه وهو جالس على شرفة غرفته الجديدة في « فندق مونت كارلو بيتش » على صوت « سلمى الشيخ » التي وجدها أمامه منتصبة تقول له : حسبنا أنك خرجت من الغرفة أو أصابك مكروه . لقد مضى علينا أكثر من ساعة ونحن نتصل بك بالتليفون . والتلفون يرن ولا أحد يجيب . وأخيراً طلب مني سامي أن أعود من اليخت لأبحث عنك . إن المدعوين ينتظرونك في اليخت لتناول العشاء وقد تجاوزت الساعة الآن العاشرة مساء !

ونظر سعيد الطرابلسي إلى الصبية الرائعة ، وكأنه لا يزال يستمتع بوصف سامي لها : « كم تشبه عمتها غزالة . السمرة الخفيفة ، والعينان الخضراوان . والشفتان المقلوبتان . وبريق عينيها . « فهناك صنف من النساء يولد وفي عروقه نداء ليس من السهل مقاومته ! » .

ولم يتمالك سعيد نفسه ، فأخذ يد سلمى ، وطبع عليها قبلة فيها من الشهوة أكثر مما فيها من الاحترام ، ثم قال لها :

— أنا آسف . لقد جعلتني الذكريات أشبه بالنائم . صدقيني أني لم أسمع رنين جرس التليفون . الطبيعة ، والليل ، وأصوات الموج كأنها همسات العاشقين ذكرتني بجلسة مشابهة قضيتها في « شامونيكس » في سويسرا في شاليه يملكه سامي هناك ... لقد نسيت نفسي . انفجر في أعماقي شريط طويل من الذكريات .

وقالت سلمى : انفض عن نفسك شريط الذكريات ، وقم بنا إلى اليخت ... فالناس ينتظروننا هناك .

٥

عندما وصل سعيد برفقة سلمى إلى الرصيف رقم ٧ حيث كانت ترسو مجموعة من اليخوت الفاخرة ، كان هناك تجمع من بعض الفضوليين وبضعة رجال من الشرطة .

وقال سعيد ، وهو ينزل من السيارة : يبدو أن شيئاً قد حدث هنا .

وأمسكت سلمى بذراع سعيد متجهة به إلى يخت كتب على مقدمته بأحرف من نحاس « سوريا » وقالت : قبطان اليخت « ويلهالم » (وأشارت إلى اليخت المجاور لليخت سوريا) عاد فجر أمس وهو مخمور . وبينما كان يجتاز السلم الخشبي الممتد بين اليخت والرصيف ، متكئاً على الحبال المجدولة ، وقع في البحر ، وارتطم رأسه بفراشة اليخت الحديدية . وقد نقل إلى المستشفى والدماء تتفجر من مؤخرة رأسه ، حيث أجريت له عملية مستعجلة . قطبوا رأسه عدة قطب والبوليس هنا للتحقيق ، والناس للفرجة أو بدافع الفضول لا أدري !

وجاء سامي الشريف ليستقبل صديقه سعيد الطرابلسي (الذي كان يتأمل اليخت « سوريا ») وهو يقول : اخلع نعليك ، انك في مركب مقدس !

— مركب رائع . إنه الوحيد هنا الذي يستحق أن يسمى « يخت » .

— هذه مراكب حرب على وزن أغنياء حرب . فهذا اليخت (وأشار إلى يخت ضخم إلى الجانب الآخر من اليخت ويلهالم) كان في الأصل قاذفة طوربيد أيام الحرب . قطعة بحرية كبيرة . ولذلك يبدو الآن بعد أن تحول إلى يخت مثل فندق فينيسيا في بيروت ، تدخل إليه وكأنك داخل إلى ملعب أو كاراج . صاحبه يهودي يملك مصانع التجميل « ريفلون » وقد أطلق على اليخت اسم « أولتيمان » لأنه اشترى اليخت من أرباح هذا المستحضر الشهير . أما اليخت « ويلهالم » ، فأصحابه ألمان ، وهم أيضاً أثرياء حرب . قاموا برحلة واحدة فيه من « كازابلانكا » إلى جبل طارق . أصيبت الزوجة بدوار البحر ، فاضطر الرجل إلى ركوب الطائرة مع زوجته من جبل طارق إلى مونت كارلو . وجاء اليخت إلى هنا وليس عليه إلا بحارته . كانت هذه هي الرحلة الوحيدة التي ركبوا فيها اليخت .

وسأل سعيد ، بعد أن خلع نعليه ، ومشى وراء سامي حافي القدمين ، فوق أرضية اليخت المصنوعة من « الباركيه » فقال : ولماذا اشتروه اذن ؟

— لأن الموضة بين أصحاب الملايين هي اقتناء اليخوت .

وقالت سلمى ساخرة ، وهي تسير أيضاً حافية القدمين : حتى المشي فوق اليخوت ، أصبح له تقاليد لا يستطيع أحد أن يخالفها ، والا اعتبر من فصيلة مختلفة عن فصائل المجتمع النقي الذي يعيش هنا !

وأمام الكابين التي ينزلون منها إلى داخل اليخت ، صفّت بضعة

مقاعد ، كان على بعضها فتاتان ورجلان . وبعد أن قدم سامي صديقه سعيداً إليهم ، قدمهم إليه : « اليزابيت » و « فيرونيكا » و « كارلو » و « باكو » !

وجلس سعيد بجانب سلمى ، فقد شعر منذ البداية انه في حاجة إليها للتعرف على شخصيات الحاضرين .

وسرعان ما استأنفوا الحديث الذي كانوا يتبادلونه قبل وصول سعيد ، فقال « كارلو » : « إن أكبر خطأ يمكن أن يرتكبه إنسان هو أن يقتني شيئاً لا يعرف كيف يستعمله . إن « الهرخريخ » (وأشار بيده إلى اليخت « ويلهالم ») عرف كيف يكسب المال . أصبح مليونيراً بسبب ظروف عرف كيف يستغلها . ولكنه لا يعرف الآن كيف ينفق أمواله . عندما أصبح واحداً من أصحاب الملايين أراد أن يعيش كما يعيشون . اشترى قصراً في « التيرول » لا في ألمانيا ، لأن الناس يعرفونه في ألمانيا . ولكي يقطع كل صلة مع مجتمعه الأصلي بعد أن نزح منه إلى مجتمع آخر ، هاجر من ألمانيا إلى النمسا ... » .

ومال سعيد على سلمى يسألها عن المتحدث الذي كان يبدو في الخمسين من عمره ، ضخم الجثة ، على وجهه آثار الشمس التي غيرت لونه الأحمر إلى سمرة محروقة . فهمست قائلة بالعربية : « انه هو الآخر غني حرب . كان يملك ورشة لتصليح السيارات في « ميلانو » . ويعد الحرب قرر صاحب شركة « فيات » ـ واسمه على ما أذكر « السنيور انياللي » ـ أن يجمع كل الورش ، فاشترى ورشة السنيور كارلو . ويظهر أنه قبض سعراً عالياً ، فأخذ توكيل مصنع الكوكاكولا لكل شمال إيطاليا . كان ذلك عام ١٩٤٩ .

وبعد ذلك حصل على وكالة الآلات الأوتوماتيكية التي توضع

فيها زجاجات الكوكا كولا ، فيحصل كل من يريد أن يشرب كوكا كولا على زجاجة منها بمجرد أن يضع السعر المحدد لها ، ثم يكبس الزر . وبعد ذلك أخذ وكالة الآلات الأوتوماتيكية التي تصنع قهوة « الأكسبريسو » . وهكذا أصبح مليونيراً ، وأصبح عنده يخت في مونت كارلو ، ولا يتعشى إلا على مائدة الأمير رينيه وزوجته غريس كيلي . وكما يفعل معظم أثرياء الحرب ، طلق زوجته أم أولاده ، ورافق سكرتيرة أفاقة لست أدري لماذا لم يصطحبها معه هذا المساء . ومع ذلك فهو ـ كما تسمع ـ يعرض بزملائه أغنياء الحرب . ويوزع النظريات على جلسائه وكأنهم لا يعرفون أصله وفصله ومغامرات بناته الأربع على شواطئ الريفييرا ... ! » .

وقالت « أليزابيت » معلقة على ما قاله « كارلو » عن أغنياء الحرب : « ألا تعتقد أن كثرة المال مثل قلته ، كلاهما مربك ويؤدي في معظم الأحيان إلى مشاكل لا يمكن السيطرة عليها ؟ » .

وعاد سعيد يهمس في أذن سلمى : وهذه الحسناء ؟ من هي ؟

وقالت سلمى بسخرية : حسناء ؟ هل تراها فعلاً حسناء ؟ شقيقتها « فيرونيكا » حسناء ، هذا صحيح ، أما هي فتشبه البقرة .

ولم يشأ سعيد أن يناقش سلمى ، فقال لها : معك حق .

وتابعت سلمى همسها قائلة : كلتاهما ابنة لبنكير انكليزي هرب من الضرائب في بلاده ، وأقام في « نيس » . وهما كما ترى ، كبراهما تتظاهر بالزهد ، وتقول أن المال الكثير متعب ويسبب المشاكل ، وهي تموت في المال وأصحاب المال ، وعلى استعداد لتسلم نفسها لأي رجل تشم فيه رائحة المال ! أما الأخرى فأحسن ما فيها أنها لا تحب المناقشات ، وتفضل أن تقضي الوقت في الرقص أو في أحضان رجل !

وتدخل الرجل الآخر في المناقشة ، فقال موجهاً كلامه لاليزابيت : « ماذا تعرفين يا سنيورتي عن مشاكل الفقر ؟ مشاكل الغنى دفع ثمنها قبطان اليخت . لا بد أن المسكين قد اكتشف أن سيده رغم غناه لا يعرف أن يقود يختاً ، وان السيدة التي غرقت في بحر من المال دون أن يأخذ رأيها أحد ، لا تعرف السباحة فيه ، بل أكثر من ذلك ، اكتشفت أنها تصاب بالدوار من رائحة البحر ! » .

وفتحت « أليزابيت » عينيها وقالت ساخرة : منذ متى يا باكو تدعو إلى الشيوعية ؟

وكما يحدث في مثل هذه المناقشات عندما يدخل الانفعال الشخصي في تقييم الحدث الذي يتناوله من لا علاقة لهم به ، فقد جرفت المناقشة الحاضرين فوق سطح اليخت « سوريا » إلى مواقع شخصية وصلت إلى حدود الغضب .

لقد قالت سلمى لاليزابيت : أيهما أفضل ... أن يصبح الإنسان عبداً للمال ، يهاجر من وطنه في سبيل الاحتفاظ به ، لذته الوحيدة هي جمعه واكتنازه ووضعه في أقبية البنوك ... أم انفاقه ولو بحماقة ، فالإنسان في النهاية لا يمكن أن يعرف قيمة المال إذا لم ينفقه ولو بالقائه من الشبابيك !

وحاول باكو أن يلطف الجو فقال : إذا كنت أحب سلمى كل هذا الحب ، فلأنني أنتظر اليوم الذي ستصبح فيه مليونيرة لأجلس أنا تحت شبابيكها !

وهمس سامي في أذن صديقه سعيد وهو يشير إلى باكو : أليس ظريفاً ؟

ـــ فعلاً ... هل هو الآخر غني حرب ؟

ــــ ليس تماماً . أن « باكو » يعتبر نفسه شريكاً لكل الأغنياء الذين يعيشون هنا على الشاطئ . وهم يتزاحمون على ضمه إلى سهراتهم . فهو ظريف . فنان . يقال انه كان مغنياً من المغنين الإيطاليين المشهورين . ويعتبر من أحسن العازفين على الغيتار . ومع ذلك فأكثر ما يحبه الناس فيه هنا قصصه ومغامراته الجنسية مع الرجال . فهو ـ كما هو الشائع ـ « خول » ـ وهذه تسمية مصرية ظريفة تطلق على المصابين بالشذوذ الجنسي . وكما ترى فإن شكله وحركاته ومشيته تدل على ذلك . لقد اعترف لي مرة بأن معظم القصص التي يرويها عن نفسه هي قصص خيالية . وهو عادة يسرف في سرد رواياتها ومواقفها الحرجة لكي يضحك الذين يسمعونه . ان الناس يفضلون دائماً سماع فضائح غيرهم . لكي يتذكروا فضائحهم التي لايحبون أن يتحدثوا عنها ...

واستطرد سامي ، بينما كان الحاضرون فوق اليخت يتابعون المناقشة ، فقال : ولعل هذا هو السبب الذي يجعل كل النساء هنا يتزاحمن على اقتناء « باكو » ويحرصن على رفقته . انه كفيل بابعاد الشبهة عنهن ، فالجميع يعرف أن ليس له في النساء نصيب ولا مزاج !

ولم تتوقف المناقشة بين سلمى وأليزابيت ، فقد اعتدلت الحسناء الانكليزية في مقعدها ، وقالت موجهة حديثها لسلمى : « أريد أن أوضح مسألة ألمحت لها سلمى أكثر من مرة ، وهي الهجرة من الوطن في سبيل الاحتفاظ بالمال . صدقوني إذا قلت أني لا أحاول الدفاع عن أبي لأنه هاجر بسبب ارتفاع الضرائب في بريطانيا ، فقد لا أكون متفقة معه في ذلك ، ولكنني سأحاول بهدوء أن أقنع سلمى بضرورة فهم دوافع الناس وتصرفاتهم قبل الحكم عليهم والغمز منهم بمناسبة أو بدون مناسبة »

وظهر الانفعال على وجه سلمى .

وهنا أمسكها سعيد بيدها وأشار إليها بعدم الرد ، ثم التفت إلى أليزابيت التي لم تتوقع تدخله في الحديث ، ووجه لها سؤالاً أعاد الهدوء إلى جو المناقشة :

— أرجو أن تسامحيني إذا كنت سأتدخل في موضوع لا أعرفه جيداً ... هل أفهم من كلامك أن والدك هاجر من بريطانيا بسبب ارتفاع الضرائب ؟ وهل هناك بلد ليس فيه ضرائب ؟

وأجابت أليزابيت : قلت أني لا أحاول الدفاع عن تصرفات أبي ، ولكني أحاول فهم دوافعه . انه يعتقد أن المجتمع البريطاني يسير نحو الانحدار . لقد بنى الانكليز عظمة بلادهم على مبادرات مجموعة من الرواد في العلوم والتجارة والمال . ولم يبدأ نجم الامبراطورية في الأفول إلا عندما سنت القوانين التي تهدف إلى مساواة المكافح مع العاطل عن العمل ، والمجتهد مع الكسول ، والناجح مع الفاشل . إن الذين يصنعون القوة الحقيقية لبريطانيا يدفعون مما يكسبونه ضرائب تصل إلى تسعين في المائة للدولة . وهذه الدولة تصرف هذا المال على المغامرين والكسالى والعاطلين عن العمل الذين لا يتقنون إلا جمع أصوات الناخبين . لقد تركنا بريطانيا قبل حوالي ثماني سنوات . وكنت صغيرة عندما جئنا إلى هنا ، حيث لا يزال أبي يعمل في الشؤون المصرفية وحيث الضرائب معقولة جداً ... لقد قلت اني لا أقر أبي على ما فعل ، ولكني بالنتيجة احترم قناعاته ! .. » .

وسكتت لحظة ثم ابتسمت لأنها تذكرت شيئاً وقالت : فرانسواز ساغان ، الكاتبة الفرنسية الذائعة الصيت أعلنت أنها ستهاجر من فرنسا لتقيم بقية حياتها في جزيرة « كورك » بارلندا لأنها تدفع ضرائب باهظة في فرنسا ... هل يعني هذا أن ساغان خائنة ؟

وتدخل باكو مرة أخرى ليرطب المناقشة فقال : بالفعل يجب احترام قناعات الآخرين ولا سيما إذا كانت هذه القناعات قد ألقت بأليزابيت هنا فوق الرمال واليخوت وموائد هذا الأمير الشرقي الذي تؤكل الأصابع مع طعامه اللذيذ !

وانحنى سعيد على أذن سامي ، وقال له بالعربية : وأنا أيضاً لا أقرك على ما فعلت عندما هاجرت من سوريا وجئت إلى هنا ... ولكني مثل أليزابيت أحترم قناعاتك التي ألقت بي هنا على شاطئ الريفييرا ، فوق اليخوت ، إلى جانب هذه الحسان اللائي لا عيب فيهن إلا حبهن للحديث فيما لا ينفع ولا يفيد !

وقام الجميع إلى العشاء .

كما قال « باكو » كان الطعام الذي أعده الطباخ المصري « عبدو » شهياً تؤكل الأصابع معه ، بالاضافة إلى أن العشاء كان على ضوء الشموع !

* * *

— ما رأيك باليزابيت ؟

وحاول سعيد أن يفكر قبل أن يجيب . وتذكر أن سلمى كانت عدائية في مناقشتها معها ، فقال لها :

— فيرونيكا أحلى !

— أعتقد أنها تبادلك الإعجاب ، فمنذ أن دخلت المركب وهي تراقبك ولا ترفع عينيها عنك ...

ثم استطردت : لا أعتقد أن المجال مفتوح لك الآن ، انها هنا

لتكون وجبة الليلة لصديقك سامي .

ـــ واليزابيت ؟

ـــ كانت في ليلة سابقة إحدى الوجبات ... وكما تعرف ، فان سامي يحب تغيير البقر كل ليلة .

ـــ البقر ؟

ـــ الا تعرف القصة ؟ سامي يحلو له دائماً أن يرويها لأصدقائه .

ـــ لقد مضت تسع سنوات لم أقابل فيها سامي .

ـــ تسع سنوات ؟ مدة طويلة ...

ـــ وما هي قصة البقر ؟

ـــ يقول سامي أن بارونة في الأربعين كانت تملك مزرعة في الريف وكان سائق سيارتها شاباً طويلاً ووسيماً مثلك .

وقاطعها سعيد : شكراً لهذه التحية ...

وتابعت سلمى : ويبدو أن سائق السيارة كان يقوم بخدمات أخرى غير قيادة السيارة . ومرة ذهبت البارونة إلى المزرعة ، فرأت وهي تجتاز الطريق إلى الفيللا الريفية هناك ، ثوراً يشب على بقرة . فاهتاجت عواطف البارونة ، وأمرت السائق أن يفعل مثلما كان يفعل الثور . وبعد الغداء والقيلولة ، خرجت البارونة من الفيللا لتقوم بنزهة في البرية ، فرأت الثوريشب على بقرة ثانية . فاهتاجت عواطفها من جديد ، وأمرت السائق بأن يفعل مثلما يفعل الثور . واستجاب السائق ، وفعلها تحت شجرة في الهواء الطلق .واسترخت البارونة تحت الشجرة بعد ذلك ، وبقيت في مكانها تتأمل الشمس وهي تغيب في الأفق . وعندما غمر الليل البرية ، عادت إلى الفيللا في المزرعة ، فرأت الثور يشب على بقرة ثالثة . فطلبت من السائق أن يفعل مثلما كان يفعل الثور . وهنا اعتذر قائلاً : ليس في

استطاعتي أن أفعل شيئاً .

وسألته البارونة : هل الثور أقوى منك ؟

وأجاب السائق : أرجو أن تلاحظ سيدتي البارونة أن الثور قد غير البقرة !

وضحك سعيد وعلق على القصة قائلاً : رأي وجيه جداً . ولكن مثل هذه الحالات تنطبق أكثر ما تنطبق على الذين تجاوزوا سن الأربعين ، وسامي على ما أعرف لم يصل إلى هذه السن !

وقالت سلمى : لا أعتقد أن مثل هذه الفلسفة لها علاقة بالسن . إنها نوع من العادة أو القناعة ، أو هي بالنسبة لسامي ـ كما أتصور ـ نوع من المزاج سببه الحرص على عدم الارتباط بامرأة !

وأغرق سعيد عينيه بعيني سلمى الخضراوين وقال لها : أنت أخبر بسامي مني ... في مثل هذه الأمور على الأقل !

واحمر وجهها . فأدرك سعيد أنه تسرع ، فبادرها معتذراً : عدم المؤاخذة . نسيت أنك شرقية مثلي !

ــ لا علاقة للشرق بهذا الموضوع على الاطلاق . سامي بالنسبة لي أخ كبير . لم أكن له في أية ليلة وجبة طعام ولا بقرة عابرة . أنا هنا لأمر سيطلعك عليه سامي الليلة أو غداً . لقد قال لي أنك ستكون عوناً لنا فيه .

ــ لماذا لا تخبريني أنت بهذا الأمر ؟

ــ أفضل أن أتركه لسامي ...

وأرادت سلمى أن توقف الحديث عند هذا الحد ، فاستدارت واتجهت نحو باكو وهي تقول : هل لازلت على وعدك بمرافقتي إلى ملهى « جيمي » ؟

وحرك باكو حاجبيه ، ولوى قامته كما اعتاد أن يفعل عندما يريد أن يتظارف وقال وهو يغمز مشيراً لسعيد : أليس الأفضل أن يرافقك السنيور ، ليستطيع أن يشبع نهمك للرقص ، من أن أجيء معك أنا الكهل العجوز الذي لا يستطيع الوقوف على قدميه ؟

وقال له سعيد : يبدو أنني لست من النوع المرغوب فيه !

وقالت سلمى : لا أريد أن أحجز حريتك ... أعتقد أن سامي قد أعد لك وجبة دسمة (وأشارت بعينها إلى اليزابيت) .

وقال سعيد : ولكن أحداً لم يأخذ رأيي ، بالإضافة إلى أن الوجبة لا تثير الشهية !

— اذن ، تفاهم مع صديقك سامي !

* * *

لم يكن سعيد صادقاً عندما قال أن الوجبة لا تثير الشهية ... فبالرغم من أن « اليزابيت » كانت من نوع النساء الذي يفضله ، إلا أنه كان يفضل أكثر نوع سلمى . لقد خطفت عينيه منذ اللحظة التي رآها مع سامي تخرج من غرفة صالة اللعب في الكازينو . وكان يمكن لسعيد أن يقبل على حسناء مثل اليزابيت شاكراً لصديقه سامي مثل هده المفاجأة التي تعود في الماضي أن يقدم له مثلها في سويسرا ، لو لم يكن حريصاً على الظهور أمام سلمى بأنه ليس من النوع الذي يقبل على طعام لم يقم باختياره بنفسه . وعندما فاتحه سامي بالموضوع ، لم يقل له أكثر من أنه متعب . ويفضل الذهاب مع باكو وسلمى ليرقص في ملهى « جيمي » . ولم ينس أن يسأل صديقه ، وهو يشير إلى سلمى : لقد أخبرتني أنك ستطلعني على موضوع هام !

— فعلاً ، ولكن أتركه إلى صباح غد . فاليوم ـ كما يقول امرؤ

القيس ـ خمر وغداً أمر .

ـــ وهل الأمر يتعلق بها ؟

ـــ يتعلق بها وبأبيها المقبوض عليه في المانيا ، كما يتعلق بصديقها الذي وجد مقتولاً في فندق « أتلنتيك » على شاطئ « الترافي موندي » بالمانيا !

ـــ لم أفهم ...

ـــ قلت لك ، غداً سنتحدث في هذا الموضوع ، أما الآن فعليك أن تختار بين سلمى واليزابيت .

ـــ إذا كان لي حق الخيار ، فأرجو أن لا تزعجك صراحتي إذا قلت أنني أختار سلمى !

ـــ كما تريد ، ولكنها فتاة معقدة .

ـــ هل بينك وبينها شيء ؟

ـــعلى العكس ، ليس بيني وبينها أكثر مما بيني وبين أية فتاة مرت في حياتي . ولا أخفي عنك أني ندمت على العلاقة العابرة التي تمت بيني وبينها . لقد سيطر علي الحنين إلى عمتها « غزالة » عندما رأيتها ... ثم تذكرت بعد أن انطفأ الحنين ، أنها ابنة صديقي علي الشيخ !

وبينما كان سعيد يقول لنفسه « اذن لقد كذبت عليعندما قالت لي أن ليس بينها وبين سامي أية علاقة ، وأنها لم تكن له وجبة ليلة ولا بقرة عابرة » ... كان سامي يقول لصديقه :

ـــ اسمع يا سعيد . إذا أردت أن تسهر مع سلمى ، فاصطحب معك اليزابيت . أولاً لأنني وعدتها بك . وثانياً لأن حظك سيكون أكبر عندما تتنازعك صديقتان لدودتان ولو على حلبة الرقص . وثالثاً لكي أستطيع أنا الانفراد بفيرونيكا !

* * *

يقولون : أن ملهى « جيمي» في مونت كارلو هو أحلى ملهى ليلي

في العالم ، وهذا صحيح . انه أشبه بحلم . الخيال فيه أكثر من الحقيقة ، أو هكذا يبدو .انه مؤلف من بار وديسكوتيك وصالة للرقص طولها ٢٠ متراً وعرضها ٧ أمتار ، تحيط بها موائد صغيرة متلاصقة . وأمام الصالة تمتد بركة واسعة أشبه ببحيرة ، حولها أشجار بلح افرنجي ، وعلى طول أطرافها مشاعل تضاء بالغاز ، وفي وسطها نوافير من المياه تتراقص على ضوء المشاعل . ويشعر الذي يرقص فوق البيست وكأنه يعيش في أواسط افريقيا أو في أدغال جزر هونولولو . ثم ــ وهذا هو أهم ما في الملهى ــ تلتقي فيه كل ليلة أجمل نساء الريفييرا الفرنسية أو النساء اللائي يقضين فصل الصيف على شواطئ مونت كارلو !

ووجد سعيد نفسه يغرق في هذا الجو الشاعري المثير . وعندما طلبت منه سلمى أن يراقصها ، ابتسم في لؤم ليس من طبعه وقال لها : اللياقة تقضي أن تكون رقصتي الأولى مع اليزابيت ، وتكون رقصتك الأولى مع باكو !

وشدت سلمى باكو من ذراعه بعنف وقالت له : تعال . أريد أن أرقص.. معك ، معه ، مع أي رجل . فالرقص هو الذي يهمني لا الرجال !

وابتسم سعيد ، فقد كان سامي على حق عندما قال له : « إذا أردت أن تسهر مع سلمى فاصطحب معك اليزابيت ! » .

وتعمد أن يراقص اليزابيت بوله العاشق الذي يراقص حبيبة طالما تمنى أن يراقصها . كان يبالغ في ضمها إلى صدره . ويقترب بفمه من أذنها . وكان يشدها اليه في حركات متسقة مع ايقاع التانغو كأن ما يفعله أمر طبيعي . ولكن ما أن بدأت الأوركسترا تعزف مقطوعة « لابوهيم » (أي الغجرية) لشارل ازنافور ، حتى تحولت المبالغة إلى حقيقة . فأغمض عينيه ، وأخذت أنفاسه تزداد عمقاً ، فهذه الأغنية ، والموسيقى التي تصاحبها ، كانت باستمرار ذات تأثير غريب عليه . انها تحمله إلى

عالم غامض مجنح بالأحلام ، مليئ بالإثارة والمتعة . وشعرت « اليزابيت » بانفعالاته وان لم تفهمها . ظنت أنها هي السبب لا الموسيقى ، فالتصقت به ، ورفعت عينيها إليه ، واقتربت بشفتيها من شفتيه ، فوجد نفسه يغرق معها في قبلة لم تنته إلا بعد أن انتهت الأغنية ...

وعادا إلى المائدة الصغيرة التي وقع اختيارهم عليها ، فلم يجدا غير « باكو » . ولما سأله سعيد عن سلمى ، رفع الرجل يديه ، وأغرق رأسه بين كتفيه وهو يقول : إذا كنت حريصاً على أن لا تصدع دماغك ، فالأفضل أن لا تسأل . مع سلمى كل شيء ممكن ، فجأة ، تركت البيست ، وقطعت الرقص ، واتجهت نحو المائدة ، فتناولت حقيبتها وخرجت مثل العاصفة ...

وغمز « باكو » بعينه نحو اليزابيت ثم استطرد قائلاً : سلمى مصابة بحساسية شديدة ضد أنواع معينة من الناس !

وقالت اليزابيت بترفع الأرستقراطية الانكليزية ولؤمها : إذا كان ذلك صحيحاً ، وأرجح أنه صحيح ، فحرام أن تترك بين الناس ... مكانها الطبيعي في المستشفى !

وضحك « باكو» وحرك حاجبيه وقال : في المستشفى أو في السرير !

وقالت « اليزابيت » : لن يستطيع السرير أن يطفىء أحقادها . إنها فتاة معقدة . لست أدري ما ذنب الناس إذا كان حبيبها قد وجد مقتولاً في فندق بألمانيا ، والقي القبض على أبيها بتهمة قتله . أنا أشفق عليها وأحاول كلما تعرضت لي أو لأبي في سهرة أو عشاء فوق يخت مستر شريف أن أجد لها عذراً للحقد على الناس . وقد قلت لمستر شريف مرة ، إن من واجبه ، إذا كان يريد أن يكون مكان والدها السجين ، أن يعرضها على طبيب !

واستمر الحديث بين باكو واليزابيت ، بينما كان سعيد يتشاغل عنهما في تأمل الراقصين والراقصات ، ويسلم نفسه إلى الجو المثير الحالم

الذي تخلقه الموسيقى ، ومنظر البحيرة ، ومشاعل الغاز ، ونوافير المياه ... ويتساءل بين الفترة والفترة : أين ذهبت سلمى ؟ ولماذا ذهبت ؟ وما الذي جعلها تقطع الرقص وتغادر الملهى دون أن تقول إلى أين ؟

وابتسم وهو يتذكر كلمة « باكو » : مع سلمى لا تسأل !

* * *

كانت الساعة قد تجاوزت الثالثة صباحاً عندما سمع سعيد دقاً متواصلاً على باب غرفته في فندق « مونت كارلو بيتش » . ولم يكن قد مضى على عودته إلى الفندق أكثر من نصف ساعة ... ولم يكن قد استسلم إلى النوم بعد ... فقام من سريره ، ووضع عليه غلالته ، لأنه تعود أن ينام عارياً في ليالي الصيف ، ثم فتح الباب ... ولدهشته واستغرابه وجد أمامه سلمى . عيناها الخضراوان ملتهبتان من كثرة الشراب أو من الغضب لا يدري . وقبل أن يفتح فمه بأي كلام ، دفعته بيدها ، ثم دخلت إلى الغرفة ، وألقت نظرة على السرير ، واتجهت بعد ذلك إلى الحمام ، فلما وجدته خالياً ، خرجت إلى الشرفة وكأنها تبحث عن شيء .

ولم يكن سعيد يحتاج إلى ذكاء غير عادي ليدرك أن سلمى تريد أن تتأكد إذا كان قد اصطحب « اليزابيت » معه إلى الفندق ، لذلك وقف عند الباب يتأمل هذه الصبية التي طالما تمنى أن تضمه غرفة واحدة معها ، وهو يبتسم ابتسامة الرجل المنتصر !

وبدلاً من أن يهدأ غضبها لأنها لم تجد غريمتها في الغرفة ، ازدادت ثورتها ، واتجهت نحو سعيد وقالت له : وتضحك أيضاً ؟

وألحقت كلمتها بصفعة على وجهه ، ثم همت بالخروج من الغرفة... وبحركة سريعة أمسكها سعيد من يدها ثم لواها حتى استدارت نحوه ، وأصبح جسدها مقابل جسده ، فنظر إليها وهو غاضب ... ولكن غضبه لم يلبث أن هدأ عندما أغمضت سلمى عينيها ، ورمت بنفسها على صدره وراحت تجهش بالبكاء كالطفل الصغير !

٦

عندما دخل رجال البوليس الألماني إلى الغرفة ٤٥ في الطابق الثاني من فندق « أتلنتيك » على شاطئ « الترافي موندي » وجدوا رجلاً في الخامسة والثلاثين من عمره ، ملقى على وجهه ، وسط بركة من الدماء . وقد تبين أنه مصاب بطلقة نارية من مسدس كاتم للصوت ، أصابته في صدره ونفذت إلى القلب ، فقتلته . وقد تبين أن القتيل من مواليد سوريا ، واسمه خليل الأزرق ، من تجار الأسلحة المعروفين في فرنسا . وصل إلى « الترافي موندي » في ٢٧ ابريل ١٩٧٢ ، ولم تعرف أسباب زيارته للشاطئ الألماني في غير موسم الصيف . وبعد ثلاثة أيام ، أي صباح يوم الثلاثين من ابريل وجد مقتولاً في غرفته ، عندما دخلت الخادمة ، لترى إذا كان النزيل قد غادرها ، بعد أن دقت الباب ، ولم يرد عليها أحد . ففوجئت بالجثه . فأصيبت بهزة عصبية ، وهرعت إلى الخارج وهي تصرخ : جريمة ، جريمة في الغرفة ٤٥ .

وقد أفادت مصادر البوليس الألماني ، أن الجريمة وقعت بين الساعة

التاسعة والحادية عشرة مساءً . وقالت صاحبة الفندق ، وهي أرملة في الخامسة والثلاثين من عمرها ، أن خليل الأزرق لم يغادر الفندق طوال الثلاثة أيام التي قضاها فيه إلا مرة واحدة ، قابل فيها ثلاثة أشخاص في مقهى قريب من الفندق . وقد استقبل يوم الجريمة صديقاً له كان ينزل في الفندق المجاور . وقد انصرف حوالي الساعة الحادية عشر صباحاً . ولم يتمكن البوليس حتى الآن من العثور على الأشخاص الثلاثة الذين قابلوا خليل الأزرق في المقهى ، وان كان يرجح أنهم قد غادروا ألمانيا .

وقد أكدت تحريات البوليس أن الشاب السوري المقتول ، له نشاط مشبوه ، وهو على الأرجح يعمل لحساب عدة أجهزة مخابرات ، عربية واسرائيلية وأميركية . وقد تبين من الكشف أن القاتل كان موجوداً داخل الغرفة أثناء اقتراف الجريمة ، وانه على صلة قوية به ، لأن باب الغرفة وجد سليماً ومغلقاً بشكل طبيعي ، وليس عليه اثار اقتحام من الخارج ، كما لم توجد اثار مقاومة أو عنف في الغرفة ...

وألقى البوليس القبض على رجل سوري في الأربعين من عمره ، ضابط سابق ويعمل في تجارة الأسلحة ، اسمه علي الشيخ ، وهو الذي زاره في غرفته بالفندق صباح يوم الجريمة ... « والتحقيقات لا تزال جارية » .

* * *

ورفع سعيد الطرابلسي يده من فوق مجموعة الصحف التي كانت بين يديه ، ثم استلقى على ظهره فوق المقعد الوثير المواجه للصالة الصغيرة في الطابق الأسفل من اليخت سوريا ... وراح ينتظر حتى يفرغ سامي الشريف من المخابرة التلفونية التي كان يجريها مع مكتبه في لندن .

وكان سامي يعطي تعليماته بوضوح وهدوء وصراحة : « تخلصوا

من كل الدولارات التي معكم . اشتروا أراضي . اشتروا ماركات المانية . من هنا إلى أقل من سنة سوف يهبط سعر الدولار لا أقل من ٢٥ في المائة ! » .

لقد تعود سامي الشريف أن يدير مكاتب الاستثمار التي يملكها في جنيف ولندن وباريس وروما بالتليفون . فهو بالرغم من انه جاء إلى الريفييرا بيخته ، يقضي عطلة ممتعة ، إلا انه يحرص على قضاء ساعتين صباح كل يوم من العاشرة إلى الثانية عشرة ، يتصل خلالهما بمكاتبه ، يسأل عن سير العمل ، ويعطي تعليماته لموظفيه ... وكثيراً ما قام بأكبر الصفقات وهو في « المايوه » .

وعندما انتهى سامي من مخابرته التليفونية ، سأل سعيد وهو يشير إلى مجموعة الصحف : ما رأيك ؟

ــ أولاً ، أين تقع « الترافي موندي » في ألمانيا ؟ ثانياً من هو خليل الأزرق . ثالثاً لماذا ألقي القبض على صديقك « علي الشيخ » ؟

ــ « الترافي موندي » هو الشاطئ الشمالي لألمانيا . وفي الإمكان ركوب سفينة « فيري بوت » لتنقلك من الشاطئ الألماني إلى الشاطئ الدنماركي . وهذا الشاطئ يقع شمال مرفأ « هامبورغ » ، قريباً من بلدة « لوبيك » مسقط رأس المستشار الألماني « ويلي برانت » .

ــ وما الذي أخذ خليل الأزرق إلى هناك ؟

ــ لا أحد يدري حتى الآن ... ولكن لا بد أن يكشف التحقيق هذه النقطة بالذات ، فهي لا تزال غامضة . وقد اخترنا أشهر محامي في « هامبورغ » ليتولى الدفاع عن « علي الشيخ » . ونحن ننتظر تعيين موعد البدء في التحقيق بين يوم وآخر لنسافر إلى « هامبورغ » .

— هل عرف السبب الذي دفع بصديقك « علي الشيخ » للذهاب إلى « الترافي موندي » ؟

— علي الشيخ الخبير في التحقيقات الجنائية التزم الصمت منذ بدء التحقيق معه . رفض الادلاء بأي جواب عندما كان البوليس يتولى التحقيق . ولكن « سلمى » تقول ان ليس هناك أي دليل ضده سوى أنه كان آخر شخص قابل خليل الأزرق في فندق « أتلنتيك » في اليوم السابق لاكتشاف الجريمة .

— وما هي طبيعة العلاقات بين علي الشيخ وخليل الأزرق ؟

— شريكان في تجارة السلاح . كان الاثنان وكيلي مصانع الأسلحة الفرنسية . وقبل ذلك ، كان خليل الأزرق يعمل تحت أمرة « علي الشيخ » ... ألا تذكر ، أني أخبرتك بالشاب الذي تولى تهريبي إلى لبنان ؟ إنه خليل الأزرق .

— إذا كان « علي الشيخ » آخر شخص قابل خليل الأزرق ، فقد يكون هو القاتل !

— يمكن ، ولكن التهمة لم تثبت بعد . لقد اتصل بي محاميه « الهر جيرهارد » وأخبرني بأن ثلاثة أشخاص لم تعرف هوياتهم الحقيقية كانوا ينزلون في فندق « استراند » بجوازات سفر إيطالية ، تبين للبوليس أنها مزورة . وكما قرأت في الصحف ، فان صاحبة الفندق « أتلنتيك » قد أفادت بأن خليل الأزرق زار فندق « استراند »واجتمع بالرجال الثلاثة في مقهى مجاور . وقد اختفى الرجال الثلاثة من الفندق ومن شاطئ الترافي موندي » ليلة الجريمة . وقال محامي علي الشيخ « الهر جيرهارد » أيضاً : ان خليل الأزرق تناول الغداء برفقة « الفرولين ريتا » في فندق « شارلوت » قبل مقتله باحدى

عشرة ساعة ، لأن الكشف الطبي أثبت أنه قتل حوالي الساعة العاشرة ليلاً .. وهكذا ترى أن هناك أكثر من جهة يمكن اتهامها بالجريمة ، بالإضافة إلى أن أكثر من جهة لها مصلحة في قتل خليل الأزرق ، منها عدد من المخابرات العربية التي أصبحت تخشاه من كثرة المعلومات التي في حوزته . وهناك أيضاً بعض الشركات الدولية التي تعمل في ميادين الأسلحة والتهريب ، والتي قد تكون اختلفت مع خليل الأزرق على إحدى الصفقات ... ثم كانت هناك شكوك حول قيامه بدور العميل المزدوج ... والبوليس الألماني يقول انه كان « عميلاً متعدد الارتباطات » !

— خليل الأزرق خطير لهذه الدرجة ؟

— أكثر من خطير . إنه رجل مذهل الذكاء . مغامر لدرجة الجنون . شخصيته من الشخصيات النادرة . ولعل ما يزيد في الغموض الذي يكتنف حياته ، أن قليلين جداً هم الذين يملكون معلومات عن عمله ، وتصرفاته ، وارتباطاته ... قبل يومين ، كنت أتحدث عن جريمة « الترافي موندي » أمام شلة من الأصدقاء ، بينهم حسناء كويبة متزوجة من مليونير إيطالي يملك عدة مصانع لانتاج « رب البندورة » . فإذا بهذه الحسناء تفتح فمها دهشة ، وهي تتأمل صورة خليل الأزرق التي نشرتها الصحف ، ثم تقول لي : « أعرف هذا الرجل ... كان يتردد على فاروق الشربجي ؟ » .

— فاروق الشربجي ؟ .. أليس هو الشاب المصري الأصل ، الذي قتل في شقته بالفيافينيتو بروما قبل خمس او ست سنوات ؟

— بالضبط . كان فاروق الشربجي يحمل الجنسية اللبنانية . ويبدو أنه كان على علاقة بالمافيا . لقد اتفق مع العصابة على إنشاء مصنع للنسيج في إيطاليا . وكانت الحسناء الكوبية ـ واسمها باتريشياده

لابيانكا ـ عشيقة فاروق . وأخبرتني أنها كانت ترى خليل الأزرق يتردد على فاروق . وأن فاروق كان يخاف منه ويخشاه .

ـــ ومن هي « الفرولين ريتا » التي تناول خليل الأزرق الغداء معها في فندق شارلوت ؟

ـــ عشيقة علي الشيخ وسكرتيرته ومديرة أعماله . وتقول سلمى انها كانت تطارد خليل الأزرق ، وأنها كانت تغار منها غيرة شديدة .

ـــ تغار ممن ؟

ـــ من سلمى ... خليل الأزرق ـ كما تجمع النساء اللائي عرفنه ـ كان فحلاً من الدرجة الأولى ، فهو لم يكن عميلاً مزدوجاً فحسب ، بل كان عشيقاً مزدوجاً أيضاً . كان عشيق سلمى وعشيق ريتا . وتتهمها سلمى بأنها قد تكون استعانت ببعض النازيين السابقين الذين كانوا يعملون مع علي الشيخ في تهريب السلاح لقتل خليل الأزرق ...

وفجأة ضحك سعيد الطرابلسي ، وراح يتأمل وجه صديقه سامي ثم قال له : أنت أغرب إنسان قابلته في حياتي . علي الشيخ هو عقدة عمرك . إنه الرجل الذي كان سبب تركك لبلادك ... لماذا تهتم به كل هذا الاهتمام ؟

ـــ أصبحنا صديقين بعد ذلك ... وكما يقول المثل « الصداقة تكون أقوى عندما تجيء بعد عداوة » . ثم انه أودع عندي بضعة ملايين من الدولارات استثمرها له أفضل استثمار .

ـــ ومن أجل ذلك لم تتردد في استدراج ابنته سلمى لتكون وجبة طعام لاحلى لياليك !

وضحك سامي وقال : صدقني هي التي استدرجتني . لم تكن تلك

هي المرة الأولى . حاولت عندما كانت مراهقة . سلمى بطبيعتها « قطاع عام » . لا تستطيع أن تنام إلا في حضن رجل . ولأنها كذلك لم تتزوج . ويبدو أن خليل الأزرق كان الرجل الوحيد الذي قلب المفاهيم في رأسها . ومع ذلك فهي تنام مع غيره بالرغم من أنها تحبه !

وقال سعيد لنفسه : فعلاً ... لقد استدرجتني ليلة أمس ونامت عندي .

وتابع سامي كلامه : ثم أرجوك يا سعيد أن تفهم أننا هنا في أوروبا نعيش في ظل عقلية مختلفة عن العقلية الشرقية . أن تعطي المرأة نفسها لرجل يعجبها قضية شخصية لا علاقة للأخلاق بها ...

— ولكن ، لم تقل لي ، كيف خرج « علي الشيخ » من دمشق . ما الذي أتى به إلى أوروبا ؟ الذي سمعته منك في مثل هذه الأيام قبل تسع سنوات في سويسرا ، ان « علي الشيخ » كان يحتل مركزاً مهماً في السلطة في دمشق .

ووقف سامي في مكانه ، وراح يذرع أرض الطابق الأرضي من اليخت سوريا ... ثم اتصل بحركة عصبية بقبطان المركب بواسطة « ديكتافون » مثبت بالحائط وقال له : هل لك أن تقوم بنا برحلة في عرض البحر ؟

ثم التفت إلى سعيد الطرابلسي وقال له : هل تصدق أن متاعبي وهمومي هي جزء من أحلامي ؟ وأحياناً تحل لي الأحلام بعض المشاكل التي أهرب من التفكير بها في اليقظة . وأرى في المنام أشخاصاً لا أعرفهم ، وأفاجأ بعد ذلك بمقابلتهم !

— أما زالت الكوابيس تهاجمك في أوروبا ؟

— ليس دائماً ... قبل وفاة أبي ، طاردني كابوس غريب لعدة ليال متوالية ..

* * *

الليلة حارة حارة في دمشق ..

ورأيت نفسي في منزلنا بحي المهاجرين ، أتقلب في فراشي وكأني مصاب بحمى . وفجأة أخذ الباب يطرق بعنف . وأخذت الطرقات تكبر ، تشق صمت الليل ، وصراخ نسوة يملأ مسامعي ... ثم وجدت نفسي في الشارع ، أعدو ، لا أدري إلى أين ، بدون ثياب ، ودمشق كلها تحترق . آلاف الناس يركضون مثلي بلا ثياب . ونار سخيفة ، نار بلا وهج ، بلا لهب . نار لزجة كالهواء تشعر بها ... تلفحك على وجهك ولكنك لا تراها ، وهي تمضي ملتهمة كل ما يعترضها ، تأكل المدينة أو تتقيأ عليها وتبصق على وجوه سكانها . وأنا أعدو . أركض . أجري . والنار من حولي تلاحقني ، والمدينة كلها تعدو . تركض . تجري معي . ولكننا لانتخطى النار ، ولا النار تدركنا . وخلال ذلك كله كان وجه أبي يطاردني ... لا يتكلم ، ولا يصرخ ، فقط ينظر إليّ بعينين جامدتين لا حياة فيهما ...

وأستيقظ وأنا أتصبب عرقاً ، أحاول عبثاً أن أتذكر نظرات عيني أبي علني أفهم معناها . ماذا يريد أبي مني ؟ هل يسألني عن شيء ؟ هل يعاتبني ؟ هل يلوم ؟ هل يستنكر ؟ ... فلا أتذكر شيئاً . وأحياناً أحاول النوم مرة أخرى ، وأتمنى أن يعود الكابوس ، رغم ما أعاني خلاله من عذاب ، لكي أرى نظرة أبي إليّ من جديد ، وأحاول أن أفهم ماذا يريد وما الذي يفكر فيه وأنا أركض .. أجري عارياً وسط دمشق المحترقة

* * *

والتفت سامي الشريف إلى سعيد الطرابلسي وقال له : هل تصدق ، أن أبي مات في دمشق عندما كان هذا الكابوس يطاردني في أوروبا ؟

ــ ألم تره قبل موته ؟

ــ هو الذي طلب ذلك ... عندما عرفت انه مريض ، كتبت له ليحضر إلى بيروت ومنها أنقله إلى سويسرا فرفض . هددته بالحضور إليه في دمشق إذا لم يحضر إلى بيروت ، فكتب لي : « إذا عدت إلى سوريا فلن تهدأ روحي حتى ألقاك يوم القيامة » .

وفجأة ، وقع سامي فوق سعيد . كان اليخت قد أقلع ، وبدأ يخرج إلى عرض البحر !

وقال سعيد : من أي شيء كان أبوك يخاف عليك ؟ ألم يكن حزب البعث في السلطة ؟ ألم يكن علي الشيخ كما أخبرتني في قمة مجده ؟

ــ فعلاً ... ولكن أبي كان يردد أن راكب السلطة مثل راكب أسد ، لا يعرف متى يقع عن ظهره ويأكله ... الغريب أنني سمعت هذه الكلمة من علي الشيخ عندما قابلته في بيروت عام ١٩٦٤ . كانت حالتي النفسية تدفعني إلى تصفية كل ارتباطلي في سوريا . لقد توفي أبي ولحقت به أمي . ولم أستطع حضور وفاتهما ولا السير في جنازتيهما . كانت آخر رسالة بعث أبي بها إليّ تقول : « إن كنت تحبني لا تحضر حتى لو سمعت بأنني مت » . كل الآباء يتمنون رؤية أولادهم وهم على فراش الموت إلا نحن . لقد خشي أبي أن أجيء إلى دمشق فيصيبني مكروه . ففضل أن يموت دون أن يراني ، على أن يحمل معه إلى الآخرة قلقه .

واستجبت لرغبته ، ربما على حساب ضميري الذي ما زال يؤنبني في شكل كوابيس . المهم ، ان التردد الذي كان يقلقني بعض الوقت

في العودة إلى سوريا زال بوفاة أبي وأمي . لم يعد يربطني شيء بسوريا ، إلا بضعة مبان نجت من التأميم ، فقررت تصفيتها ... واتصلت بعلي الشيخ ...

* * *

عندما وقع الانفصال هرب كل ضباط السراج الذين لم يعتقلوا . ولما كان « علي الشيخ » يعتبر نفسه مستقلاً لا يتبع أحداً ، توجه إلى مكتبه كالعادة ، وكأن شيئاً لم يقع .

وعندما كان رجال الشرطة العسكرية يرونه وهو يداوم في مكتبه ، ظنوا أنه واحد من رجال الانقلاب .

وبعد أن استقر حكم الانفصال ، وبدأ البحث في تأمين جهاز الدولة ، وصل إلى مكتب المباحث الجنائية التابع للمخابرات ، أحد كبار الضباط برتبة « عقيد » ، فاستدعى « علي الشيخ » إلى مكتب رئيس الإدارة الذي كان اليد اليمنى للسراج ، والذي هرب ليلة الانفصال

ولاحظ العقيد الهدوء الشديد الذي يسيطر على « علي الشيخ » بعكس غيره من الموظفين في مثل هذه المواقف عادة ، فأراد أن يخرجه من هدوئه ، ففاجأه بسؤال : أين سمير أدهم ؟

وابتسم علي الشيخ وقال : أظن أنه وصل إلى القاهرة . المعلومات التي توفرت لدينا أخيراً تقول انه لم يظهر في بيروت منذ ثلاثة أيام .

— هل لا زلت على صلة به ؟

— على صلة بأخباره .

— ولمن تجمع هذه المعلومات ؟

— للجهاز الذي أعمل فيه ...

ولانت لهجة العقيد ، ثم قال له :

— وهل لديك معلومات كثيرة ؟

— من أي نوع ؟

— وهل هناك أنواع ؟

— طبعاً . هناك معلومات سياسية . ومعلومات خاصة ولكنها مرتبطة بالموقف السياسي . ثم هناك معلومات شخصية جداً .

— يعني وشايات من التي كان يروّجها السراج ضد خصومه ؟

— نحن لا نهتم كثيراً بالوشايات ولا بالاشاعات . وملفاتنا لا تضم إلا الحقائق المدعومة بالتسجيلات الصوتية ، وأحياناً بالصور .

وهنا كان العقيد قد أصبح في قبضة « علي الشيخ » . كان يدرك بحاسة رجل المخابرات السؤال الذي يشغل بال كل ضابط يشترك بالانقلاب ويخجل من الجهر به . إنه يريد أن يسأل دائماً عن ملفه الشخصي ، وعن ما وصل إلى علم المخابرات من حياته الخاصة . لذلك تركه « علي الشيخ » خمس دقائق وهو يحاول أن يجد الصيغة التي يوجه بها السؤال . فقرر علي الشيخ أن يريحه ، فقال : « التقليد المتبع هنا ، هو اعدام ملفات الرجال الذين يتولون السلطة ! » .

وخرج « علي الشيخ » من المكتب . وقد أضيفت إليه اختصاصات جديدة .

وكانت الفرصة متاحة أمامه ليصل إلى أقصى ما يتمناه ضابط مثله في ظل عهد الانفصال . الجميع كانوا بحاجة إلى خبرته . ولكنه كان يعرف ، على ضوء المعلومات التي كانت تتجمع بين يديه ، إن الرهان على الحكم هو رهان خاسر . فالصراع بين القوى المتنافرة كان على أشده . وحزب الشعب وحزب البعث وحزب أكرم الحوراني والأخوان

المسلمين ومجموعة الضباط « الشوام » وحلفاؤهم التجار الذين قاموا بحركة الانفصال أخذوا يتصارعون علناً . توحدوا ضد حكم السراج ، ولكن ما أن أصبحوا في الحكم حتى اختلفوا ، لأنهم في الأصل كانوا منقسمين . فريق انفصالي كان ضد الوحدة . وفريق وحدوي صدمه الحكم البوليسي للوحدة ، فقبل التعاون مع الانفصاليين . وكما يحدث دائماً في الصراع على الحكم في العالم العربي ، كانت القوى المختلفة لا تفكر بالتعايش بقدر ما كانت تفكر في تصفية بعضها بعضاً . وكان « علي الشيخ » يعلم أن هناك أكثر من تشكيل سري يعمل ، وان الجيش بالذات قد أصبح هدفاً لكل القوى التي تتطلع لحكم سوريا . لذلك آثر « علي الشيخ » أن يبقى بعيداً عن الأضواء ، ليراقب القوى الجديدة التي كانت تتحرك داخل الجيش ، ليعرف أكثرها حظاً ...

* * *

عندما اجتمعت بعلي الشيخ في بيروت . وسمعت منه قصة هذه الفترة من حياته ، قلت له : فرصتك في الاختيار لم تكن كبيرة ، لأن صلتك بحركة آذار كانت بحكم الروابط العائلية ...

صدقني يا سعيد ، قلت له هذا الكلام بدون قصد ، لم أكن أريد إيذاء مشاعر علي الشيخ . لقد اتصلت به في دمشق ، فاستجاب . ودعوته للحضور إلى بيروت ، فحضر . ولم يكن هدفي من الاجتماع به تصفية الأملاك التي بقيت لي بعد وفاة أبي في سوريا ، بل كنت أريد أيضاً معرفة فكرتهم عني ، هل سيطاردونني في الخارج ؟

وقال سعيد ، وهو ينفث دخان سيجارته : لماذا لا تقول انك أردت امتهان علي الشيخ ، وامتهان النظام الذي يمثله بعقد صفقة مريبة معه ؟

— ربما . وإن شئت فاني كنت أطمع في أن أكتسب « علي الشيخ » ليكون شريكاً لي في صفقات أكبر ، فأردت أن أجربه بعملية بيع أملاكنا في سوريا . ولذلك لم أكن أريد أن أجرح مشاعره . لقد وجدت نفسي منساقاً لإثارة الموضوع الطائفي الذي كنت أرفض الحديث فيه من قبل ... فما أن قلت له : ان صلته بحركة اذار كانت بدافع عائلي ، حتى قال لي : تقصد الطائفية ، ولكنك تخجل من قولها . الطائفية عندك هي أن يحكم العلويون . أما أن يحكم تجار دمشق السنة ، ويستثمروا كل الطوائف الأخرى ، فهذه ليست طائفية بل ديموقراطية !

ولم أستطع إيقاف المناقشة .

قلت : هل تنكر أن هناك طابعاً طائفياً خلف التطورات التي حدثت في سوريا منذ عهد الانفصال ، وانك راهنت على مجموعة محمد عمران لأنها علوية مثلك ؟

— نعم ، ولكن ليس بالمفهوم الذي تحاول أن تلصقه بي . لقد كنت أكثر فهماً لواقع سوريا بل لواقع العالم العربي كله . فالروابط العشائرية والطائفية هي الأقوى . لقد حكمتم سوريا ، ولكن دون أن تتصرفوا كوطنيين إلا بالاسم . هل رأيتم في العلويين إلا مصدراً للسخرة أو الخدمة ؟ وهل دخلنا الجيش إلا لأنه لم يكن يتاح لنا أي فرصة عمل آخر ؟ فلماذا لا نحاول الحكم ما دام الحكم أصبح من حق الجيوش في العالم العربي ؟

— لا داعي للانفعال . أنا لست ضد العلويين ، بل أنا ضد حكم العسكر .

ــ غير صحيح . العسكر يحكمون سوريا منذ عام ١٩٤٩ . وحكم الوحدة كان حكماً عسكرياً . وكنت تؤيده . كلكم طائفيون ، ولكنكم أجبن من أن تعلنوا هذه الحقيقة !

وهنا كان لا بد من إيقاف المناقشة ، فقلت لعلي الشيخ : لقد حجزت لك غرفة معي في فندق السان جورج ، واستدعيتك لأتحدث معك في موضوع لا علاقة له بالسياسة ...

ولم يتركني أبذل أي جهد في الالتفاف حول الموضوع ، بل طرقه مباشرة فقال : البقية في حياتك . نسيت أن أعزيك . ماذا تنوي أن تفعل بما تركه الوالد ؟

فسألته على حذر : بماذا تنصحني ؟

ــ مستقبل المباني غير مضمون ، لأن نظامنا الاشتراكي يرجح مصلحة المستأجر . وإذا كانت أعمالك في الخارج ، لن تسمح لك بالعودة قريباً ، فالأفضل أن تبيعها .

ــ وهل هذا ممكن ؟

ــ طبعاً ممكن . لم يعد أمام الناس إلا اقتناء البيوت . الأراضي والمصانع كلها مؤممة ، فأين يذهبون بأموالهم ؟

ــ وما الفرق بين المباني والمال ، إذا كان سيبقى في دمشق ؟

وابتسم علي الشيخ وقال : طبعاً ليس من السهل إخراج الأموال من

سوريا ، ولكن إذا كان الرجال قد خرجوا فليس من المستحيل إخراج الأموال ...

واتفقنا .

وقضينا ليلة رائعة في بيروت .

وآخر الليل ، أكمل لي « علي الشيخ » ما لم أعرفه عن بقية قصته ...

* * *

— كنت أعرف أن تنظيم محمد عمران هو وحده الذي سينجح ، لأنه يعتمد على قاعدة حقيقية . سمها طائفية أو عشائرية ، ولكن أليس هذا هو واقع العالم العربي ؟

— حتى ولو كان هذا هو الواقع ... هل يجوز أن نستسلم إليه ؟

— الجيل الذي كان ينتمي إليه والدك كان يفهم واقع سوريا أكثر مما يفهمه جيلك . ولذلك حكموا هم ، وتسلمتك أنا في سجن المزة . إن الحكم العسكري في سوريا سيبقى حتى أموت أنا وأنت ، لأن له جذوره في الواقع السوري ، ولأن العسكر هم الحزب المنظم الوحيد في بلدان العالم الثالث !

— دعنا من الحديث عن المستقبل . لم يعد يهمني من يحكم سوريا ، فأنا لن أعود إليها . اني كالقروي الذي اقتلع نفسه من قريته وسكن المدينة . إنه يفضل التسول في شوارع المدينة على العودة إلى القرية . أليس كذلك ؟

— محمد عمران يقول : ان المسؤول في البلدان المتقدمة ، ينتقل بين المعارضة والسلطة . أما في البلدان المتخلفة ، فهو أما في السلطة وأما في القبر ...

— أو سجن المزة ... ولكن قل لي ، كيف توصلت إلى رئاسة مركز التوجيه المعنوي ؟ ثم ما صلتك أنت بالتوجيه ؟

— وصلت كما يصل الذين يراهنون على فريق ، فيكسب . أما صلتي بالتوجيه ، فالبركة بالمثقفين أمثالك . لم تكن هناك مشكلة على الأطلاق . كان لدينا دائماً المثقف المستعد لتبرير الفعل ونقيضه . تتهمون العسكر بتضليل الجماهير . البندقية لا تضلل . أقلامكم هي صاحبة الضلالة . لم نواجه بمثقف واحد رفض . الذي قاوم كنا نعرف أنه يساوم . والذي صمد للسجن ، انهار أمام اغراء المنصب . لو أن المثقفين رفضوا معاونة العسكر ، لما استطاع حكمنا أن يدوم أكثر من اسبوع . هل تعرف لماذا لا يقوم حكم عسكري في أوروبا ؟ لأن العسكر يعرفون انه ما من مثقف واحد يرضى بخدمتهم !

* * *

كان اليخت « سوريا » قد أصبح في عرض البحر . وكان شاطئ « مونت كارلو » يبدو في الأفق كأنه لوحة ، يجعلها البعد تبدو وكأنها قطعة من خيال فنان مبدع ...

وخرج سامي وسعيد إلى ظهر اليخت يتأملان زرقة البحر ، وبياض الزبد وهو يخرج من جانبي اليخت عندما يشق الموج كما تشق السكين قطعة من الجبنة ...

واستطرد سامي قائلاً وهو يضحك :

يبدو أن « علي الشيخ » هو أيضاً كان يتعرض للكوابيس ... لقد روى لي في تلك الليلة ، أن كابوساً يضغط على أعصابه كل ليلة ... كان يرى في منامه زوجته تركض وراءه ، وفي يدها سكين ، وهو يركض أمامها في أزقة قريتهم ، والناس يتفرجون عليه !

وضحك سعيد وعلق قائلاً : هذا النوع من الأحلام لا يكبس على الرجل إلا عندما يخون زوجته ... ولكنك حدثتني كثيراً عن « علي الشيخ » ، ولم تحدثني عن خليل الأزرق ؟

٧

تقع بلدة دير العشائر داخل الحدود اللبنانية ، ولكن طريقها المعبد الوحيد يقع داخل سوريا . ولم يكن سامي الشريف ملاحقاً أو مطلوباً ، ولكنه صمم على الخروج من دمشق إلى بيروت بدون إذن . كان يخشى أن تقع أضبارته في يد المسؤول عن إعطاء إذن السفر ، لذلك فضل اجتياز الحدود بدون إذن . وطيلة الطريق ، من دمشق إلى دير العشائر ، لم يكن سامي قد تأمل رفيق طريقه ، أو حاول أن يعرف عن أمره شيئاً . كل ما قاله عنه « علي الشيخ » أنه شاب ذكي ، يمكن الاطمئنان إليه ، وهو قادر على تأمين اجتياز الحدود بسلام . ومع ذلك كان سامي خائفاً . لم يتصور مثل هذه المغامرات ، فلو أوقفته دورية من دوريات الجيش على الطريق ، فهذا يعني العودة إلى التحقيق ، والتوقيف في المخفر ، وقد ينتهي ذلك في سجن المزة ... ولكن ما أن اجتاز مع رفيقه بلدة « دير العشائر » وأصبحا داخل الأراضي اللبنانية حتى التفت سامي الشريف إلى خليل الأزرق ، وقال له : عندما نصل إلى شتورا ، يصبح

في استطاعتك أن تعود إلى الشام .

— علي بك أوصاني بأن لا أتركك إلا عندما أطمئن عليك في بيروت .

— كما تريد ، ولكني لن أبقى في بيروت طويلاً . علي الشيخ يعرف أني سأسافر إلى سويسرا .

— وأنا أعرف أيضاً ...

وفي بيروت ، اكتشف سامي الشريف أن رفيقه خليل الأزرق شاب غير عادي . من الصعب تحديد جنسيته من ملامحه ، فهو أحمر البشرة كأنه من بلاد اسكندينافيا . شعره مجعد كأنه أفريقي . وعيونه الزرق توحي بأن فيه دماً تركياً . طويل . أنيق . مجامل . لبق . محدث ، يتقن عدة لغات .

— كم لغة تتقن ؟

— اتقن الفرنسية والانكليزية . واتكلم الإيطالية وأستطيع أن أفهم الألمانية ؟

— من أية جامعة تخرجت ؟

— لا أذكر أنني ذهبت إلى مدرسة ثانوية .

— أين تعلمت ذلك كله ؟

— من الحياة . منذ أن كنت صغيراً وأنا أحلم بالخروج إلى العالم ، والعالم كما تعلم لا يتكلم العربية وحدها !

والذي أدهش سامي في خليل الأزرق ، أنه كان يعرف كل صغيرة وكبيرة في حياته . حدثه عن أبيه كأنه كان يعيش معهم . وقد عرف بعد ذلك من علي الشيخ أنه « كومبيوتر » معلومات . وأنه يهتم بجمع

تفاصيل تبدو لكثير من الناس أن لا قيمة لها على الإطلاق ، وأنها لا يمكن أن تفيد العمل السياسي أو الصفقات ... ولكن سامي الشريف تبين من أحاديثه مع خليل الأزرق ، أن طريقته في استخدام المعلومات ، واستعراضها تجعل المتحدث معه لا يكتم عنه أي سر ، لأنه يفترض فيه معرفة كل شيء ...

عند اجتماع سامي الشريف بعلي الشيخ في بيروت عام ١٩٦٤ تطرق الحديث إلى خليل الأزرق ، فقال علي الشيخ :

— هذا شاب مدهش ، طموح لدرجة مزعجة . وقد احترت في تحديد أصله . هل هو عربي أم شركسي أم كردي ؟ الحقيقة الثابتة أنه لقيط ، وأن اسمه « الأزرق » أطلق عليه بسبب لون عينيه . سنوات طفولته الأولى قضاها ما بين الملجأ واصلاحية الأحداث ... إلى أن التقطه ضابط في أحد مخافر حلب ، واستخدمه في الإرشاد عن المجرمين داخل المدينة . وقد لاكت الألسنة قصصاً مختلفة عن نوع العلاقة التي كانت بين الضابط وخليل الأزرق . وكانت علاقة مريبة بالفعل ، فالضابط كان رجلاً أعزب . وخليل كان يبيت معه في منزله ... وتطور خليل من مرشد في قضايا النشل والسرقة في حلب ، إلى مرشد في دمشق ، حيث انتقل إلى خدمة الأجهزة السياسية . وقد نجح في ارضاء السلطات ، لأنه كان أكثر دقة وفهماً من كل المخبرين . وتألق نجمه في جهاز السراج عندما أوقع بأحد أصدقائه الذي كان من سوء حظه أنه متزوج من أميركية ، فدبر له قضية تجسس انتهت بإعدامه وجنون زوجته !

* * *

لم تمض ثلاثة أشهر على اجتماعي مع « علي الشيخ » بفندق السان جورج في بيروت ، حتى فوجئت بسكرتيرتي في جنيف تقول لي

بالديكتافون : خليل الازرق يقول أن لديه موعداً معك ، وهو ينتظر في الخارج .

ودخل خليل الأزرق الى مكتبي وهو يحمل مفاجأتين : الأولى شيك مسحوب على بنك انترا في بيروت بمبلغ مليون و٢٢٠ الف ليرة لبنانية ثمن الأملاك التي تولى « علي الشيخ » بيعها لي في سوريا .والمفاجأة الثانية أن المبلغ كان يعادل قيمة المباني بأفضل سعرممكن في دمشق .

وقلت لخليل : ولكنكم لم تخصموا المصاريف .

— الصداقة عندنا أهم من المصاريف ..

وتطلعت في وجه خليل الأزرق ، فهل من المعقول أن يقول هذا الرجل مثل هذا الكلام ؟ اية صداقة يعني ؟ هل هي الصداقة التي توصل الى الاعدام ، كما فعل بصديقه الذي اتهمه بالتجسس ؟

وتذكرت ما كان يقول « علي الشيخ » عنه . انه وجه بلا أية ملامح لا تظهر على وجهه أيه تعابير . دقيق التقاطيع . يمكن وصفه بالجمال ، ولكنه كتمثال منحوت . لا ينفعل . ويستطيع أن يحدق في عينيك عشر دقائق ، دون أن يرف له جفن . ولولا انني كنت أعرف ماضي خليل ، لما طالعتني صورته الا بصورة استاذ جامعي شديد التهذيب . فليس في حديثه لفظة واحدة سوقية ، وتتخلل كلماته الفاظ بالانكليزية والفرنسية لا تأتي للاستعراض كما هي العادة عند اشباه المثقفين ، بل لانه فعلا لا توجد لفظة بديلة لها بالعربية ...

وقاطعه سعيد الطرابلسي قائلاً : ارى انك معجب بخليل الأزرق رغم محاولتك الطعن به .

— فعلا انا معجب به ، ولكني لم أكن اشعر بأية ثقة فيه . لقد

استطاع أن يهاجر من واقع تعس ولد فيه ، ليعيش بعد ذلك على القمة ، بل وليذل كل الذين ركلوه بالاحذية في صباه . كل فضائحهم كانت عنده . كل صفقاتهم واختلاساتهم كانت تمر بين يديه . ما الذي يفكر فيه ؟ وأية جهة يخدم ؟ وهل يريد الثروة أم القوة التي تخلقها الثروة ؟ كل هذه الأسئلة لم يستطع أحد من كل الذين عرفوه أن يجاوب عليها ... لذلك رحت أتأمل وجهه وانا أفكر في عبارته « الصداقة عندنا أهم » .

ترى ، ما الذي يقصده ؟ وأي ثمن فادح يدخره لي ... ولكي أقطع الطريق عليه ، قلت :

— أنا أعتز بصداقة علي الشيخ ...ولكن العمل شيء والصداقة شيء آخر .

— الصداقة ايضا هي نوع من الاستثمار !

— على اية حال ... أرجو أن تبلغ المقدم ...

وقاطعني قائلاً

— المقدم أصبح عقيداً .

— عظيم . بلغه تهنئتي . وقل له انني سأضع باسمه في بنك انترا في بيروت ٣٥ في المائة من قيمة هذا الشيك .

وحدق خليل الأزرق في عيني ، وقال : هذه نسبة عالية يا بيك ... على العموم آمل أن نلتقي كثيراً ...

ولم نلتق ثانية الا في أوائل عام ١٩٦٧ .

كان صلاح جديد قد قام بحركته التصحيحية (كل الانقلابات التي قامت بعد ذلك اطلقت على نفسها اسم الحركة التصحيحية) . وكان

« علي الشيخ » الذي كان محسوبا من جماعة « محمد عمران » قد أحيل إلى الاستيداع بناء لطلبه . وقد أراد أن يمتحن ثقة الحكم الجديد في نواياه نحوه ، فطلب أن يعين ملحقاً عسكرياً في أية سفارة في الخارج . ولكن طلبه « نام » في الادراج ، وأدرك « علي الشيخ » أن أيام تألقه في السلطة قد انتهت ، وأن عليه أن يبحث عن طريق آخر .

وجئت انا الى بيروت في فبراير (شباط) ١٩٦٧ ، لانهي المشاكل التي تركها افلاس بنك انترا ، والتي أصابت بعض شركائي العرب . وأتصل بي « علي الشيخ » في فندق فينيسيا ، وقال لي : أريد رؤيتك لامر هام ومستعجل !

وانتظرته على العشاء ، وجاء ومعه خليل الأزرق . وسألني :

— متى ستعود الى سويسرا ؟

— خلال بضعة أيام ... هل هناك خدمة يمكنني أن أقدمها اليك ؟

— سلمى ... ابنتي سلمى . لقد سجلنا اسمها في مدرسة « مون شوازي » بلوزان وقد أتممنا كل شيء ، وكنا على وشك أن نرسلها هذا الأسبوع ، فلما عرفت انك هنا جئت أرجوك بان تشرف على شؤونها هناك وتصطحبها معك عندما تعود الى جنيف .

وكنت مهتماً بمعرفة أوضاعه في سوريا بعد التطورات الأخيرة ، فطمأنني الى ان رأسه قد نجا ، وان كان نفوذه قد تقلص .

وفهمت ليلتها أن خليل الازرق نقل نشاطه الى اوروبا ، ولم يكن من السهل معرفة نوع هذا النشاط ، وان كنت قد فهمت بعد ذلك انه تجارة السلاح » .

وعندما سافرت من بيروت ، كانت سلمى معي في الطائرة .

وكانت أنثى رائعة رغم انها لم تكن قد جاوزت السادسة عشرة من عمرها . بل لعلها رائعة لأنها في السادسة عشرة . أنها جذابة ومثيرة . وكنت قد سمعت من بعض الأصدقاء السوريين قصة سلمى . لقد نقلها والدها من دمشق الى بيروت بعد أن أصبحت حياة « علي الشيخ » العائلية حديث أهل الشام . كان بحكم مركزه في التوجيه والمخابرات في عهد محمد عمران وأمين الحافظ ، يستأجر عدة شقق مفروشة في أفخم الأحياء . وبحكم مركزه ، كان يتعرف على النساء . منذ صغره كـان واحداً من ملايين المحرومين جنسياً . وهكذا أصبح بيته في « حي أبو رمانة » مجرد شقة يتردد عليها بضع ساعات في اليوم ، وأحياناً بضع ساعات في الأسبوع . . . مع فارق هام ، هو أنه لم يعد يمارس في بيته ما كان يمارسه في الشقق المفروشة الفخمة الأخرى . وتحولت زوجته الى مجرد مديرة ترعى شؤون أولاده !

ودب الخلاف بين « علي » وزوجته . وقيل انها هجرت المنزل وسافرت الى بيت أبيها في اللاذقية ، فأرسل « علي » ابنتيه « سلمى » و « فاطمة » الى الكلية الأميركية في بيروت . . . ولكن سلمى لم تلبث أن فصلت من الكلية بعد خمسة أشهر . ورحل أحد الأساتذة الاميركيين بسببها . وقيل أن علاقة غرامية قامت بين سلمى واستاذها الأميركي . وأصبح من المستحيل بعد ترحيله أن تستمر سلمى بين الطالبات ، ولا سيما بعد أن نشرت احدى الصحف القصة مع صورهما . وخشي « علي الشيخ » أن تعود ومعها القصة الى دمشق ، فألحقها في مدرسة داخلية في لوزان أسمها « مون شوازي » .

وكانت الفضيحة التي تغادر بيروت بسببها تعطيني مدخلاً مناسباً لأي حديث أرغب في توجيهه ، أو حتى مغامرة عابرة . . . إلا أنني لم أفعل . ويبدو انها كانت تتوقع ذلك . فكما أخبرتني بعد سنوات ،

ما من رجل رآها الا اشتهاها . وما من رجل قدم لها خدمة الا وطلب منها الثمن . وقد حاولت في الطائرة أن توحي لي بشيء ما ، فاختارت كأساً من الشمبانيا ، عندما جاءت المضيفة تحمل صينية الشراب ، وتقدم منها للمسافرين . ولما حاولت أن أنبهها الى الخطأ الذي قد تكون وقعت فيه ، فاختارت كأساً من الشمبانيا بدلا من عصير البرتقال ، ضحكت قائلة : أعرف أنها شمبانيا .

واستطردت : « هل تخاف أن أسكر يا أونكل ؟ » .

وضحكت . لقد خرجت كلمة « أونكل » من بين شفتيها بعيدة كل البعد عن الاحترام الواجب لمثل هذا اللقب . . ثم واصلت هجومها بلكعة بصدرها في كتفي لتجعلني أشعر بصلابة ثدييها . وتكررت المحاولة في حركات يديها وهي تمسك بيدي وأنا أشعل لها السيجارة . . . وأخيراً التفتت اليّ . وكل الخبث في عينيها قائلة : هل تحتاج الى حبة اسبرين لتنام يا أونكل ؟

وهنا قاطعه سعيد الطرابلسي متسائلاً : ولماذا كل هذه العفة ؟

— لا أدري . ربما تملكني شعور بأنني أخون علاقة انسانية . لقد وثق بي علي الشيخ وسلمني ابنته . وربما لأنني أردت أن أثبت لعلي الشيخ أو لابنته سلمى أو لنفسي أن طبقتي ليست فاسدة كما يتهمها !

وضحك سامي الشريف وقال : في بعض الأحيان ، تنتاب الانسان نوبة من العفة لا يجد لها تفسيراً عقلياً مقنعاً . وقد يندم على ذلك فيما بعد ، ولكن هذا لا يمنع حدوثها . . . وقد شعرت بالندم بعد حوالي سنتين . كان ذلك في فندق « البرنس دي غال » بباريس .

* * *

رن جرس التليفون في شقة سامي الشريف في جنيف . ورد الشريط

المسجل : « لا أحد هنا . مسيو شريف موجود في « شامونيكس » .

وأغلق « علي الشيخ » التليفون ، ليعود فيجرب الاتصال بصديقه سامي في « شامونيكس » .

وجاء صوت سامي مسترخياً : نعم .

ــ هنا باريس . أوتيل امباسدور . مكالمة لكم من مسيو علي الشيخ .

وقال علي الشيخ : أريدك فوراً في باريس . عندي صفقة هامة ومستعجلة !

ــ ألا تحتمل التأجيل ؟ أنا في أجازة !

ــ ستتمتع باجازتك في باريس . لا أعتقد أنها مكان سيء لقضاء يومين !

ــ سأحضر غداً . وأنا أنزل عادة في فندق « كريون » .

ــ اذن نلتقي التاسعة مساء في بار « البرنس دي غال » .

* * *

فتح باب المصعد في فندق « برنس دي غال » بباريس . وبدت الدهشة على وجه « علي الشيخ » الذي كان يجلس في البار بمواجهة المصعد . وبحركة لا شعورية أدرت وجهي بحثاً عن سبب الدهشة التي ارتسمت على وجه « علي الشيخ » فرأيت سيدة في نحو الثلاثين من عمرها . أنيقة حلوة . سرعان ما تقدمت منا وعلى شفتيها ابتسامة حائرة ، وقالت لعلي الشيخ وكأنها تقدم تفسيراً : لقد تلفن لي خليل الأزرق مساء أمس ، فحضرت من فرانكفورت لأنه قال أن هناك أمراً هاماً يتعلق بصفقة آلات الكهرباء !

وبلع علي الشيخ ريقه وسأل : هل ينزل خليل الأزرق هنا ؟ لم أكن أعرف .

وبتشف قالت السيدة : نعم ، انه في الجناح رقم ٩ ومعه ابنتك سلمى !

وبهمسة كأنه يحدث نفسه : سلمى هنا أيضاً ؟

وحاول أن يتغلب على انفعالاته ، فقدم السيدة اليَّ : الفرولين ريتا . . . سكرتيرتي !

ولم تكد « الفرولين ريتا » تجلس معنا ، ونطلب لها كأساً من الويسكي ، حتى أطلت نفس النظرة في عيني علي الشيخ عندما رأى سكرتيرته تخرج من المصعد . فالتفت حولي لا شعورياً ، وأدركت على الفور ، ان تلك الأنثى التي تقف الآن عند باب المصعد ، هي نفس المراهقة التي جاءت معي من بيروت قبل سنتين . وعندما تقدمت « سلمى » الينا ، كان وراءها خليل الأزرق . وقبل أن يفتح علي الشيخ فمه ، كانت سلمى تحيينا بكل بساطة . لم تقدم أي تفسير لوجودها في جناح خليل الأزرق ، بل ركزت اهتمامها فيّ . . . فمدت يدها اليّ وهي تقول باللهجة السورية : أهلين سامي .

وانتبهت الى رفعها التكليف . والى أنها لم تستعمل عبارة « أونكل » التي استخدمتها قبل سنتين .

وكان خليل الأزرق يتحدث همساً مع علي الشيخ ، وكأن شيئاً لم يكن . . . لا « الفرولين ريتا » كانت عنده . ولا سلمى نزلت معه .

وأدركت حرج موقف علي الشيخ . فاقترحت أن نتناول العشاء معاً . فاعتذرت سلمى وقالت : لقد اتفقت مع خليل على العشاء .

وخيل اليّ انها غمزت وهي تقول : سنلتقي مرة أخرى ، وسنتعشى في مناسبة ثانية .

وانصرفت سلمى وهي تتأبط ذراع خليل . وبقيت أنا وعلي الشيخ والفرولين ريتا في البار .

وأحببت أن أخفف عن علي ، فنقلت الحديث الى الصفقة التي طلبني من أجلها ، فأنا أعلم بحكم التجربة ، ان حديث الصفقات هو المخدر الوحيد الذي ينسي علي الشيخ همومه .

ولمعت عينا « علي » فوراً ، وعادت الكلمات تتدفق من بين شفتيه ، وقال : هذه المرة ليست هناك صفقة . الصفقة تمت والحمدلله . وحصلنا على عمولة خرافية لم أحلم بمثلها في حياتي . وقد فكرت فيك لتستثمر لي جزءاً منها .

— كم ؟

والتفت علي الشيخ الى سكرتيرته ، وقال لها :

— هذا هو صديقي سامي الذي طالما حدثتك عنه . . . أخبريه كم هو المبلغ الذي خصصناه للاستثمار ؟

— ٣ ملايين دولار !

* * *

الصدفة . الحظ . المكتوب . سمه ما شئت . الشائع أن لكل انسان فرصة ، اذا انتهزها وعرف كيف يتصرف بها ، فاز وكسب وانتقل من حال الى حال . أما إذا كان لاهياً عنها ، ولم يحسن الاستفادة منها ، فسوف ينطبق عليه المثل « تكون في يده ، وتقسم لغيره » . وقد كانت الفرصة تنتظر خليل الأزرق في مقهى « موفامبيك » بجنيف . كان ذلك عام ١٩٦٤ ... فبعد أن غادر مكتب سامي الشريف وتسلم منه الشيك ، راح يمشي على قدميه يتأمل واجهات المحال حتى وصل الى مقهى « موفامبيك » ، وهناك هجم عليه رجل في الخمسين من عمره وفتح

يديه وهو يقول : انها مفاجأة حقاً .

ويقول خليل الأزرق أن الرجل ، أو الفرصة ، هو كولونيل فرنسي أسمه « جيرار » وكان قد تعرف اليه في دمشق وقدم له بعض التسهيلات التي اعتبرها الكولونيل خدمة لا تنسى .

وسأله الكولونيل : ماذا تعمل في سويسرا ؟

— وسعنا أعمالنا ، نحن نشتغل الآن في الاستثمارات المالية !

وسكت الكولونيل لحظة ثم قال : عندي لك شغلة مهمة جداً . اذا نجحت فيها ، فسوف تصبح واحداً من كبار أصحاب الملايين في أوروبا . . .

— وما رأيك أنت ؟ هل تعتقد إنني أنجح ؟

— لو لم أكن واثقاً من ذلك لما عرضت عليك . لقد فكرت بك أكثر من مرة . وطالما تساءلت « كيف يمكنني الاتصال معك ؟ » وها أنا أراك أمامي بالصدفة .

— عندنا مثل يقول « الصدفة خير من الف ميعاد » !

— فعلا . . . اسمع يا خليل . لي صديق كان معي في الجيش أسمه « الكولونيل فيليب » وهو يشغل الآن منصب مدير مؤسسة « سوفما » . . . هل سمعت بها ؟

— هذه أول مرة أسمع بالاسم .

— انها المؤسسة التي تتولى عقد صفقات السلاح الفرنسي مع الدول الخارجية . . . وأنت تعلم أن أسواق السلاح في العالم العربي مقسمة على بريطانيا وأميركا والاتحاد السوفياتي . مصر وسوريا والعراق والجزائر للاتحاد السوفياتي . ايران والسعودية والأردن ولبنان للولايات المتحدة . وامارات الخليج تتسلح من بريطانيا . وكانت فرنسا مستبعدة من هذه

الأسواق ، بالاضافة الى أن ليس هناك أي حاكم عربي كان على استعداد لشراء مسدس من فرنسا بسبب مشكلة الجزائر . وقد توصل الجنرال ديغول الآن الى حل هذه المشكلة ، ومع ذلك فلم تجد الحكومة الفرنسية حتى الآن أي منفذ في العالم العربي لتبيعه السلاح . . . فما رأيك اذا أخذت وكالة « سوفما » للبلاد العربية ؟

— ليس المهم أن أصبح وكيلاً لبيع السلاح الفرنسي ، بل المهم أن يقبل أحد من العرب شراء هذا السلاح . . . أنتم تبيعون السلاح لاسرائيل ، ومعلوماتي أن ثمن السلاح الفرنسي يبلغ أضعاف ثمن السلاح الروسي !

— هذا صحيح . . . ولكن من الذي يستطيع أن يضمن المستقبل ؟ قد تتغير سياسة فرنسا تجاه اسرائيل في أي وقت . ان الجنرال ديغول لا يخفي عداءه للسياسة الأميركية ، واسرائيل هي الولاية الأميركية الخمسون كما يقولون . . . وعليك أن لا تفاجأ أبداً اذا انقلب ديغول على اسرائيل .

— المستقبل مجهول . . . هل تريدني أن اتعلق بالمجهول ؟

— لن تخسر شيئاً . . . سوف تدفع لك مؤسسة « سوفما » كل النفقات التي تحتاجها الى أن تنجح في عقد صفقة . . . وإذا لم توفق فالمؤسسة هي التي ستخسر . لا أنت !

واتفق الرجلان على اللقاء في باريس .

* * *

وتم كل شيء في باريس .

وقبل أن توقع الاتفاقية ، قال الكولونيل « فيليب » مدير مؤسسة « سوفما » : اسمع يا خليل . لقد أعجبت بك ، فأنت رجل نبيه وذكي ،

وأحب لك أن تنجح في هذا العمل . لذلك أنصحك بأن تدخل في الوكالة شخصاً أعرفه جيداً ، هو الوحيد الذي يستطيع أن يسهل لك كل أمورك ، وبدونه لن تتمكن من عمل شيء في أوروبا ، بل وحتى في البلاد العربية » .

— هل أعرفه ؟

— لا أظن . الذين يعرفون أسرار عمله يعدون على أصابع اليد الواحدة . انه ملياردير يعيش في قصره بضواحي « نيس » . فرنسي من أصل أرمني واسمه « أندريه توماسيان » . أذهب اليه ، واتفق معه .

— كيف أذهب اليه وأنا لا أعرفه ؟

— أنا أتولى هذه المهمة . .

* * *

يقول خليل الأزرق ، إنه عندما وصل الى قصر « أندريه توماسيان » في ضواحي « نيس » ، وراح يجتاز الحديقة ، طالعه « بيسين » كالذي تعود أن يراه في أفلام السينما . وكان حول « البيسين » مجموعة من الرجال والحسان يستلقون فوق مقاعد طويلة ، يستمتعون بأشعة الشمس . . . وقال بينه وبين نفسه ، عندما كان الخادم يقوده الى مكتب « مسيو توماسيان » : اذا كان سيصبح شريكي ، فمن المؤكد اني سأصبح مثله !

كان « أندريه توماسيان » في الخمسين من عمره . وكما حدث مع الكولونيل « فيليب » مدير « سوفما » حدث مع « توماسيان » ، فقد استطاع خليل الأزرق أن يحوز على اعجابه بسرعة . فهو يعامل الناس الذين يريد التقرب اليهم ، بألفة محببة وكأنهم اصدقاؤه منذ الطفولة . ويخيل الى سامعه أنه رقيق لدرجة أنه قد يصاب بانهيار عصبي اذا وخزه محدثه بدبوس .

وقال له « توماسيان » : « إذا أحسنت التصرف في هذا الميدان الجديد الذي فتح أمامك ، فسوف تتدفق عليك الملايين » .

— لنترك الأحلام جانباً ، ونتحدث في الموضوع .

— تعجبني واقعيتك . . . ولكن قل لي كم اتفقت مع « سوفما » على العمولة ؟

— سبعة في المائة !

وقفز « توماسيان » من مقعده ، وقال : هل يريد الكولونيل فيليب أن تفشل في عملك ؟ ان السوق العربي مقفل . والفرنسيون يتلهفون على دخوله . كيف تقبل بهذه النسبة الضئيلة من العمولة ؟ بل كيف يتشاطر عليك الكولونيل الى هذا الحد ؟ . . . عد الى باريس ، وقل له نريد ثلاثين في المائة . لا شيء يمشي في العالم العربي بدون « فازلين » علينا أن نخصص عشرين في المائة رشوات ومصاريف ، والعشرة في المائة الباقية ستكون لنا !

ولم يعرف خليل كيف يتصرف . صحيح أنه اتفق على عمولة قدرها سبعة في المائة ، ولكن على شرط أن تكون هذه النسبة خالية من المصروفات .

واستطرد توماسيان يقول : لا أعتقد أن في استطاعتك اجراء أي صفقة قبل سنتين أو ثلاث . وأعتقد أن السوق الذي يجب أن تتوجه اليه هو الخليج . إنه بحاجة الى دبابات . ولكنك تعرف كم تستغرق الاجراءات في دول الخليج . فاذا نجحت في اقناع المسؤولين بشراء دبابات فرنسية ، فهذا وحده سيحتاج الى كذا سنة . . . فمن أين تنفق خلال هذه المدة ؟ ومن هي الجهة التي ستسلفك وتؤمن لك مصروفاتك ؟

وحاول خليل الأزرق أن يتذاكى على « توماسيان » فقال له : كل

ما تقوله صحيح . . . ولكني أعتقد أنك مبالغ في تقدير الزمن الذي تحتاجه الصفقة . ثم ان لي جهازاً ضخماً يعمل في العالم العربي قادراً على تسهيل كل الأمور .

وضحك توماسيان وقال : جهاز ؟ أنت تملك جهازاً ضخماً في العالم العربي ؟ هل تعتقد إني لا أعرف من أنت ؟

وضغط باصبعه على جرس أمامه فوق المكتب ، فدخلت فتاة طويلة حلوة ، قال لها « توماسيان » : لو سمحت ، أعطيني ملف خليل الأزرق !

وغابت الفتاة عدة دقائق ، ثم عادت تحمل ملفاً وضعته على المكتب . وفتح « توماسيان » الملف . كان يحتوي على ثلاث ورقات « فولسكاب » فيها تاريخ حياة خليل الأزرق من يوم ولادته حتى الساعة التي وصل فيها بالطائرة الى نيس .

وقال « توماسيان » : اذا كنت فعلاً تريد أن نعمل معاً بنجاح ، اياك أن تتذاكى معي .

— من أين أتيت بهذه المعلومات ؟

— هذا ليس من شأنك . . . نحن نعرف كيف نشتغل !

هنا شعر خليل الأزرق أنه أمام رجل غير عادي ، وأدرك أن عليه أن يعترف بأن « توماسيان » هو الرئيس .

وقال « توماسيان » : أهم شيء في علاقتنا ، أن تعمل وكأنك مستقل تماماً . لا علاقة لي بعملك ، ولا علاقة لك بي اطلاقاً . أنت الواجهة .

ثم فتح درج مكتبه وأعطاه خمسين الف دولار ، وقال له : بعد

الآن ، عليك أن تنزل في أشهر فنادق باريس . واحجز دائماً جناحاً تستقبل فيه من تريد من الناس . المظاهر مهمة جداً . وعليك أن تنفق بسخاء !

* * *

وقام سامي الشريف من مكانه فوق ظهر اليخت « سوريا » حيث كان يروي لصديقه سعيد الطرابلسي ما يعرفه عن أبطال جريمة « الترافي موندي » ، وقال — وهو يشير الى قبطان اليخت بالعودة الى المرفأ — :

— هل تعرف من هي السكرتيرة التي أتت بملف خليل الأزرق الى « أندريه توماسيان » ؟

— من أين لي أن أعرف ؟

— انها « الفرولين ريتا » التي اتخذها « علي الشيخ » بعد ذلك سكرتيرة له وعشيقة ، والتي كانت في نفس الوقت عشيقة خليل الأزرق ، والتي يقول « الهر جيرهارد » محامي علي الشيخ أن خليل الأزرق قد اتصل بها تلفونياً عدةمرات في فندق « شارلوت » قبل مقتلـــه !

٨

وبدأ اليخت « سوريا » رحلة العودة .

استأذن سامي الشريف للحظات يقضيها في « كابينته » ، وبقي سعيد الطرابلسي عند مقدمة اليخت ، الى جانب القبطان يرقب البحر .

كان الوقت يقترب من الظهيرة . ولولا الشريط البعيد للشاطىء الذي كان يرتسم عند الأفق ، لخيل لسعيد أن العالم كله قد تحول الى بحر كبير ، تتناثر عليه أشعة الشمس لتحول مياهه الى قطع من الألماس .

وتنبه سعيد الى التشبيه الذي أوحت به حالة الثراء الفاحش التي يغرق فيها صاحب اليخت . لقد أخبره سامي أن تجديد أثاث اليخت ، وتزويده بأحدث الآلات ، قد تكلفا وحدهما حوالي مليون دولار . وقفز به الخاطر الى بيروت . مليون دولار ؟ يعني ثلاث بنايات على « الروشة » أنفقها سامي على صالونات من الجلد الفاخر ، والسجاد

الأصفهاني ، و « الباركيه » من الخشب الفنلندي الذي قال سامي انه يفوق عمر شجر الأرز اللبناني .

مليون دولار لتجديد يخت ؟ كم يساوي اليخت كله ؟ وكم تبلغ ثروة صاحبه ؟ وهل يمكن أن يجمع انسان ، وعربي بالذات ، كل هذه الثروة ، وهو مجرد مهاجر هارب من بلده لا يملك الا كفاءته ؟ وهل الغربة هي التي تفجر الكفاءات ؟

معظم المهاجرين ناجحون ، وكلهم هربوا من الفشل في بلادهم .

فقراء الجنوب في لبنان سيطروا على الحياة المالية في إفريقيا عندما هاجروا .

كذلك حدث للاجئي الأرمن ، فعندما هاجروا من أزقة تركيا ، تحولوا الى أصحاب ملايين في ديار الاغتراب . . .

ولكن هل يمكن أن يحقق انسان كل هذه الثروة من صفقات شريفة ؟ وكم تبلغ أرباح الذين يعمل لحسابهم سامي الشريف ؟ انه يؤكد أنه لا يأخذ أكثر من عشرة في المائة من أرباح عملائه .

وعاد يتأمل الشمس والبحر . . . كل شيء جميل هنا ، مصقول ، لامع ، حتى زرقة البحر غير عادية . والأمواج التي كانت تتكسر على جانبي اليخت كانت تبعث الخدر في أعصابه ، وتوقظ ذلك الحنين الذي يعيش في أعماق كل انسان نحو البحر . هل صحيح اننا جئنا من البحر ؟

وتذكر قصة « العجوز والبحر » لآرنست همينغواي . . . يبدو أن في كل انسان قطعة من ذلك العجوز .

ورده صوت سامي الشريف ، وهو يتحدث مع « ماريو » في

الطابق الأسفل ، الى عالم الواقع . . . ما الذي جاء به في هذا الوقت بالذات الى « نيس » ومنها الى « مونت كارلو » ، ليقابل كل هؤلاء الناس الهاربين من العالم العربي ، ولكنهم لا يزالون يعيشون فيه وفي أحداثه رغم محاولاتهم الهروب منه . . . تسع سنوات لم يقابل سامي الشريف . وها هو يلتقي به صدفة وهو خارج من الكازينو . فاذا بشريط الذكريات يدور من جديد ، وكأن الزمن قد أعطى نفسه موعداً بعد تسع سنوات ، ليكمل قصة مجموعة من الناس ، يمثلون نماذج من جيله ، اختلفت نظرته اليهم مع اختلاف نظرته الى نفسه وأفكاره . . . فعندما التقى بسامي الشريف عام ١٩٦٣ في جنيف ، كان ينظر اليه كمجرد نفاية بورجوازية لفظتها حركة الثورة في بلده . كان يبدو له مجرد فرد حاقد ، لأن السلطة أممت مصانع أبيه ، فكفر بكل شيء ، محاولاً أن يغطي حقده بروايات عن تعذيب تعرض له في السجن ، ويتعرض لمثله أي معتقل في أي بلد في العالم . . . أما اليوم ، وبعد تسع سنوات ، فيبدو وكأن سامي الشريف هو الذي انتصر . نجح كفرد ، وكعربي يعتز بنجاحه كل الذين يعيشون في جنيف ، بينما هزمت التجربة التي رفضها ورفضته . هزمت هزيمة كاملة . فلا الثورة عمَّرت سوريا ، ولا حتى حافظت على تراب الوطن . هزمت داخل المصانع التي أممتها كما هزمت في الجولان . . . أفلست التجربة ، بينما أصبح سامي الشريف مليونيراً . . .

ولكن هل صحيح أن سامي الشريف قد نجح ؟

كل هذا الثراء ، وهذه الحياة المترفة . . . هل هي مظهر نجاح أم محاولة للهروب ؟

وتذكر سعيد أن سامي لم يكن يتكلم عن التجربة هذه المرة ،

بنفس الحدة التي كان يتكلم بها في الماضي . إنه يلتمس لها بعض الأعذار ، بينما كان هو — سعيد — أكثر انتقاداً لكل ما حدث قبل الهزيمة وبعدها .

يقولون ان أقوى من الحقد هو فعالية النسيان . والفضيلة بعد كل ذلك هي قضية مرور زمن . . . فما الذي يجعل سامي الشريف يعيش مع ذكريات علي الشيخ ، ويهتم به ، ويحرص على حياته ، ويستأجر له أشهر المحامين لينقذه من السجن ، وهو الذي وضعه في السجن ؟

وارتفع صوت سامي الشريف من خلفه يقول : بماذا تفكر ؟

— أفكر في « ريتا » . . . كيف انتقلت من سكرتيرة عند « توماسيان » الى عشيقة لخليل الأزرق ؟ وكيف استطاعت أن تحتفظ بعلاقتها مع خليل الأزرق وهي سكرتيرة وعشيقة لعلي الشيخ ؟ لمن كان ولاؤها الحقيقي ؟

— العالم هنا معقد . وفي تجارة السلاح بالذات يصل التعقيد الى ذروته . من الصعب أن تفرق بين العميل والتاجر والجاسوس . والنساء في تجارة السلاح لهن أكثر من دور . « ريتا » تستطيع أن تحب خليل الأزرق ، ولا تفكر لحظة في خيانته كامرأة .

— ولكنها كانت تخونه مع علي الشيخ ، أو تخون علي الشيخ مع خليل الأزرق .

— إذا كانت تنام مع علي الشيخ فهذا لا يعني انها تحبه . وأغلب الظن أنها كانت تمثل دور العشيقة لعلي الشيخ بالاتفاق مع خليل الأزرق . ان « ريتا » من النوع الذي لا يتردد في عمل أي شيء في سبيل انجاح العمل الذي يقوم به . كانت تتجسس على خليل الأزرق لحساب « توماسيان » ، وكانت تتجسس على « علي الشيخ » لحساب خليل

الأزرق . وعلى هذا الصعيد ، فهي لا تتردد في اعطاء كل الأسرار لكل جهة تعمل معها . فلكل شيء ثمن . واذا كان خليل الأزرق شخصية غامضة ، فان « ريتا » أكثر غموضاً . وأنا أستطيع أن أجزم أنها كانت تحبه كامرأة ، كل النساء اللائي تعرفن الى سرير خليل الأزرق وقعن في حبه . كلهن بدون استثناء .

— يعني « جيكولو » ؟

— أخطر . الجيكولو يعيش على حساب النساء ، أما خليل الأزرق فهو كريم جداً مع النساء .

— هل تصدق يا سامي ؟ لقد استهوتني هذه القصة . أصبحت مثلك أعيش في حياة أبطالها . وأتمنى لو تتاح لي الفرصة حتى أحضر التحقيق ، إذا لم يؤخرني ذلك عن العودة الى بيروت . . .

— لم يمض عليك معنا أكثر من يوم وليلة ، وقد وعدتني بأنك ستبقى أسبوعين أو ثلاثة . . . وأغلب الظن أن جلسة التحقيق ستحدد خلال الأسبوع القادم . . .

— أرجو ذلك . إن شخصية خليل الأزرق مثيرة . وكذلك شخصية « ريتا » .

— شخصان يمكنهما تزويدك بأكبر قدر من المعلومات عن شخصية خليل الأزرق ومغامراته العاطفية : سلمى ابنة علي الشيخ . ولكن لا أظنها ستقول لك كثيراً ، وان قالت فليس إلا الجانب الحسن من شخصيته لأنها تحبه ، بل هي مقتنعة بأن « ريتا » هي التي قتلته أو دبرت عملية قتله .

— ومن هو الشخص الآخر ؟

— « باتريشيا دي لابيانكا » التي حدثتك عنها . هي الأخرى تعتقد أن يوسف بيباوي وزوجته كلير ليسا هما اللذان قتلا فاروق

الشربجي . صحيح أن « كلير » هي التي القت على وجهه ماء النار أو الكبريت ، ولكن خليل الأزرق هو الذي أطلق الرصاص على فاروق .

ــ الذي أذكره ، أن التحقيق الذي أجراه البوليس الإيطالي حول مقتل فاروق الشربجي لم يأت على ذكر خليل الأزرق اطلاقاً .

ــ هذا صحيح . تقول « باتريشيا » ان خليل كان محمياً من « المافيا » وعندما تكون حماية « المافيا » تظلل أحد المتهمين ، فليس هناك من يجرؤ على ذكر اسمه . . . على العموم ، ستلتقي بباتريشيا اليوم أو غداً . انها سيدة فاتنة وجميلة وثرثارة لا تخفي شيئاً . وقد اعترفت لي بانها كانت تحب فاروق الشربجي ولكنها كانت تعبد خليل الأزرق . وقد وصفت خليل الأزرق بأنه طراز نادر من الرجال . أو كما تسميه هي « نوع منقرض من الرجال » . انه محترف حب . ما ان يقفل باب الغرفة عليه مع امرأة حتى يتحول الى « سوبرمان » . أنه يعتبر المرأة فريسة لا تؤخذ الا اغتصاباً ، مع أنها هي التي تكون قد سعت اليه . وعندما يبدأ الاغتصاب لا يتوقف الا بعد أن تكون النشوة قد حولت المرأة الى عبدة مسلوبة الارادة . . .

وضحك سامي وهو يقول : اعترفت لي باتريشيا انها بعد أن نامت معه أول مرة ، تهاوت على قدميه وأصرت على تقبيل حذائه قبل أن ينصرف . وقالت لي : لقد شعرت معه لأول مرة بسعادة غامرة ، وشكرت الله لأنه خلقني امرأة !

وضرب سعيد كفاً بكف ثم قال : لو لم أسمع هذه التفاصيل منك ، لما صدقتها . في الحياة شخصيات يعجز خيال أي مؤلف عن خلق مثيل لها في قصصه .

ثم استطرد بعد لحظات : ولكن هناك جوانب ناقصة في هذه القصة . . .

— مثلا ؟

— كيف استطاع علي الشيخ أن يدخل عالم تجارة السلاح ؟ بل كيف استطاع أن يخرج من سوريا ؟

* * *

في حياة خليل الأزرق مراحل غامضة يصعب معرفة تفاصيلها ، فالرجل كتوم ، يحرص على ابقاء أسراره لنفسه . وعندما يضطر للاعتراف بشيء ، فهو قلما يروي الحقيقة . انه يكذب ، ولا يهتم اذا اكتشفت أنه يكذب . وهناك ظاهرة لا يعرفها إلا الذين التصقوا به ، مثل علي الشيخ . كان يروي عنه أنه يأكل بشراهة ويشرب الخمر بشراهة إذا كان وحيداً . . . أما عندما يكون بين الناس فهو استاذ في الاتيكيت ، وغالباً ما يعتذر عن تناول الطعام مدعياً أنه يتبع رجيماً قاسياً . وفي ملفات الانتربول أكثر من عشرين تهمة لخليل الأزرق ، ولكن ما من جهة قضائية استطاعت أن تجمع من الأدلة ما يكفي حتى لتوجيه الاتهام اليه ، فضلاً عن اثباته . وقد حاول خليل الأزرق أن ينفرد بالعمل في تجارة السلاح ، فبقي طوال سنتين يحاول ، الى أن أصيب باليأس ، ففكر بصديقه علي الشيخ . . .

وسأل سعيد : ولكن علي الشيخ كان في ذلك الوقت في أوج قوته ؟

— وهذا الذي سهل نجاح أول عملية قاما بها . كان علي الشيخ أحد الأشخاص القلائل الذين يحكمون سوريا . كانت لديه كل المعلومات عن أحوال المنطقة ، وكان يحتفظ بارشيف خاص عن كل الضباط السوريين الذين خرجوا من الجيش وأصبحوا مستشارين وخبراء

في دول النفط ، كما كان يحتفظ بملفات لعدد كبير من المسؤولين العرب . بالاضافة الى أنه ضابط ويفهم في أنواع الأسلحة ويعرف أسعارها . وهذه هي المؤهلات الأولى في تجارة السلاح . الاتصالات . المعلومات . المعرفة الدقيقة للشخصيات التي تملك أن تقرر الشراء . . . ثم موهبة خليل الأزرق في افساد أي ذمة . إن له منطقاً قد لا تقبله ، ولكنك لا تستطيع مناقشته . . . إنه يرفض أن يصف عمولات علي الشيخ بأنها « رشوة » بل يصر على اعطائها صفة « أتعاب » . ويقول : المرتشون هم الذين يقبلون عما لة وسمسرة من صفقة تعقد لحساب بلادهم ، ومن أموال تدفعها الدولة التي يحملون جنسيتها . أما الذين يحصلون على أتعاب من الشركات الأجنبية فهؤلاء هم تجار تعترف بشرعية عملهم كل قوانين التجارة في العالم . . .

— ولكنهم يبيعون السلاح للعرب . . . فهل هذا عمل وطني ؟

— نعم ، لأنهم يأخذون حصتهم من العمولة التي يختلسها المسؤول أو المسؤولون عن صفقات السلاح من وراء ظهر حكوماتهم . . . واذا كان لا بد للبلاد العربية من سلاح ، وكل سلاح يباع له عمولة ، فلماذا لا يأخذون هم العمولة ؟

— منطق معقول . . . وكيف تمت أول صفقة ؟

— لست أدري بالتفصيل . الذي عرفته انها كانت صفقة صغيرة لحساب الأكراد في شمال العراق . لقد استطاع خليل الأزرق أن يقنع علي الشيخ بانها تخدم حكم البعث السوري لانها تزعزع حكم عبد السلام عارف الذي كان قائماً في بغداد ، وكان البعثيون يعملون على اسقاطه . . . وفي نفس الوقت تحقق الصفقة منافع مادية مغرية . وعندما سمع علي الشيخ برقم حصته من الصفقة ذابت اعتراضاته . . . فسهل العملية ، ووصل السلاح الى اللاذقية حيث أفرغ تحت اشرافه ،

وتسلمه الأكراد على الحدود .

— كم كان المبلغ ؟

— حصة علي الشيخ وحدها كانت نصف مليون ليرة . ولا بد أن تكون حصة خليل الأزرق أكبر من ذلك . وكانت أول مرة يسمع فيها علي الشيخ بكلمة « مليون » ولم يصدق خليل الأزرق في البداية وهو يقدم له الشيك ، فسافر في مهمة عاجلة اصطنعها الى سويسرا ، حيث توجه الى البنك ، وصرف الشيك ، وتسلم المبلغ ، ثم أعاده للصندوق في الحال ، بعد أن فتح حساباً باسمه هناك ، أمام دهشة موظف البنك من هذا الزبون العربي الذي جاء الى جنيف ليمتحن قدرة البنك على الدفع !

— اذن ، عمولات السلاح هي التي أغرته بالهجرة من سوريا ؟

— ليس كذلك . . . لولا حركة اليسار البعثي المتطرف التي قادها صلاح جديد في ٢٣ شباط ١٩٦٦ ، لبقي علي الشيخ في مركزه ، ولكان نفوذه قد فتح أمامه فرصاً أكبر في تجارة السلاح . ان تطبيق مسؤول عربي من قبل مسؤول عربي آخر أسهل من تطبيق هذا المسؤول من قبل تاجر أو سمسار سلاح لا صفة رسمية له .

— الذي أعرفه أن صفقات السلاح تتم بين دولة ودولة . . . فما هو دور سمسار السلاح ؟

— التطبيقات . الدولة تقرر شراء السلاح الذي توصي به لجنة ضباط . وهؤلاء الضباط هم الذين يوقعون العقود ، وهم الذين يقبلون الأسلحة ولو كانت فاسدة .

— على مهلك ، لا تمارس الدعاية السياسية معي . . . لعبة صفقات السلاح لم تظهر مع النظم الثورية ، بل بدأها المرحوم فاروق . . . هل نسيت ؟

— لم أنس ، وأنا لا أتهم نظاماً معيناً . الثورة ليست مسؤولة عن فساد الثوار . وصفقات السلاح تعقد من قبل النظم الثورية والنظم التقليدية . والحسابات السرية تفتح في بنوك سويسرا من كل الأطراف .

— نسينا علي الشيخ . . . كيف جاء الى أوروبا ؟

— قلت لك ، أنه بعد حركة صلاح جديد ، شعر علي الشيخ أنه لم يعد من الممكن الاستمرار . كان محسوباً على جماعة القيادة القومية لحزب البعث . وقد نجا من التصفية ونجا من التطهير ، ولكن دوره في سوريا كان قد انتهى . لقد رقي ووضع على الرف . فأدرك أن عليه حماية رأسه بالخروج من سوريا . وكان لخليل الأزرق دور في تسهيل عملية الهجرة . وهكذا أصبح علي الشيخ سمسار الصفقات ذات العمولات العالية ، والتي كان يدفع منها بسخاء للجانب العربي . . . بينما كان خليل الأزرق يقوم بتسهيل العملية مع الجانب الأوروبي . .

— كيف يكون خليل الأزرق وعلي الشيخ شريكين يكسبان الملايين ، وفي نفس الوقت يكون خليل الأزرق عشيقاً مزدوجاً لسلمى ابنة علي الشيخ ولريتا سكرتيرته وعشيقته ؟

— علي الشيخ رجل طيب رغم مظاهر العنف التي تطفو على شخصيته في بعض الأحيان . غضبه ، وانفعاله ، وشراسته كلها عوارض وليست صفات متأصلة في نفسيته . ثم أنه ، على ما يبدو ، ضعيف جنسياً . ولعل ذلك عائد الى طول ممارسته العادة السرية عندما كان مراهقاً . . . أما خليل الأزرق فهو رجل شرير بدون ريب . مظهره لا يوحي العنف ، بل العكس قد يكون هو الصحيح . يتكلم همساً ، ولا ينفعل الا نادراً . وهو أذكى وأجرأ وأكثر مرونة من علي الشيخ بالاضافة الى أنه لا يؤمن بشيء ، ولا يتورع عن عمل أي شيء . لم يكن بينه وبين علي أي شبه ، بالاضافة الى أن خليل لا يستطيع أن ينسى

أنه كان يعمل عند علي الشيخ عندما كان في سوريا . أما في أوروبا فقد اختلفت المقاييس ، وأصبح كل شيء بسعره الحقيقي . . .

وفجأة ، وقف سامي الشريف من مكانه عند مقدمة اليخت « سوريا » وقال لقبطان اليخت : أنزل زورق المطاط ، واقترب من شاطىء بلاج « مونت كارلو بيتش » ، فسوف نتوجه الى هناك !

وفي دقائق ، نزل من اليخت زورق صغير من المطاط ، مزود بموتور ، ونزل سامي وسعيد وأمامهما « ماريو » ، ثم أدير « الموتور » واتجهوا جميعاً نحو الشاطىء .

* * *

لو لم يتعرف سعيد الطرابلسي على الفندق الذي ينزل فيه ، عندما اقترب زورق المطاط من « السنسول » الممتد داخل البحر ، لظن أنهم ينزلون الى « بلاج » مختلف ، ذلك أن منظر الشاطىء من البحر يختلف عن منظر الشاطىء من الشاطىء نفسه . كان البلاج يبدو كبيراً وواسعاً جداً . طوله أكثر من ثلاثة كيلومترات ، وعرض الرمال التي أقيمت عليها مجموعات من الخيام تسمى « شاليهات » لا أقل من ٣٠٠ متر وهو بلاج نادر حتى في جزر « هاواي » . وخلف البلاج تمتد الشوارع العريضة المليئة بالأشجار . طريق فوق طريق حتى تصل الى التلال العالية المحيطة بمونت كارلو بشكل حدوة حصان .

وقاده سامي الشريف فوق الرمال ، الى أن انتهوا عند الشاليه رقم ٤٣ حيث كانت سلمى وفتاتان أخريان يتحلقن حول « باكو » وهو يقرأ كف احداهن . وعندما رأوا سامي ، هبوا جميعاً واقفين ، وقال له « باكو » وهو يقدم احدى الفتاتين : طوني . اميركية . وصلت الى « مونت كارلو » أمس . وهي تنتظرك هنا منذ أكثر من ساعتين

لتزور اليخت . تقول انها مغرمة باليخوت !

وتطلع سامي اليها متفحصاً ثم قال : اذا كنت خبيرة باليخوت ، فلا شك أنك تعلمين أن أجمل وقت لزيارتها هو في الليل . . . ما رأيك في تناول العشاء معنا الليلة ؟

وابتسمت الفتاة ، وأشارت برأسها علامة القبول .

والتفت سامي الى سعيد وقال له : ابق هنا مع الصبايا ، سأعود اليك بعد قليل !

وعاد باكو الى قراءة كف « طوني » .

وراح سعيد يتأملها . كانت ترتدي « مايوها » من قطعتين ، كلاهما أرق وأقل عرضاً من الآخر . وقد لاحظ عندما وقفت وسلمت على سامي ثم سلمت عليه ، أن جسدها نموذجي ، لوحته الشمس وجعلت لونه كالعنبر ، مع عينين خضراوين كانتا تلمعان كالمصابيح .

وقال « باكو » وهو ممسك بيد طوني حتى الآن لا تعرفين ماذا تريدين . .

— بالضبط . . .

— وعندما تعرفين ترددين . تحبين الناس أكثر مما يحبونك .

— صحيح . . .

— هناك سيدة تكرهك .

— عمرها ؟

— أقل من ثلاثين . . . أو هكذا تبدو .

— لا أعرفها . . .

— اذن عليك أن تحترسي .

ـــ وهل يفيد الاحتراس ؟ أنا اؤمن بالقدر .

ـــ وقد دفعت ثمن ذلك . لقد أحببت بكل ما في خيالك من أحلام فصدمك الحب . أنت تعيشين الآن مع نفسك . تحاولين الهرب . تسعدين كل شخص تعرفينه ، ولكنك انت غير سعيدة . . . » .

وترقرقت عينا طوني بالدموع .

واندفع « باكو » مع خياله متظاهراً بأنه يقرأ ما تبقى من خطوط يدها اليسرى : أنت تحبين السفر . في أقصى الفنجان رجل ليس شاباً . في حدود الأربعين .

ـــ آه . . . فردريك .

ـــ يحبك كثيراً .

ـــ هذا صديق . إنه لا يعني لي شيئاً .

ـــ يخفي عنك حبه . . . لا يبوح به .

ـــ مسكين . لقد مضى على معرفتنا أكثر من خمسة أشهر وهو ينفق عليّ بسخاء . لم أطلب شيئاً لم يأت به اليّ . .

ـــ هل هو هنا في « مونت كارلو » ؟

ـــ في مدريد . عمله هناك . هو الذي هيأ لي فرصة قضاء اسبوعين هنا . دفع كل المصاريف .

ـــ أليس هذا هو الحب ؟

ـــ لا أدري . . . لقد نمت معه مرات عديدة . لم أشعر أنه يحبني . كنت أعتقد أنه يكتفي باللذة الجسدية .

ـــ هناك شاب يحوم حولك .

ـــ صحيح . . . ولكن فردريك يغار منه كثيراً .

ـــ ابتعدي عنه . إنه شاب « جيكولو » لن يفيدك شيئاً . تحبين

هذا الصنف من الشباب الصغار . أنه أقل قدرة على اسعادك ، وأكثر قدرة على التسبب لك بالمشاكل . . .

وتنهدت « طوني » بعمق وهي تغمض عينيها بحركة تدل على الحيرة والضياع ، فقال لها « باكو » : حظك مع « فردريك » أحسن . لو اعتنيت به أكثر فهو جدير بأن يتزوجك . . .

وجفلت « طوني » من الكلمة وقالت :

— الزواج ؟ من قال لك اني أبحث عن زوج ؟

وضحك « باكو » وقال : لا تجفلي . . . لقد أردت أن أمتحنك . في الحقيقة أنت من صنف النساء اللاتي لا يصلحن الا للحب . . . ليتني كنت واحداً من أصحاب الملايين !

وراح « باكو » ينثر حكمه التي يرددها في مثل هذه المواقف :

النساء مغرمات بأصحاب الملايين . والأطفال ؟ ليس أسهل من صنعهم .

وقاطعته « طوني » : نحن من جيل لا يحب انجاب الأطفال . لمن نقدمهم ؟ للحرب ؟ للمجتمعات الاستهلاكية التي تسحق آدمية كل من يعيش بين أسنانها الحادة ؟ لعالم مثل هذا العالم ليس فيه شيء بلا ثمن حتى الحب ؟ . .

وبحركة من حركاته المعروفة عن كل المصابين بالشذوذ الجنسي ، قال لها وهو يبتسم ويقترب بشفتيه من أذنها : بصراحة ، رغم كل أرائك في الحب . . . ألا تحبين ممارسته سواء أكان له ثمن أم بدون ثمن ؟

وضحكت « طوني » وقالت : ومن قال لك إني ملاك ؟ لو كان الأمر بيدي لتوقفت عن الأكل وعن النوم وعن الحب . . . ولكن

هل هذا ممكن ؟ معظم الأمور التي نلعنها نمارسها بدون وعي . بالرغم منا . لأنها طبيعية .

وقال باكو : اننا نعملها ثم نلعنها لنبرر بعد ذلك ثورتنا عليها ! . . .

وفجأة تعلقت عينا سلمى الشيخ بشيء خارج « الشاليه » وتغير لونها ، فنظر سعيد الطرابلسي الى حيث كانت تتطلع ، فرأى سامي الشريف وهو يتأبط ذراع سيدة جميلة تجاوزت الثلاثين من عمرها ، قدمها اليه : هذه هي « باتريشيا دي لابيانكا » !

وخرجت سلمى الشيخ من الشاليه بدون أن تحيي السيدة القادمة. . .

وأمسك سامي بذراع « طوني » وقال لها وهو يغرق عينيه في عينيها الخضراوين : ألا تتناولين الغداء معنا أيضاً أيتها الجميلة ؟

وقالت « باتريشيا دي لابيانكا » : لنتناول الطعام هنا ، أريد أن أسلم نفسي لأشعة الشمس . . .

ثم استطردت : ومثل هذا الوضع يجعلني أكثر استعداداً وقابلية لرواية كل شيء لصديقك الصحفي . . .

وقال سامي : أذن سأصطحب « طوني » الى المطعم ، ويجيء معنا أيضاً « باكو » و . . . ماذا تسمين أيتها الحلوة ؟

— جوليانا .

وبعد لحظات ، كانت الشاليه رقم٤٣ قد خلت إلا من سعيد الطرابلسي و « باتريشيا دي لابيانكا » التي وضعت رأسها داخل الخيمة خوفاً من أشعة الشمس ، وجسدها فوق كرسي طويل ممتد ينشد أشعة الشمس !

٩

أدرك سعيد الطرابلسي أن سامي الشريف هو الذي سعى إلى ترتيب هذا اللقاء المنفرد بينه وبين « باتريشيا دي لابيانكا » . فسامي الشريف أوقف اليخت « سوريا » أمام شاطئ « مونت كارلو بيتش » واصطحبه في الزورق المطاط إلى الشاليه رقم ٤٣ ، ثم ذهب ليبحث عن « باتريشيا » ليأتي بها إلى الشاليه . وتعمد بعد ذلك أن يتركهما معاً ليسمع من « باتريشيا » قصتها مع خليل الأزرق ... ولكن سعيد الطرابلسي كان أكثر اهتماماً بمعرفة قصتها مع سلمى ، بعد الحركة العصبية التي انسحبت بها سلمى من الشاليه فور رؤيتها لباتريشيا .

ـــ ما حكايتك مع سلمى ؟

ـــ بل ما حكايتها هي معي ؟ انها تتصرف معي تصرفات غريبة .

ـــ ربما لأنك كنت على علاقة مع خليل الأزرق .

ورفعت باتريشيا رأسها ثم نظرت إلى سعيد بدهشة وهي تقول :

وهل هذا يبرر تصرفاتها ؟ هل خليل الأزرق كان يعرف امرأة واحدة ؟ وهل سلمى مخلصة لخليل الأزرق ؟ هل تعرف مثل هذه الفتاة الحب ؟ عشيقها مقتول ، وأبوها في السجن ، ولديها وقت للغيرة ؟ انها تسكر كل مساء ، وترقص إلى الصباح ، وتنتقل كل ليلة إلى سرير ... يقولون إنها مريضة جنسياً . كلنا مرضى ، والعلاج متوفر والحمد لله ، فلا داعي للتقاتل ..

— لا تكوني قاسية إلى هذا الحد . حاولي أن تفهمي ظروف سلمى . لا شك أنها حزينة ، والصدمة قاسية عليها ، ولكنها لا تعرف كيف تعبر عنها . لو كانت سلمى في بلدها ، وبين أهلها ، لارتدت ثياب الحداد ، وشاركت أهلها ومعارفها الحزن . ان الحزن مثل الفرح شعور اجتماعي لا يمكن أن يمارسه الإنسان في مجتمع غريب عنه . انه يبقى في القلب ، وقد ينفجر في نوبات عصبية عندما يكون الإنسان وحيداً . لكن مظاهر الحزن وطقوسه لا تمارس إلا بين الأهل والمعارف . وأنا أميل إلى الاعتقاد أن سلمى تهرب من أحزانها عندما تسكر وترقص وتتنقل بين أحضان الرجال ...

وشعر سعيد أنه تحدث أكثر مما يجب عن سلمى ، فأراد أن يغير الحديث ، فقال :

— يبدو أن خليل الأزرق كان له سحر خاص على النساء . ما من امرأة عرفته إلا وقعت في حبه ، بينما لم أسمع عن امرأة واحدة أحبها هو .

— مؤكد أنه ناجح جنسياً ... بالنسبة لي كنت أحب أن أقضي بعض الليالي معه ، ولكني لم أحب شخصه ، ولا اعتبرته يوماً صديقاً يمكن الاطمئنان إليه .

— إذن بالنسبة لك مجرد حيوان جنسي ؟

ــلست ادري . لقد سألت نفسي هذا السؤال ، ربما لأني كنت أكثر تفوقاً من معظم الرجال الذين عرفتهم قبله . كنت أنــا أمارس الجنس فيهم . بعكس خليل الأزرق . كنا طرفين متساويين . لا أحد يعطي أكثر مما يأخذ ... عندما حاول أن يتشاطر عليّ في المرة الأولى ، قلت له : لا داعي لمثل هذه الحركات ، أنا استاذة فيها . لنتصرف على سجيتنا ...

وضحكت « باتريشيا » ثم قالت :

ــ كانت سجيتنا أكثر عهراً من خبراتنا . في إحدى المرات ، ظننت كما لو أنني رأيت الجانب المجهول من القمر . وتعلمت يومها أن الجنس كالكون لا نهاية له . والذي يتعلق بارتياد المجهول ، يموت قبل أن يروي ظمأه من المعرفة .

ــ ألا تلاحظين انك مثل ملكة النحل ، الذكر الذي يفوز بك لا بد أن يموت ؟

وهنا جلست « باتريشيا » . وأرخت طرف قبعتها الشمسية على عينيها حتى لا يراهما سعيد ، وهمست :

ــ تقصد فاروق الشربجي ؟ أنا التي صنعته . حررته من سيطرة « كلير بيباوي » . ولكنهم أخذوه . قتلوه ، وشوهوا وجهه الجميل .

ــ هل كنت تحبينه ، أم كانت علاقة من النوع الذي كان بينك وبين خليل الأزرق ؟

ــ بالعكس ، كان الذي بيننا أكثر من حب . كل شيء كان يجمعنا .

* * *

أغسطس ـ آب عام ١٩٦٣ .

في الحفلة التي أقامتها السفارة المغربية احتفالاً بعيد ميلاد الملك ، كانت « باتريشيا دي لابيانكا » محط أنظار الجميع . فجمالها الذي صنعته دماء كل الشعوب ، كان يتألق على كل حسان الحفلة . أبوها كوبي ، وأمها إيطالية ... أي انها ـ كما كانت تصف نفسها ـ « خلطة من الاسبان والمغاربة والهنود والرومان » . كان أبوها سفيراً للجنرال « باتيستا » ومن أقاربه . وعندما استولى « فيدل كاسترو » على الحكم في كوبا ، استقال أبوها ، ولجأ إلى إيطاليا ، وتفرغ للأعمال التجارية . وتفرغت « باتريشيا » للاستمتاع بمعاشرة الطبقات المترفة في روما .

الصدفة هي التي وضعتها على نفس المائدة التي كان يجلس حولها الملحق العسكري العراقي وفاروق الشربجي .

وكان الملحق العسكري العراقي ينتقد الحكم المطلق في المغرب .

وبأدب شديد سأله فاروق الشربجي :

ــ هل لديكم برلمان في العراق ؟

ــ الديموقراطية الحقيقية ليست في البرلمان . الشعب عندنا سيد مصيره .

ــ وكيف يعبر الشعب عندكم عن نفسه ؟

ــ من خلال حزب البعث ... الحزب أنجز ثورة الشعب ، فتجسدت فيه إرادة الشعب .

ــ الملوك أيضاً يقولون ، بل وكل حاكم يدعي أن إرادة الشعب تتجسد فيه .

ــ ولكننا لم نتعرف بالاستاذ ؟

ــ ما دمنا نتعارف ، فمن اللياقة أن نشرك الآنسة معنا (قالها

بالانكليزية وهو يشير إلى باتريشيا دي لابيانكا) .

ـــ أنا فاروق الشربجي ، بورجوازي مصري سابقاً . أممت مصانعنا في مصر . وها نحن نعيش في أوروبا .

وضحك الملحق العسكري العراقي وقال :

ـــ الآن ، أصبح الكلام مفهوماً . أنت طبعاً تدافع عن مصالحك !

ـــ بالطبع ، ولكن الذي يحيرني هو عن مصالح من تدافعون أنتم ؟

ـــ عن مصالح الكادحين ضد المستغلين من أمثالك .

ـــ أنا مستغل ؟ هذا بحث نظري لم يتفق عليه العالم بعد . ما هو دور الرأسمالي في عملية الانتاج ؟ دعنا من الخوض في ذلك ، فأنا موافق على أن الرأسمالية العربية كانت تستغل العمال . وقد دفعت أنا ثمن غبائها . ولكن من منا أكثر استغلالاً ؟ لقد أعطينا مدخراتنا وخبراتنا ، ومنحنا بلادنا دخلاً من العملات الأجنبية ... ولكن ماذا أعطيتم أنتم ؟ شعارات ، وكلمات ، ثم اعتقالات ومحاكمات وانقلابات وفوق ذلك كله افلاس اقتصادي ... هل تعرف أن أبي عمل في وقت من الأوقات في تصدير الحبوب من العراق ؟ وهل تعرف الآن كم يستورد العراق من الحبوب ؟

ـــ ما يحدث في العراق ظاهرة طبيعية تصاحب التحول من مجتمع اقطاعي إلى مجتمع ثوري . واستيراد الحبوب أمر موقت حتى يؤتي قانون الاصلاح الزراعي نتائجه العظيمة .

ـــ خمس سنوات ، وكل شيء موقت ؟ يبدو أن هذا الموقت قد أصبح الحقيقة الوحيدة الدائمة في العالم العربي .

ـــ وما قيمة الخمس سنوات في عمر الشعوب ؟

— عمر الشعوب طويل ... فلنترك ذلك للتاريخ . ولكن ما دمت تتحدث عن الثورة والديمقراطية والاستغلال والاشتراكية ، فأنا أقول لك أن أمثالي من البورجوازيين يعيشون في استفتاء يومي . فأما أن يكسبوا رضاء الجمهور ، والا فسوف ينصرف عن انتاجهم ، ويصبح الافلاس نصيبهم . ولكن الحاكم يبقى حتى ولو أفلست سياسته . الزبون يملك حرية الاختيار ، وهو دائماً على حق ، أما شعوبنا فمغلوبة على أمرها ، والسلطة دائماً على حق ...

كان الملحق العسكري قد شرب الكأس الرابعة . وخيل إليه أن « باتريشيا » ترمق فاروق الشربجي باعجاب ، فقال منفعلاً :

— منطق « الزبون دائماً على حق » هو منطق الكباريهات .

— بعض الأنظمة العربية تفتقر حتى إلى منطق الكباريهات !

وهنا وقف الملحق العسكري العراقي من مكانه غاضباً ، وقال وهو ينصرف عن المائدة : من حسن حظك انك تقول مثل هذا الكلام في بلد غير عربي ، وبحضور آنسة أجنبية !

وأحنى رأسه لباتريشيا محيياً .

— لحسن الحظ ! (أجاب فاروق وهو يبتسم) .

* * *

كان ذلك لقائي الأول مع فاروق الشربجي . شعرت أننا ننطلق من موقف اجتماعي واحد . كلانا جرد من جنسيته وثروته . وكلانا يرفض الاعتراف بصواب ما جرى . وأهم من ذلك ، كلانا في مقتبل العمر ، ويرفض التسليم بالهزيمة ، ويبدأ حياته من جديد .

كان فاروق أكثر نجاحاً من أبي . استطاع أن ينقل تجارة القطن من

الاسكندرية إلى ميلانو . مـوَّل مزارعي القطن في السودان لينتجوا نفس الأقطان التي كان يصدرها من مصر . وأقنع الحكومة الإيطالية بتمويل عدة مؤسسات للنسيج لتعمير جنوب إيطاليا ... كثيراً ما كنت أضرب به المثل للمهاجرين الكوبيين الذين يبددون وقتهم وراء أجهزة المخابرات ، بوهم أنها ستعيدهم إلى السلطة في كوبا . تمنيت عليهم لو أنهم فعلوا مثل فاروق ، ونقلوا صناعة السيجار التي كانت لهم في كوبا إلى الخارج ... فاروق كان ناجحاً في كل شيء إلا في علاقته بتلك المرأة التي تكبره سناً .

— (تكبره سناً ؟

— نعم ، وكانت متزوجة من صديقه .

— لا تنفعلي . أنا أعرف كلير بيباوي . قابلتها في مصر ، وهي الآن مصابة بمرض خطير . وعندما التقت بفاروق ، كانت أكثر من جميلة . ولا تنسي انها كانت تحبه . وأعتقد أنه أحبها .

— ليس صحيحاً . سيطرت عليه فترة ، ولكنه كان تعساً بهذه العلاقة ، وحاول أن يهرب منها . ورفض أن يتعاون مع زوجها الذي كان يعمل هو أيضاً في تجارة القطن . ولكي لا يكون على مقربة منهما ، نقل مقر عمله من « لوزان » إلى « ميلانو » ثم إلى « فيافينيتو » في روما حيث قتل ... وفي النهاية تحولت كلير إلى مطاردته ...

وارتفع صوت « باتريشيا دي لابيانكا » وهي تسأل سعيد الطرابلسي :

— هل سمعت بامرأة تقذف رجلاً تحبه بماء النار على وجهه ؟ ... حتى لو كرهت المرأة ، فسيظل في قلبها موضع للرجل الذي تحب .

وأحس سعيد الطرابلسي أنه ينكأ جراحها ، فسأل :

— هل تعتقدين انها هي التي قتلته أم زوجها يوسف كما ورد في التحقيق ؟

وقلبت شفتيها باحتقار ثم قالت :

— القتل فيه شيء من النبل لا يتفق وخسة القاء ماء النار . أنا أرجح أن خليل الأزرق هو الذي أطلق النار عليه . ولعل ذلك هو أفضل عمل قام به خليل الأزرق في كل حياته ... لم أكن أتصور أن يعيش فاروق الشربجي بوجه مشوه ...

— ولكن لماذا قتله ؟

— الكلام كثير ... ربما استأجره يوسف بيباوي غيرة على زوجته . أنتم الشرقيون كسلمى تغارون كثيراً .

— ومثل عطيل ...

— ربما . انكم تفكرون بالاحتفاظ بالحبيب بتصفية المنافسين ، وليس بالتفوق عليهم .

— ونفعل ذلك أضاً في السياسة .

— وربما كان لفاروق علاقة بالمافيا . وأعتقد أن ذلك تم عن طريق خليل الأزرق . فالنواب الإيطاليون الذين هاجموا فاروق الشربجي بعد مصرعه ، عرفت فيما بعد أنهم على علاقة بالمافيا ، كما رأيت أحدهم مع خليل الأزرق .

— من عرفك بخليل الأزرق ... وكيف ؟

— سوف تعجب ... انه فاروق الشربجي ، وفي نفس المكان الذي قتل فيه !

* * *

عندما انتقل فاروق الشربجي من سويسرا إلى إيطاليا ، استأجر شقة في شارع متفرع من « فيافينيتو » ، جعلها مكتباً ومسكناً في نفس الوقت . فكانت اللقاءات مع رجال الأعمال تتم في الغرف الأمامية ،بينما حوَّل الغرف الخلفية إلى ما يشبه « الغارسونيرة » الفاخرة ، بعد أن زودها بكل ما يغري المرأة بالبقاء .

ظهر يوم ممطر من شهر ديسمبر (كانون الأول) كانت باتريشيا في « فيافينيتو » عندما فاجأتها زوبعة من الأمطار ، ففكرت بالمرور على مكتب فاروق حتى تهدأ العاصفة . وعندما دخلت عليه ، كان خليل الأزرق هناك . وقدمه فاروق إليها كأحد الأصدقاء . وقدمها إليه قائلاً :

— العزيزة باتريشيا ...

وأدرك خليل الأزرق طبيعة العلاقة بينهما ، فقد كان واضحاً من حركاتها وتصرفاتها انها تعرف الشقة جيداً ، وانها أكثر من صديقة عادية لفاروق .

وعندما انصرف خليل الأزرق ، وبقيت باتريشيا ، شعرت أن فاروق لا يريد التحدث عنه . وأن العملية التي تجري بينهما تختلف عن سائر عملياته التي تعود أن يحدثها عنها . ففاروق الشربجي من النوع الذي لا يتكتم في أعماله . وعلاقته بباتريشيا كانت علاقة غريبة . كانت أصغر منه سناً . ومع ذلك لعبت معه دور الأم ، بل واستاذة في الجنس .

باتريشيا تدعي انها حررته من الوهم الذي زرعته كلير في نفسه . كان فاروق يعتقد ، قبل أن يلتقي بباتريشيا ، أن كلير هي وحدها التي تجعله يشعر برجولته . ولذلك كان متردداً وخجولاً عندما اصطحب « باتريشيا » أول مرة إلى ملهى « ماكسيم » في « الروبا توربيا » عند أول « فيافينيتو » .

لقد أحست ليلتها انه يريد قضاء الوقت كله في الرقص . وانه يسرف في الشراب . وعندما تجاوزت الساعة الثالثة صباحاً ، وانصرف معظم رواد الملهى ، سألته :

ألا تنوي الانصراف ؟

— إلى أين ؟

— إلى أين ؟ إلى حيث ينصرف الناس بعد السهر ...

ولما لم يجب عادت تقول :

— ألا تسكن قريباً من هنا ؟

ونظرت إلى ساعتها ، ثم قالت :

— لقد تأخر الوقت . وأمي إيطالية من الجنوب ، وهي لا تسمح لي بالمبيت خارج المنزل ... ولكن في استطاعتي أن أبقى معك ساعة أخرى !

وانصرفا إلى الشقة .

وبعد الرابعة بقليل ، كان فاروق الشربجي يودعها على الباب ، وهو يقول لها : الليلة تحررت .

ولم تفهم « باتريشيا » وقتها ماذا كان يعني . ولكنها عرفت ، عندما تغلغلت في حياته ، انه كان يقصد علاقته بكلير .

* * *

بعد اسبوعين من لقائها بخليل الأزرق ، اعتذر فاروق الشربجي لباتريشيا انه مرتبط بعمل في باريس ، ولا يستطيع الاحتفال معها بليلة رأس السنة . وتمنى لها سهرة ممتعة !

وفي فندق الاكسلسيور التقت باتريشيا بخليل الأزرق . كانت هي

مع شلة من الأصدقاء يحتفلون برأس السنة ، وكان هو يجلس إلى طاولة مع بعض الأصدقاء الإيطاليين .

وابتسم لها ، فردت عليه بابتسامة مثلها . وحياها باشارة من رأسه ، فردت له الإشارة . وعندما بدأ الرقص ، قبلت دعوته . وكان طبيعياً أن يبدأ الحديث بينهما بالسؤال عن فاروق .

— انه في باريس ...
— هل أنت متأكدة انه في باريس ؟
— وتطلعت باتريشيا إليه في استغراب وقالت :
— ماذا تقصد ؟
— ألا يحتمل أن يكون في « لوزان » ؟
— لا تحاول اثارتي ... أنا لست غيورة . فاروق في سن الرشد وهو حر !
— وأنت ؟
— أنا أيضاً حرة ... وأكره الارتباط .
— ظننت أنه خطيبك .
— لست خطيبة أحد .

وانتقل خليل الأزرق إلى الهجوم على الفور .

— إذن سنقضي الليلة معاً .
— إذا أقنعتني ...

وشدها إليه قائلاً :

— اعطني فرصة ...
— معك حتى اطفاء الأنوار .

ولم يكن خليل الأزرق في حاجة إلى كل هذا الوقت ، فقد احتفل باطفاء النور في غرفته بالفندق .

* * *

وسكتت باتريشيا ... وطال سكوتها .

وقال سعيد الطرابلسي :

ــ يبدو أن المرحوم كان الشيطان بعينه .

ــ نعم ، كانت له كل عيوب الشيطان ومهاراته ... هل تنكر اننا معجبون بالشيطان ، مع اننا نلعنه كلما استسلمنا اليه ؟

ــ ولكن كيف استطاع خليل الأزرق أن يفلت من تهمة قتل فاروق الشربجي ؟

ــ هذا ما يعزز شكوكي عن دور المافيا . في التحقيق الذي أجرته الشرطة ، أعطت حارسة البناية أوصافاً لرجل يشبه خليل الأزرق قالت انه زاره في مكتبه يوم الحادث . ولكنها لم تذكر في التحقيقات التالية هذه الواقعة ، ولم يهتم أحد من المحققين بها ، وتركز التحقيق حول كلير وزوجها .

ــ ومتى رأيت خليل بعد ذلك ؟

ــ منذ حوالي عشرين يوماً ، في الصحف التي نشرت صورته وهو ملقى على أرض الغرفة التي قتل فيها بالمانيا !

ــ هل تظنين أن المافيا هي التي قتلت خليل الأزرق ؟

وضحكت باتريشيا وقالت :

ــ عندما يقتل الشيطان ، يصبح من المستحيل تحديد القاتل ، فالكل يريد رأسه !

ثم استطردت قائلة :

— ولكن التحقيق يتجه إلى اتهام والد سلمى . انها قصة غريبة . سلمى تحب خليل الأزرق لدرجة انها تغار من كل امرأة عرفته . وأبوها متهم بقتله وموقوف بهذه التهمة . وهي هنا تعيش على حساب سامي الشريف . ولها أكثر من علاقة ، في حياة خليل الأزرق وبعد مصرعه ... هل تستطيع أن تفسر لي هذه المرأة ؟ لقد كنت أظن أنني أسبق عصري ، ولكن سلمى تسبقني بعدة عصور ...

وتذكر سعيد الطرابلسي وصف سامي الشريف لسلمى الشيخ عندما قال : انها « قطاع عام » . ومع ذلك وجد نفسه يدافع عنها فيقول :

— سلمى مسكينة . سمعتها أكبر من حقيقتها .

— اسأل سامي الشريف ، انه يعرفها أكثر منك !

— هل تعرفين أنت سامي ؟ انه يدعي معرفة كل امرأة . وهو لا يعرف المرأة أكثر من مرة واحدة .

— نعم أعرفه . انه يعيش تحت عقدة كراهية الارتباط . يتصور كل علاقة مع امرأة وكأنها السجن . لقد روى لي مأساته في سجون سوريا .

— حتى أنت روى لك عن سجنه في سوريا ؟

— هذه حكايته المفضلة ، عندما ينتهي من المرأة . ربما يقولها كلون من الاعتذار لعلاقاته السريعة والعابرة . انه يخشى أن يسجن مرة أخرى في غرفة مغلقة ، أو في حب امرأة واحدة . وأشك أن له أصدقاء حتى بين الرجال .

— لكل قاعدة استثناء . فانا لا تربطني به غير الصداقة .

— أرجو أن لا تخطىء فهمي . أنا معجبة جدا بسامي . فيه كل نبل الرجال وما بقي في هذا العالم من فروسية . وهو من أكرم الناس مع أصدقائه وضيوفه ومعارفه . مائدته تصلح لاستقبال أي أمير في أي لحظة . مرة كنا عنده ، فدق جرس التليفون . وعرفنا أنه الأمير رينيه حاكم موناكو يريد قضاء السهرة معه بدون دعوة . وفعلاً حضر الأمير وزوجته غريس كيللي . وتناولا العشاء معنا ، نفس العشاء الذي يقدم كل ليلة . لم يغادرنا لحظة واحدة ، ولا رأيناه يصدر تعليمات لطباخه الايطالي باضافة شيء الى المائدة . وبنفس اللباس السوداني ، وبنفس الطريقة التي يخدمنا بها « مصطفى » كل ليلة ... خدم الأمير والأميرة ...

وارتفع صوت « باكو » من بعيد ينادي :

— اختي باتريشا ... ماذا فعل بك هذا الوحش الجميل القادم من لبنان ؟

ووصل « باكو » وراح يتثنى ويتأود ويتمايل أمام سعيد الطرابلسي قائلاً : وأنا ؟ ألا تريد الاستماع الى اعترافاتي ؟

وغلبت النكتة على سعيد فقال :

— ولكن اعترافاتك لا تصلح للنشر في العالم العربي !

* * *

حول مائدة العشاء ، كان حديث المدعوين فوق اليخت « سوريا » تلك الليلة امتداداً لحديث الليلة الماضية ، أي عن أصحاب الملايين الذين يعتقدون أن أفضل وسيلة للاندماج في عالم الارستقراطيين هي اقتناء اليخوت الفخمة والنساء الجميلات ، فلا يعرفون كيف يديرون اليخوت ، ولا يحسنون المحافظة على النساء الجميلات .

واحدة فقط هي التي تغيرت بين المدعوين . فبدلاً من « اليزابيت » المهاجرة البريطانية ، كان على اليخت هذه الليلة « طوني » الأميركية ،

التي كانت تردد كلمات أثناء الحديث وكأنها تلقي درساً حفظته وتريد أن تلقيه ولو مباهاة بمعلوماتها . كانت تقول : ان الحياة معقدة . ومشاكل العالم تتكاثر . وانها من جيل لا يحب انجاب الأطفال . وانها ترفض الزواج ولو تقدم منها رجل في مثل مركز الأمير رينيه حاكم موناكو !

وتدخل « باكو » كعادته ليقول :

— الأمير رينيه ليس شيئاً يا روحي ، انه ليس أكثر من رئيس بلدية . فاذا وضعنا جانباً الاستقلال التاريخي . ومظاهر الامارة التي يحرص عليها حفيد آل غريبالدي من أجل اجتذاب السواح والنصب على أصحاب الملايين ... فالامارة كلها لا تتجاوز مساحتها الـ١٥٠ هيكتاراً ، وعدد سكانها في الشتاء لا يزيد على مائة الف .

— رئيس بلدية أو حتى موظف سياحة المهم أنه أمير !

— عندنا في ايطاليا كمية كبيرة جداً من كل الأنواع ، امراء ، بارونات ، دوقات ، كونتات ومركيزات . لقد اقترحت احدى الصحف في روما أن يؤلفوا نقابة للحفاظ على القابهم .وفي استطاعة أي مليونير ان يكتب للنقابة ليقتني واحداً من هذه الألقاب ، بالمقاس والشروط التي يطلبها . كذلك في استطاعة أية مليونيرة أن تستأجر أو تتزوج — لا فرق — أميراً أو دوقاً أو مركيزاً بالشروط والمواصفات التي تريد . ما على الباحثين عن الألقاب الا أن يكتبوا للنقابة ، أو يتصلوا بها تلفونياً ، وبعد ذلك تؤمن الطلبات الى المنزل والشقق واليخوت !

وتدخل سامي الشريف قائلاً : مثل هذه الخدمات أصبحت متوفرة في كل عواصم أوروبا ، ما عليك الا أن تتصل بمدام « كلود » في باريس أو مدام « ليزا » في لندن حتى تستطيع أن تحصل على ما تطلبه من الحسان بالأوصاف التي يحددها الزبون . أما الألقاب فليس اسهل من ادعائها

أو شرائها ، فالمرأة الجميلة أميرة بالطبيعة ، أو ملكة جمال يمكن تنصيبها في أية حفلة من الحفلات التي توزع العروش مجاناً ولوجه الله والصبا والجمال

قال باكو: ولكن هناك فرقاً بين اقتناء امرأة ذات سلالة أصيلة وبين اقتناء امرأة من الشارع !

وسأل سعيد : ما الفرق عملياً ؟

— المرأة مثل الكاتب . قيمتها تساوي قدرتها على خلق جو أو ما نسميه نحن الأوروبيون « أمبيانس » ... المرأة الأصيلة تستطيع عادة أن تبتكر أشياء جديدة . اضافة الوان من عندها . تتفنن في كل أمر تقوم به . تشعر الرجل أن لديها كنوزاً لم تكشف عنها ... المرأة الأصيلة تعرف كيف تملأ الفراغ بحديث ، بقصة ، بمفاجأة .

— ولكن هذه الصفات ليست احتكاراً لصاحبات الألقاب !

— هذا صحيح ... ولكن اللقب هو الذي يخلق الجو . هو الذي يضاعف من الرغبة . فعلى الصعيد العملي ليس هناك فارق بين سيدة تنفق عليها مليون دولار لتقتنيها ، وبين امرأة تنام معها مقابل مائة فرنك ...

وقالت سلمى : ما هو الاقتناء ؟ أليس نوعاً من المتعة ؟ عندنا في الاسلام نوع من الزواج يسمى « زواج المتعة » . اقتناء موقت يسمح للرجل والمرأة بتجربة الحب ، وممارسة الجنس ، ويعطي فرصة للتعارف . وبعد ذلك أما أن يستمر زواج المتعة ويجدد ، واما ان ينتهي ، وينصرف كل منهما في سبيله !

وتدخلت « طوني » في المناقشة . وكما يحدث في مثل هذه المناقشات حول المائدة ، تشعبت المواضيع دون أن تتركز على موضوع واحد . وراح سعيد الطرابلسي يستمع الى المناقشات بلذة ، فقد كان « باكو » يتلاعب

بالكلمات كما تتلاعب ريشة رسام موهوب بالالوان . فالرجل كانت لديه قدرة رائعه على استعارة التشابيه ، ومزج الجد بالمزاح . وله نظرة نفاذة للاشياء .. فانتقل بالحديث من الحب الى الجنس الى الموسيقى الى الجريمة الى الغيرة ، الى أن قال :

ـــ يجب الدفاع عن ما نملكه . الذئاب تستعمل أنيابها . الانسان يستعمل الرصاص ، اليس المبدأ واحداً ؟

هنا اقتربت سلمى الشيخ من سعيد الطرابلسي وهمست في أذنه :

ـــ ماذا كانت تلفق لك باتريشيا دى لابيانكا ؟

ـــ كانت تروي لي ما تعرفه عن خليل الأزرق .

ـــ هل تعتقد أن مثل هذه المرأة يمكن أن تعرف خليل الأزرق ؟

واراد سعيد أن يثيرها ، فقال :

ـــ ما سمعته منها أعطاني صورة واضحة عنه !

ـــ خليل الأزرق لا يمكن أن يعرف في السرير يا استاذ سعيد . ومعرفة باتريشيا به ، لا تتجاوز السرير .

ـــ هي وحدها ؟

ـــ السرير في حد ذاته ليس عيباً يا استاذ سعيد ، ولكن العيب أن ينحصر تفكيرنا فيه .خليل الأزرق كان يعرف كيف يميز بين رغباته الجنسية ، واهتماماته العامة . كثيرون غيره لا يفرقون . وأهم ما في خليل الأزرق أنه كان يعرف ان المرأة ليست للسرير فقط .

ـــ هل تعرفين أي نوع من الاهتمامات العامة كان يجري وراءها خليل الأزرق ؟

— أنا لا أعرف ، وكاذب كل من يدعي أنه يعرف على وجه التحديد . لم يكن خليل من طراز الرجال الثرثارين . وكن على ثقة من حقيقة واحدة هي أن خليل الأزرق كان يعرف ماذا يريد . وكانت لديه الشجاعة لأن يواجه نفسه . لم يكن مزيفاً كعشرات الرجال الذين عرفتهم عن قرب . كانوا يكذبون على أنفسهم قبل أن يكذبوا على الناس . صحيح أن خليل الأزرق كان يتبادل الكذب مع الناس ، لكنه لم يكذب أبداً على نفسه ...

كانا يتحدثان بالعربية . وارتفع صوتهما من الهمس الى ما يشبه الصراخ ، فتدخل سامي الشريف ليغير الحديث قائلاً :

— اتصل بي مساء اليوم من « هامبورغ » راشد أبو المنى ، وأخبرني أن قاضي التحقيق قد عين موعداً للجلسة بعد غد ..

واستجاب سعيد لرغبته في تغيير الحديث وقال :

— ومن هو راشد أبو المنى ؟

— صديق فلسطيني لعلي الشيخ . استجوبه البوليس الالماني في « هامبورغ » بعد القاء القبض على علي .

— أيلول الأسود ؟

— لا أعرف ، ولكنه من أفضل الرجال العرب الذين قابلتهم في حياتي .

— وماذا يجمع أفضل الرجال مع علي الشيخ ؟

وشعر سعيد الطرابلسي بانزلاق لسانه ، فالتفت لسلمى قائلاً :

— آسف ...

ولم تعلق سلمى . واستطرد سامي :

— لعله الجانب النبيل في شخصية علي الشيخ . المهم ، اذا كنت

ستجيء معنا الى « هامبورغ » ، فستقابل راشد ، واعتقد أنه سيعجبك .

ــ طبعاً سأذهب معك الى « هامبورغ » . هل تظن أنني سأترك القصة عندما وصلت الى الذروة ؟ أريد أن أحضر جلسات التحقيق ، أو على الأقل الاطلاع على محاضره ...

والتفت سعيد الى سلمى وقال :

ــ وانت هل ستذهبين أيضاً ؟

وتوجهت سلمى بحديثها الى سامي قائلة :

ــ ماذا تدبران ؟ هل تظن أنني تركت باريس وجئت الى هنا لاستمع الى حكايات باكو واتعرف على قطيع الحريم الذي يحوم حولك ؟

وقال سعيد :

ــ ما دمت أنت وسلمى ستذهبان ، فلماذا أبقى أنا هنا ؟

ــ اذن سنغادر غداً في الطائرة المسافرة بعد الظهر من مطار « نيس »

ثم استطرد سامي قائلاً :

ــ على العموم سنلتقي غداً على البلاج .

وقالت سلمى لسعيد فيما يشبه الهمس :

ــ هل لديك ارتباطات الليلة ؟

ــ ابداً ، كنت أفكر في أن أخلو لنفسي مع القراءات ، وربما أبدأ في تدوين بعض الأفكار والملاحظات .

ــ اذا لم يكن لديك مانع ، فعندي حديث اريد أن أفضي به اليك .

ــ هذه ثقة أعتز بها . ولكني أحب أن أسمع دائماً الحقائق ، كل الحقائق . (وسكتت سلمى لحظة ثم قالت وهي تبتسم :

ــ ما من أحد يعرف كل الحقيقة حتى عن نفسه ، ولكني أعدك بأن لا أكذب عليك .

١٠

صوت الموج كان يأتي اليهما خافتا . وكذلك أضواء اليخوت البعيدة . وقالت سلمى الشيخ : ما رأيك في إطفاء الضوء ؟

وأطفأ سعيد الطرابلسي ضوء الشرفة ، حيث كان يجلس إلى مائدة فيها أمام سلمى الشيخ .

وفي البداية انشغل سعيد باعداد زجاجة ويسكي وكمية من الثلج المعدنية . وبعد أن صب لسلمى كأسا آخر ، جلس على المقعد المصنوع من الخيزران ، ومد رجليه على المنضدة الصغيرة التي كانت امامه ، ورفع كأسه الى شفتيه قائلا : في صحتك !

وساد الصمت ... صمت يعبر عن الحيرة التي كانت تنتاب سلمى وهي تبحث عن نقطة بداية للحديث الذي جاءت من أجله الى غرفة سعيد ، وكانت أنغام ملهى « جيمي » الذي لا يبعد عن فندق « مونت كارلوبيتش » أكثر من ٥٠٠ متر ، تترامى الى مسامعهما، مختلطة بوشوشات

الموج ، وعتمة الشرفة ، ونسمات ليالي الصيف المنعشة .

ورشفت سلمى جرعة ثانية من كأس الويسكي ، ولما لاحظ سعيد ان الصمت عاد يثقل على المكان ، اراد ان يخفف عن سلمى مشكلة البدء في الحديث فقال : لم تخبريني ماذا كنت تفعلين في باريس ؟

ــ أتعلم التفصيل والخياطة عند «كريستيان ديور» .

ــ هل تفكرين في فتح محل أزياء ؟

ــ حاليا لا أفكر في شيء ...

ــ ولا في الرجوع الى سوريا ؟

ــ وكيف اعود ؟ هل هذاممكن ؟ هل سمعت بقروي هاجر الى المدينة ثم عاد الى القرية واستطاع ان يعيش فيها ؟

وسكتت لحظة ثم قالت :

ــ هل تعرف ان قدرنا جعلنا في حالة هجرة دائمة ؟ نحن نولد في القرية ، ثم نهجرها الى المدينة بحثا عن لقمة العيش . والقليل منا ينجحون في الهجرة من المدينة الصغيرة الى العالم الواسع .

ــ الاحظ ان احساسك بأصلك وقريتك وطائفتك مبالغ فيه .

ــ ابدا ، لو ان أية امرأة من طائفة غير طائفتي ، ومن قريةغير قريتي ، مرت في الظروف والاحداث التي صنعت حياتي لكانت مثلي ، سلمى أخرى ...

ــ من هي سلمى ؟

ــ مراراً ، القيت على نفسي هذا السؤال... الذين لا يعرفونني يقولون عني : امرأة سهلة ، متهتكة ، تستسلم لاول محاولة ... اما

الحقيقة فهي اني كما وصفني خليل الأزرق : « انسانة ضائعة » . يتيمة الأب والام ، بل أكثر يتماً منه ، لان ابي وامي على قيد الحياة . اما هو فلم يعرف له ابا ولا أماً ، فاستطاع ان ينسج شخصية لابيه وامه كما يحلو له ، وكما يتمنى ... كلما ارتكبت خطأ كان خليل يقول لي : « انت تنتقمين من ابيك » . كان يعتقد انني ادمر نفسي لاثأر لامي .

ــ هل تحقدين على ابيك ؟

ــ لست ادري . احيانا ارثي له . اتخيل انه هو ايضا ضحية الظروف . واحيانا ، عندما نختلف ، أتذكر كل الذي سببه لامي من أحزان .

ــ أين أمك الآن ؟

ــ عادت الى القرية ، ذليلة . وكنت احيانا احقد عليها هي ايضا ، لانها هزمت ، لم تحسن الدفاع عن رجلها وبيتها ... ربما كانت هي عقدتي . انا لا أسمح لامرأة أن تقهرني ...

وأفرغت سلمى الكأس مرة واحدة ثم قالت :

ــ ليلة امس ، عندما اقتحمت عليك هذه الغرفة ، ورحت ابحث عن اليزابيت وكأنها عدوتي منذ أن ولدت وولدت ، فلم أجدها هنا ، ازداد غضبي . كنت في حالة ضياع .

ــ هل كانت « اليزابيت » هي أيضاً تعرف خليل الازرق ؟

ــ ابدا ... ولكنك انت تشبه خليل الازرق ؟

ــ اشبهه ؟ أهذا مدح ؟

ــ انك لا تشبهه بالشكل ... ملامحك أكثر خشونة وادعى للاطمئنان . ولكن فيك بعضا من نبله .

— خليل الازرق نبيل ؟ هذه أول مرة اسمع فيها هذا الوصف عن خليل الازرق . فمن المؤكد ان الحب أعمى .

— بالعكس ، الحب يرى ما تعمى العيون العادية عن رؤيته . أنا لم اعرف الحنان الا مع خليل ... واعترف بانك اول رجل ، بعد خليل ، شعرت بالارتياح له ... هل تعرف لماذا ؟ لانني عندما دخلت غرفتك ليلة أمس ، كنت مستعدة لان استجيب لك عند اول مبادرة . ولكنك لم تفعل . لويت ذراعي وتركتني ابكي على صدرك ثم حملتني الى السرير ، وتركتني هناك . هل تذكر ما قلت ؟ قلت لي : « انا لم اتعود اغتصاب المنهارين . أفضل ان تكوني في كامل وعيك » واعترف لك أيضا بانني تضايقت . ولولا ان الخمرة كانت تثقل رأسي لما قبلت منك مثل هذه الاهانة . فانا اعرف كما تعرف انت اني اجمل من كل النساء الموجودات على شاطيء الريفييرا ، وان كل الرجال يشتهونني

ومد سعيد يده فضغط على يدها .

وهدأ صوت سلمى ، ثم تابعت كلامها :

— في الصباح قدرت موقفك ، وأعجبت به . ليس كل الرجال يتصرفون كما تصرفت . نفس الموقف فعله خليل الأزرق .

— ارجوك ، كفي عن الغزل بالاموات . لاتجعلي شبح المرحوم يقف بيننا ...

— وانت تغار من الموتى ؟

— على مثلك يغار الرجل حتى من الاشباح

— لا اظن ان مثلك يعرف الحب . كل امرأة في حياتك هي مجرد بطلة لقصة تريد ان تكتبها .

— وانت ؟ هل تعرفين الحب ؟

— لم أعرفه قط قبل ان التقي بخليل . قبله عرفت الجنس . كانت لي مثل كل البنات بعض المغامرات مع الصبيان من خلال اللعبة المعروفة ، لعبة العريس والعروس . ولكني اتذكر الآن انني كنت انفعل في دور العروس أكثر من كل البنات . وعندما كنت في التاسعة او العاشرة لا اعرف بالضبط . كانت قبلات واحضان ابن خالي ، وهو في مثل سني تشعل النار في عروقي . تماما كما أشعر الان مع اي رجل ...

وكانت ثلاثة كؤوس من الويسكي قد انتقلت الى رأس سلمى ، عندما راحت تروي ذكرياتها ، وكأنها تفكر بصوت عال ، وكأنها تحاول التخفيف من ضغط الذكريات على نفسها ...

* * *

استيقظت سلمى على صوت بكاء ، وكأن انسانا يتمزق قريبا منها ، فهبت مذعورة . لتتلقفها احضان امها . وتأملت الطفلة ذات الاعوام السبعة وجه امها . فرأت عينيها محمرتين ، والدموع تنهال منهما ، وهي تحاول أن تهدئ مخاوف سلمى ، بينما جسدها هي يرتجف . وعندما راحت تقبلها أحست سلمى بملوحة الدموع بين شفتيها . فاندفعت في البكاء . وامها تحاول عبثا أن تدعوها الى الهدوء والعودة الى النوم . وسلمى تسأل فيما يشبه الصراخ والبكاء : ماذا جرى ؟ لماذا تبكين يا امي ؟ هل اصاب ابي شيء ؟

— لا شيء ، لاشيء ، ابوك بخير .

— اذن لماذا تبكين ؟

— أنا لا أبكي . عيني مصابة بحرقة .

— ولماذا تدمع وتبكي عينك الأخرى .

واحتضنت الام ابنتها وهي تقول : الله يحرسك يا سلمى . عندما

تكبرين ستعرفين لماذا ابكي ...

كانت عائلة الشيخ لا تزال تسكن في بيت متواضع قريب من سوق الحميدية ، فقد كان علي لا يزال ضابطا صغيرا . ولكنه كان قد بدأ التمرد على علاقته بزوجته . فمنذ ان تخرج من المدرسة الحربية في حمص بدأ يتبرم بابنة خاله .كان يتذكر فيها بان أباها هو الذي أنفق على تعليمه ، كما كانت تذكره بالطفولة القاسية والقرية المسحوقة ...

ويوما بعد يوم ، كانت علاقات الزوجين تسوء . من الاهمال ، الى المعارك ، وتبادل السباب والشتائم التي طالما سمعتها سلمى. لم تكن تفهم سببا للمشاجرات الدائمة ، ولا لعصبية ابيها ، وتبرمه بكل شيء . وعندما كان يبدأ بالصراخ ، كانت الطفلة تبكي ، فتبكي معها اختها الصغرى ، وتلوذان بامهما التي تبكي بدورها ... وينقلب جو البيت الى ما يشبه المأتم . ثم يهدأ كل شيء ، ويغلق باب الغرفة الوحيدة على ابيها وامها ، وكأن كل شيء قد انطوى في ظلام الليل !

ولما انتقلت العائلة إلى الشقة التي اشتراها « علي الشيخ » في محلة « ابورمانة » اصبح لكل من الزوجين غرفة مستقلة ، واصبحت المشاجرات اقل ، والاهمال أكثر ، والاحزان أعمق .

* * *

— ومع ذلك ، كانت حياتنا في شقتنا الجديدة في محلة « ابو رمانة » افضل سنوات عمرنا نحن البنات ، لأن امي كانت تبيت معنا كل ليلة . وعندما كبرت ، وفهمت ... ادركت اي جرح كان يحز في نفس أمي ، وهي ترى زوجها يغلق على نفسه الباب كل ليلة .. كنا ، انا واختي، فرحتين باحضان أمنا ، غافلتين عن شوقها لاحضان أبي ، غير مدركتين أن المرأة عندما يهملها الرجل ، لا تأسى فقط على انعدام الحب

والجنس ، بل تهان كرامتها كانسانة وشريكة حياة .

واستمرت حياتنا تتطور على هذا النحو : ارتفاع في مستوى المعيشة ورفاهية في المظهر ، وزيادة في نفوذ أبي ، وانهيار اكثر فأكثر لحياتنا العائلية . اخذ ابي يغيب عن البيت اياما ، بحجة انشغاله في تحقيق بعض القضايا ، ولكنه كان يعود مشرقا لامعا كأنه عائد من اجازة . واحيانا كان يقيم بعض الحفلات في شقتنا . وكنا نفرح بذلك ، لأن مثل هذه الحفلات كانت تعيد الى بيتنا بعض مظاهر البهجة ، وترد الى امي شيئا من اعتبارها . كانت امي قد يئست من استعادة ابي ، فأصبحت ترضى بمجرد الحفاظ على المظاهر بحجة الحرص على مستقبلنا وسمعتنا ... لم تعد تسأله اين يغيب ، ولماذا يغيب . بل كانت تكذب علينا اذا سألنا عنه ، فكانت تدعي انه مسافر ، احيانا في حلب او اللاذقية واحيانا في بيروت . ولكني كنت اقترب من الرابعة عشرة ، وبدأت اتساءل بالحاح أكثر : « اين يذهب ابي ؟ » ..

حتى كان ذات يوم ...

* * *

كان الوقت قرب الغروب. وودعت سلمى الشيخ زميلتها « غادة » التي تسكن في حي المهاجرين . وانطلقت مشياً على الأقدام في طريقها الى بيتها في الحي المجاور في « ابو رمانة » ... وعندما وصلت الى قرب تمثال « عدنان المالكي » لمحت سيارة ابيها تقف امام باب احدى الفيللات ونزل السائق ، ففتح باب السيارة الخلفي ، فترجل « علي الشيخ » ودخل باب الفيللا ، وانطلقت السيارة . وبدافع الفضول اقتربت سلمى من سور الحديقة الصغيرة التي تحيط بالفيللا . فكرت في أن تفاجىء اباها عند خروجه ، فراحت تطوف حول الفيللا للتعرف عليها ، هل هي منزل احد

الاصدقاء أم دائرة رسمية ؟

وقبل أن تصل مرة أخرى الى الفيللا كانت سيارة تاكسي تقف امام الباب وتنزل منها سيدة ، وتهرع الى الباب ... ولكن سلمى كانت قد تعرفت عليها . تذكرت ان هذه السيدة جاءت مرة الى شقتهم . ما أن رأت سلمى وعرفت انها ابنة الضابط « علي الشيخ » حتى راحت تقبلها ، وهي تبكي . وتذكرت سلمى انها سألت أمها ، بعد انصراف السيدة : من هي ؟ ولماذا كانت تبكي ؟ واجابت امها : انها زوجة احد المعتقلين الذين يحقق معهم بابا » .

شعرت سلمى بسخونة حادة في رأسها : « ماذا تفعل هذه السيدة مع ابيها في هذه الفيللا ؟ » . كانت أكبر من أن تجهل نوع الاحتمالات التي يمكن أن تجري داخل الفيللا ، وكانت اصغر من أن تغفر او تتجاهل أو تسيطر على أعصابها . واحست بالنار تنزل الى فمها وصدرها . وعاودها طعم الدموع المالحة الذي لا تستطيع ان تنساه ، منذ ان بكت امها في فمها وهي طفلة في السابعة ... غيرة على أبيها ، غيرة لإمها ، غيرة لنفسها ، لا تدري ، ولكنها وجدت نفسها تقرع باب « الفيللا » بعنف . وعندما رأت وجه الخادم « النوبي » المنزعج يطل من وراء الباب الذي فتحه فتحة صغيرة ، دفعته في عنف ، واقتحمت الطريق الى الداخل وهي تقول : قل لعلي بك ، ابنته هنا .

وقال الخادم مضطربا : علي بك ليس هنا !

وارتفع صوتها وهي تقول : كذاب . لقد رأيته بعيني يدخل منذ دقائق. اذهب واخبره ، وألا فسأذهب انا !

وارتفع صوت الخادم بدوره ، كأنما يريد ان ينبه الذين في الداخل : انت غلطانة يا ست هانم ! .. علي بيه مش موجود ... احنا ما نعرفوش !

وقبل ان تنهال عليه سلمى بالضرب ، فتح باب الغرفة وخرج علي الشيخ بالقميص والبنطلون ، والاضطراب باد على وجهه ، وهويصيح :

— سلمى ؟

وانخرطت سلمى في البكاء وهي تصرخ في حالة هستيريا : ماذا تفعل هنا يا ابي مع هذه المرأة ؟

— اخفضي صوتك ... عيب ...

— اخرج هذه المرأة القذرة ؟

— اخرسي ... بنت مثلك لا يجوز ان تتفوه بمثل هذه الالفاظ ، خصوصا امام ابيها !

ولا تدري سلمى كيف قالت : انت لست ابي . ماذا تفعل مع هذه المرأة ؟

وانهالت صفعة من يد علي الشيخ على وجهها .

واغمي على سلمى ...

* * *

هل تعرف كيف رددت الصفعة لأبي ؟

بعدما أعادني الى البيت ، انتابني هدوء عجيب. لم أخبر أمي بشيء ، بل قمت واخذت دوشا فاترا ، واستعملت احمر الشفاه لاول مرة في حياتي ، وارتديت ثوبا كان لي وانا في الثانية عشرة من عمري ، وتسللت من البيت متجهة الى ساحة المعرض . وكانت نظرات الرجال وصفيرهم تلاحقني ، فدمشق لم تكن قد تعودت بعد على« الميني جوب » . وقبل ان اصل الى ساحة المعرض ، مرت بي سيارة يقودها ضابط شاب . توقفت السيارة بجانبي ، وقال لي الضابط : هل تحبين أن اوصلك الى مكان ما ؟

وفتح باب السيارة ، وجلست بجانبه .

* * *

عندما اكتشف الضابط ان رفيقته الصغيرة عذراء ، وانه هو الذي افقدها بكارتها ، اضطرب وقلق وخاف وقال لها في فزع : لم اكن اعرف !

واجابته بهدوء أدهشه : لماذا انت خائف ؟ اليس ذلك طبيعيا ؟ كان لا بد ان يحدث يوما ما ، وقد حدث الآن .

* * *

وضحكت سلمى وافرغت كأسها الخامس وهي تقول ضاحكة :

— اعطاني مائة ليرة . اعتقد انني محترفة .

وضحك سعيد بدوره وقال :

— وهل كان مخطئا ؟

وتابعت سلمى روايتها وكأنها لم تسمع سعيد فقالت :

— لست نادمة على شيء . كل ما يسميه الناس أخطاء او خطايا ليست سوى ردود فعل لانفعالات متناقضة سيطرت علي ، ولم استطع انا ان اسيطر عليها ولا على نفسي ... حقد ، غضب ، نرفزة ، انتقام ، مهانة ، كرامة ، فوران جنسي ... كل ذلك يختلط بعضه ببعض ، وينفجر في شكل تصرف كان يصفه ابي بالطيش والمعصية والخطيئة . وعندما كنت أسمعه ينهال علي تقريعاً ولوما وتأنيباً ، كان ذهني ينصرف الى خطاياه ومعاصيه ، فاتساءل : كيف تكون تصرفات شابة غير مرتبطة بأي التزام ، ولا يحمل سلوكها اية اساءة لاحد ، هي تصرفات مشينة

ولا اخلاقية وتسيء لسمعة العائلة ... بينما نفس التصرفات وأسوأ منها لا تشين رب عائلة ؟

ــ الا يساورك قط شعور بالندم ؟ وهل من المعقول ان تدمري حياتك لمجرد الانتقام من ابيك ؟

ــ كثيرا ما يساورني الندم . ولكن كبريائي تمنعني من الاعتراف بذلك . ثم اتساءل :

ــ هل أنا المسؤولة عن دمار حياتي ؟ لماذا أخرجني أبي من دمشق وبعث بي الى كلية البنات في بيروت ؟ ... الجواب انه كان يخشى ان تتكرر حادثة الفيللا ... كان ابي يعيش مندفعا نحو السلطة والنفوذ . فتحت الدنيا ابوابها له ، وانهال عليه المال . المال الحلال والمال الحرام كلاهما بدون رائحة . والمال المفاجىء يدير الرؤوس . انه كالخمرة لا يقوى عليها كل الرجال . وكلما ازداد ثراء ازداد بعده عنا ... يبدو ان هذا هو مصيرنا المحتوم . جدي كان فقيرا ، فابتعدت عنه خالتي « غزالة » من اجل بضع ليرات . وأبي ابتعد عنا لأنه أصبح يمتلك الوف الليرات ... لقد ارسلني الى كلية البنات في بيروت ، ودفع مسرورا مصاريفها الباهظة ، حتى إذا سأله احد : « اين تدرس المحروسة ؟ » يجيبه : « في الجونيور كولدج » . يلفظها بالانكليزية للايحاء بالثراء والانتماء الى الطبقة الراقية .

ــ وما هي حكايتك مع الأستاذ الاميركي ؟ هل دبرت هذه الفضيحة لكي تفسدي على ابيك متعة التباهي بانتسابك الى « الجونيور كولدج » ؟

وانتفضت سلمى وقالت لسعيد :

ــ من اين عرفت ؟ هل أخبرك سامي الشريف ؟

ـــ هل نسيت اني صحفي ؟

ـــ ما رأيك انك تجهل الحقيقة رغم انك صحفي ؟ هل تصدق ان هذه الفضيحة التي كتبت عنها الصحف ، وكانت سبباً في اخراجي من الكلية ، وتسفير الاستاذ من لبنان ، كانت العلاقة البريئة الوحيدة في حياتي ؟ انا الذي فقدت عذريتي مع ضابط لا أذكر أسمه الآن ، ومقابل مائة ليرة سورية ، ولم يعرف بهذه القصة احد ... اصبح بطلة فضيحة تنشرها الصحف ، لمجرد ان استاذي ابدى نوعا من الاستلطاف ، وبادلته نفس المشاعر ... ولم يزد الأمر عن ذلك ! ... كم في هذه الدنيا من مهازل ؟ الانسان يعاقب على الجريمة التي لم يرتكبها . لقد دفعت غاليا ثمن العلاقة الوحيدة الشريفة في حياتي ... بينما استمتعت كثيرا في كل العلاقات الاثمة ... هل هذا عدل ؟

ـــ عدالة الحياة تختلف عن عدالة القضاء . ليس المهم ان تعاقبي على نفس الجريمة . بل لعل العقوبة تكون أكثر ايلاما عندما تأتي في اللحظة التي لا نتوقعها ، وعلى ذنب لم نقترفه . المهم ان لا تصيب الا المذنبين ، فعندما تصيب الأبرياء يقع الظلم ، ولا اعتقد انك مظلومة !

ـــ انا لست مذنبة ولا مظلومة ولا بريئة ، انا سلمى بنت علي الشيخ ، لا أريد أن أكون أكثر من ذلك . مجرد مخلوقة صنعتها ظروف خارجة عن ارادتها ، ولدت في عصر خاطىء ، على جانب الخطأ ، من خطوط العرض ، فاعفني من احكامك ، ودعنا نفكر في رحلة الغد .

ـــ هل تخشين التحقيق ؟

ـــ لا علاقة لي بالتحقيق .

ـــ لكن لك علاقة بخليل الأزرق .

— لا أظنها تهم التحقيق . فعلاقتي بخليل ، كانت حالة خاصة لا دخل لها في كل اعماله وعلاقاته التي ادت الى مصرعه .

— العجيب انك الشخص الوحيد الذي يتحدث عن خليل الازرق بكل هذا الحب . الكل متفقون على انه كان رجلا بلا اخلاق ولا قيم .

— تختلف صفات الناس باختلاف العين التي تراها . عين الشر لا ترى الا الشر . وعين الخير ترى النبل حتى في أعين المجرمين .

— خبريني كيف رأت عينك نبل خليل الازرق ؟

* * *

— هل تسمحين لي ؟ سأطلب كأسين من العصير . لا أريد ان أشرب الخمرة معك . اريد ان نتحدث ونحن في كامل وعينا . هل تصدقينني اذا قلت لك انك اول امرأة اشعر معها انني قريب الى قلبها ، وهي قريبة الى نفسي ؟

وذهلت سلمى الشيخ وهي تسمع هذه الكلمات الحارة تنساب من بين شفتي خليل الأزرق الذي طالما سمعت عنه أحاديث تصفه بانه رجل بلا عواطف ولا قلب . وعندما اتصل بها في « اتيلييه كريستيان ديور » يقترح عليها اللقاء في مطعم « داهو » تنبهت فيها غريزة الحذر ، وقبلت كلون من التحدي ، وذهبت اليه متحفزة ، مستعدة لمواجهة اي هجوم ، اوحيلة من حيله ... ولكنه عندما بدأ يروي لها قصة حياته ، كان كل حذرها قد تبدد ، وحل محله العطف وهو بداية كل حب .

ــــ انا مثلك ، خرجت الى الحياة محروما من حنان الام وعطف الاب . واكثر من ذلك ، ، عانيت الفقر الذي لم تعانيه ، وحرمت من العلم الذي حصلت انت عليه . وانا مثلك واجهت الحياة معتمدا على نفسي ، وعلى فقدان الثقة بالناس ، واستطعت ان ابني نفسي بنفسي . لدي أموال اوفر من ان تبدد ولو على موائد القمار . وكثيرا ما سألت نفسي : اين ستذهب هذه الأموال . ولكن الحياة ليست قاسية كما تظنين . اننا نحن الذين نقسو على أنفسنا ... لماذا دخلت الفيللا ؟

وانتفضت سلمى . من اين يعرف قصة الفيللا ؟ هل بلغت علاقته بأبيها حد اطلاعه على قضاياهم العائلية ؟ (قالت سلمى لنفسها) .

وعلى طريقة خليل الأزرق ، ألقى اليها ببعض المعلومات عن حياتها ، مما جعل سلمى تتوقع في أية لحظة انه قد يحدثها عن الضابط الشاب الذي لم تبح بقصتها معه لاحد قط .

وتابع خليل الأزرق :

ــــ انا لا الومك على شيء . على العكس انا افهمك تماما واقدر كل ظروفك . فقط اريد ان اقول لك : « ان المعرفة احيانا تثقل نفوسنا بالعذاب . وافضل منها ان نجهل او نتجاهل ! »

* * *

ــــ ليلتها سيطر عليَّ خليل الازرق بحديثه . وعندما انتهى العشاء والحديث في مطعم « داهو » ، كنت انا التي طلبت منه ان نذهب الى « الكلوب » حيث شربنا ورقصنا ثم ذهبنا في ساعة متأخرة من الليل

الى شقته . وكانت مفاجأة تلك الليلة انه أغلق علي الباب ، متمنيا لي ليلة سعيدة ، تماما كما فعلت ليلة أمس ، مع اختلاف بسيط ، هو انني نمت في سريرك بالامس .

— لم اكن اظنه شريرا الى هذا الحد ، فتلك هي الطريقة المثلى لتذويب مقاومة مغرورة مثلك .

وقذفت سلمى بالكأس السادسة، ثم قالت لسعيد الطرابلسي :
— لماذا تحب أثارتي ؟ انت وحدك الذي اخترتك لكي أبوح لك بما في صدري. فهل هذه مكافأتك لي ؟

— حتى الان لم تخبرني عن الجانب المتفوق في شخصية خليل .

— تقصد تفوقه الجنسي ؟ هذا صحيح .كان رجلاً غير عادي ، قادرا على ارضاء كل امرأة . ولكن ليس الجنس هو ما احببته فيه . صحيح ان الحب لا يدوم بغير الجنس ، ولكن الجنس وحده لا يخلق حبا . ولقد عرفت الجنس قبل خليل الأزرق ولم اعرف الحب. ولكني معه ذقت للجنس طعما جديداً لا اظنه يتوفر بغير الحب . الحيوانات تمارس الجنس ، وبشبق اشد من الانسان ، ولكن الانسان وحده ، يصل الى درجة من النشوة لا يعرفها كائن آخر لانه يعرف الحب ... هل تعرف أن الجنس عندي يذكرني بزهرة غريبة منتشرة في الشام اسمها « الحنبلاس » لها حبات صغيرة صفراء اللون ، تتفتح الحواس لرائحتها ، فلا تملك الا ان تغمض عينيك من النشوة وانت تستنشقها ؟ وهل تعرف انني عندما اخبرت خليل الازرق عن ذلك ، كان يحضرها لي من الشام بالطائرة ؟ ..

ولم ادخل ليلة مخدعه الا وازهار الحنبلاس بجوار السرير !

وملأ سعيد كأس سلمى ، ولكنها ازاحته بيدها قائلة :

ــ هل تدرك الآن مدى فجيعتي بخليل الازرق ؟ لقد عدت بعد مصرعه الى عالم الضياع وإلى الوحدة التي كان قد انقذني منها فترة .

ــ اين كنت عندما وقعت الجريمة في « الترافي موندي » ؟

ــ كنت في باريس . لم أصدق في بداية الامر . تمنيت لو تكون خطأ صحفيا . فاتصلت بمكتب ابي ، فعرفت انه في « هامبورغ » وان البوليس الالماني يحقق معه بتهمة اغتيال خليل الازرق .

ــ وبالطبع ذهبت الى هامبورغ » !

ــ لماذا ؟ لقد مات خليل ... ولم يبق لي الا الاحزان . لقد مر علي اسبوع لا أستطيع النوم الا بعد ان اشرب زجاجة كاملة من الويسكي . ثم فررت من الخمر الى الجنس . كنت انام مع ثلاثة رجال في ليلة واحدة ، حتى جاء سامي الشريف ، واصطحبني الى لندن ، ومنها الى مونت كارلو» !

ــ هل هذا يعني انك تتهمين اباك ؟ وهل كنت تهربين من الحزن، ام من هذا الاتهام ؟ .

ــ لم يخطر في بالي ، ولا يمكنني ان أصدق ان ابي هو القاتل . لماذا يقتله ؟ لقد كانا شريكين ، وارباحهما تتدفق بغير حساب .

ــ غيرة على شرف ابنته !

وهنا ضحكت سلمى ، وأخذت الكأس الذي كانت قد أزاحته ، وانشغلت في شربه . .

وعاد سعيد الطرابلسي يسأل : أو غيرة على سكرتيرته « ريتا » ...

وقلبت سلمى شفتها السفلى ...

ولما طال الصمت ، حاول سعيد ان يخرجها من حالة الصمت التي هبطت عليها فجأة ، فقال : وماذا تفعلين اذا ثبت ان اباك هو القاتل ؟

ووقفت سلمى ، وقد ظهر عليها الانفعال وقالت :

ـــ هذا افتراض ارفض التفكير فيه ... قم بنا لننام !

١١

خيّل إلى سلمى الشيخ أن سعيد الطرابلسي يتكلم في منامه . كان النعاس يثقل جفنيها . وكانت الرغبة لمزيد من النوم تلح على أعصابها . فهي لم تستسلم إلى النوم إلا بعد أن انسابت أنوار الفجر الرصاصية من فوق وجه الماء ، إلى الشرفة ، إلى داخل الغرفة . لذلك بدا صوت سعيد وهو يتحدث في التليفون وكأنه آت من بعيد ، من عالم آخر ، ولكن الصوت استمر ، وأخذ يقترب ويتضح ويصل إلى أذنيها من الجانب الذي ينام فيه سعيد . وعندما فتحت عينيها المثقلتين بالنعاس ، رأت سعيد يمسك سماعة التليفون ، ويتحدث همساً ولكن في صوت واضح... وتساءلت متبرمة : « كم الساعة الآن ؟ » . ولما لم يرد عليها ، زحفت إلى الجانب الآخر من السرير ، وتناولت ساعتها .

— اوف ... الساعة تجاوزت الواحدة بعد الظهر .

وانتصبت في السرير . كانت عارية تماماً . وكذلك كان سعيد

الذي أخذ يتحدث بصوت عال ، ويضحك مع الذي كان يتحدث معه على الخط .

ـــ لهذه الدرجة ؟

ـــ ...

ـــ وأنا أيضاً تأخرت في النوم ، بقيت حتى الساعة الخامسة صباحاً أقرأ قصة « اعترافات امرأة » !

ـــ ...

ـــ لا أعتقد أن في الإمكان الاجتماع على البلاج . عليّ أن أعد حقائبي . هل حجزت على الطائرة ؟

ـــ ...

ـــ عال ، اذن نلتقي في مطار نيس .

ـــ ...

ـــ سلمى تركتني في الثانية ...

ـــ ...

ـــ ليست في غرفتها ؟ سأحاول الإتصال بها . مع السلامة . إلى اللقاء !

وأقفل السماعة . والتفت إلى سلمى وقال : كان يروي لي مغامرته الأخيرة ... لم تتركه « طوني » ينام الليل !

وانفجرت سلمى ضاحكة .

ـــ ألم يقل لك أيضاً أنها مثل النار ؟

ـــ بالضبط .

ـــ مسكينة . أفضل لها لو كانت باردة . لا بد أن تكون قد احترقت بنارها طول الليل !

وتضايق سعيد .

— ألن توفري حتى سامي من لسانك ؟ ألم يخلق الله رجلاً غير خليل الأزرق ؟ (ولم تغضب . مدت يدها تعبث بشعر صدره .

— الرجال كثيرون ، ولكن سامي الشريف ليس واحداً منهم .

— غريب ... رجل يحميك ، ويحاول انقاذ أبيك من السجن ، وتقولين عنه مثل هذا الكلام ؟

— علاقة سامي الشريف بأبي علاقة مصلحة . تجاوزت استثماراتنا المالية لديه العشرين مليون دولار .

— عشرين مليون دولار ؟

— وأكثر ... سامي الشريف رجل مال ناجح وأمين مائة بالمائة . ولكنه كعاشق ودون جوان فاشل مائة بالمائة !

— كيف ؟ .. كل ليلة يتناول وجبة جديدة من النساء . والتعبير لك على ما أذكر ! (ورنّت ضحكتها لدرجة اضطر سعيد أن يضع يده على فمها .

— يستطيع أن يبيت كل ليلة مع ألف امرأة ، ولا يفعل شيئاً على الاطلاق !

وبمزيج من الدهشة والفضول ، أراد أن يستزيد من معلوماتها ، وهو غير مصدق أن هذا المليونير الشاب عاجز جنسياً .

— ماذا تريدين أن تقولي ؟ عاجز جنسياً ؟

— ليس تماماً ... إنه رجل أسرع من اللازم .

— لم أفهم

— ماذا أقول لك حتى تفهم ؟ ... ما أن يبدأ مع المرأة حتى ينتهي .

وأحياناً ينتهي قبل أن تنتهي المرأة من خلع ثيابها .

— هذه تشنيعة . هل يعقل أن يكون هذا الرجل المغامر الذي يأبى أن يكون أسير امرأة واحدة ، أية امرأة ، ضعيفاً جنسياً ؟

— الرجال أسرار مثل النساء . والجانب الجنسي شديد التعقيد . ولا أظن أنك في حاجة إلى درس في الجنس من فتاة مثلي تصغرك بعشرين عاماً !

— أولاً أنني أكبر منك بخمسة عشر عاماً على الأكثر إذا كنت في العشرين ... ثانياً ، اعترف بأنك أستاذة في ممارسة الجنس !

— التكرار يعلم الحمار ... ولكني أحب أن أخبرك بشيء لا بد أن تعرفه ، فانت كاتب . عندما تبدع المرأة مع الرجل ، فالفضل في معظم الأحيان يعود للرجل . أن الجنس عملية تجاوب . والمرأة بحر ، في أعماقه كل شيء ، والنتائج تتوقف على الغطاس . بعضهم يخرج بصدف . والبعض يعرف كيف يكتشف اللؤلؤ . والبعض يستطيع أن يصنع من الصدف تحفاً ثمينة ... » .

وأعاد سعيد الحديث عن سامي .

— وسامي لا يجيد الغطس على الأطلاق ؟

— ولا حتى السباحة . إنه يغرق في شبر ماء !

واستطردت ، كأنها تذكرت شيئاً :

— هل تعرف قصة مدير البنك الذي وقع في غرام جارته ؟ كانت الجارة امرأة حسناء ، وكان مدير البنك يسكن الشقة المقابلة لشقتها .

ولاحظت أنه يراقبها بواسطة منظار مكبر ، كلما خلعت ثيابها أو أوت إلى فراشها مع زوجها . وصباح ذات يوم ، وكان زوجها قد خرج إلى عمله ، لاحظت أن جارها يراقبها بالمنظار ، فأشارت إليه بأن يحضر

إلى الشقة ، ولم يكذب الرجل خبراً . وعندما دخل شقتها سألته : « لماذا تراقبني صباح مساء ؟ » وأجاب : « لأنني معجب » . قالت : « علمت أنك مدير بنك ، وفي استطاعتنا أن نتفق ، لعل ذلك يطفئ نارك . » وفعلاً اتفقا على ألف ليرة . وعندما انتهى مدير البنك قال لجارته الحسناء : « أنت تعلمين أن مدراء البنوك لا يحملون عادة أموالاً سائلة ، وسأرسل لك الألف ليرة بمجرد وصولي إلى البنك » . ولكن يبدو أن الرجل قد وصل إلى مكتبه بعد أن بردت عواطفه ، فأرسل لها خمسمائة ليرة بدلاً من الألف الذي اتفقا عليها . وعندما استلمت المرأة الخمسمائة ليرة . ارتدت ثيابها وقالت للرسول الذي حمل المبلغ إليها : « تعال معي إلى البنك » . واعترضت سكرتيرة المدير الجارة الحسناء قائلة « البيك في مجلس الإدارة » فازاحتها من طريقها ، ودخلت عليه ، وبادرته قائلة أمام أعضاء مجلس الإدارة : « لماذا أرسلت لي خمسمائة ليرة ؟ لقد اتفقنا عندما زرت الشقة صباح اليوم على ألف ليرة » . ورد مدير البنك مبتسماً : « لقد اكتشفت أن الشقة مستعملة ، وواسعة ، وليس فيها تدفئة » وأجابت المرأة : « هذا غير صحيح . كنت تعلم أن الشقة مؤجرة . وهي ليست واسعة ولكن العفش الذي دخل إليها قليل ، كذلك فإن فيها تدفئة ولكنك لم تعرف كيف تدير أزرار الشوفاج » !

وعلقت سلمى على القصة :

— كل شيء يتوقف على الساكن كما ترى . عفش بعض الرجال قليل وبعضهم لا يعرف كيف يدير أزرار الشوفاج !

— وقصص سامي ومغامراته النسائية ؟

— كقصص البحارة العائدين من الموانئ البعيدة . لا أحد يكذبهم .

— ولماذا لم تتكلم أية امرأة عرفها كما تتكلمين ؟

— من يدريك ؟ ثم أن سامي كريم وظريف ... وأهم من ذلك ،

تعتبر المرأة فشل الرجل معها إهانة لانوثتها ، ولذلك تؤثر الصمت .

— ولماذا تتكلمين أنت ؟

ونظرت سلمى إليه وقالت :

— هل تعتقد أنني إمرأة فاشلة ؟

* * *

كانت سلمى نائمة في مقعدها بالطائرة . لم يكن في الدرجة الأولى ركاب كثيرون . وكان سامي وسعيد يجلسان على المقعدين المجاورين . وقال سامي وهو يشير إليها :

— يبدو أنها لم تنم ليلة أمس .

— ويبدو أنك أنت نمت جيداً .

— تكفيني أربع أو خمس ساعات . في العادة لا أنام أكثر من ذلك .

— النساء على العكس . في العادة ينمن كثيراً . ويسمونهن في لبنان « خم نوم » .

— إلا سلمى . إنها لا تنام في الليل . نموذج غريب من النساء . عشيقها مقتول ، وأبوها متهم بقتله ، وهي تتنقل من أحضان رجل إلى أحضان رجل آخر . وهي وحدها تعرف إذا كنت أنت آخر رجل عرفته خلال اليومين الماضيين !

— بالنسبة لي لم يحصل لي الشرف بعد

— على العموم ، لم تخسر شيئاً ... سلمى في الواقع ليست كما تبدو .

— يعني ؟

ـــ يعني أن جمالها المثير لا يتناسب مع برودتها . إنها ليست أكثر من تمثال من الرخام .

وابتسم سعيد واكتفى بالقول : ـ أنت أدرى !

وقال بينه وبين نفسه « يظهر أن الناس يختلفون في نظراتهم حتى للحقائق المجردة سامي الشريف يقول عن سلمى أنها باردة كالثلج . وهو يعرف بالتجربة أنها أتون ملتهب . واستعرض في ذاكرته نماذج من الآراء المتعارضة والمتضاربة التي سمعها عن نفس الأشخاص . هل خليل الأزرق شيطان وشرير كما يصفه الجميع أم هو نبيل وإنسان وصديق كما تصفه سلمى ؟ وهل سامي الشريف دون جوان كما يوحي للناس أم قاصر جنسياً كما تؤكد سلمى ؟

وتذكر لحناً لبنانياً ، وراح يدندن لنفسه : « وكما تراني يا جميل أراك » !

* * *

في مطار « هامبورغ » كان في انتظارهم راشد أبو المنى ومحمد أحمد وسكرتيرة المحامي « الهر جيرهارد » .

وقال سامي الشريف لسعيد الطرابلسي وهو يقدم له محمد أحمد : هو أيضاً مهاجر . مصري أبيض . مجرد غلطة فردية ... هل تذكر عندما وصفت حالتي في جنيف عام ١٩٦٣ بأنها مجرد خطأ فردي لا يجوز ادانة التجربة كلها به ؟ صديقي المصري هو أيضاً مجرد خطأ فردي ، وهو مثلي اختار الهجرة ! .

وتمتم سعيد وهو يتأمل محمد أحمد : تشرفنا . اسمي سعيد الطرابلسي أنا أيضاً صديق لسامي الشريف ، ولكني لم أهاجر بعد !

والتفت سعيد إلى راشد أبو المنى ، بينما كانت سكرتيرة « الهر جيرهارد » تتحدث مع سامي ، ثم قال : لقد سمعت عنك . سامي معجب بك كثيراً !

واكتفى راشد بابتسامة خجولة رسمها على شفتيه وهو يتمتم : شكراً .

وانصرف راشد إلى حديث هامس مع سلمى ، وراح سعيد يتبادل مع محمد أحمد حديثاً عاماً عن الطقس ، والأحوال وآخر اخبار مصر والبلدان العربية ... وفجأة سأله سعيد :

— وأنت ... ماذا أمموا لك ؟ مصانع أم أطياناً ؟

لم يبتسم ، بل قلب شفتيه في ازدراء وهو يقول :

— أمموني أنا ... ثمانية شهور كاملة لم أعد ملكية شخصية لا لنفسي ولا لأسرتي تحولت إلى ملكية عامة ... مجرد مرفق من مرافق الدولة !

وفجأة سأله :

— ألم يخبرك سامي عن قصتي ؟

— لم تكن هناك مناسبة ...

— إذن سأرويها لك بنفسي، حديثها طويل ولا أعتقد أنها قصة فريدة . هناك آلاف مثلي طحنتهم الآلة الرهيبة التي اسمها « المخابرات » . القليلون منهم هم الذين تيسرت لهم سبل الهجرة ، أو الهروب من أوضاع لم تعد تحتمل . أما الأكثرية فقد بقيت في مصر ، واستسلمت لأقدارها !

— وهل تعمل في ألمانيا ؟

— مستشار في شركة سجائر مقرها هنا في « هامبورغ » ... مستشار قانوني وعلاقات عامة !

— وما هي علاقتك بجريمة قتل خليل الأزرق ؟

— لا شيء ... اتصل بي سامي ، وطلب مني اختيار محام كبير ليتولى الدفاع عن صديقه « علي الشيخ » فاخترت له « الهر جيرهارد » . انه من النوع الذي يستطيع أن يجعل من المجرم بريئاً ، بل يستطيع أن يقنع المجرم نفسه بأنه بريء ! ؟

ثم استطرد وهو يضحك : أهمية المحامي في أي بلد تقاس بمقدرتين: التحايل على القانون ، والنفوذ السياسي ... والجريمة الكبيرة تحتاج إلى محام كبير !

* * *

— ليس أسهل من تبرئة متهم ذكي ، فحسن التصرف في التحقيق يفتح باب البراءة على مصراعيه أمام أي مجرم !

كان « الهر جير هارد » مجتمعاً بسلمى الشيخ وسامي الشريف وسعيد الطرابلسي وراشد أبو المنى ومحمد أحمد حول مائدة في بار « انتركونتننتال » في « هامبورغ » . وردت سلمى عندما اعتقدت أن « الهير جيرهارد » يصف أباها بالاجرام ، فقالت :

— أبي ليس مجرماً ، وهو لا يمكن أن يقتل شريكه وأعز صديق لديه .

— البراءة والإدانة هما الآن من حق المحكمة . وأنا لا يهمني إذا كان بريئاً أم مذنباً . كل ما يهمني هو جمع أدلة ، أو أن شئت الدقة تفنيد الأدلة لكي أثبت براءته .

وقالت سلمى : ألا يهمك تحقيق العدالة ؟ .

وأجاب المحامي الألماني : هناك أنواع كثيرة من العدالة . العدالة الإلهية لا نتدخل فيها ، لأنها لا تعترف بنظام المحاماة . أما عندنا ، فالعدالة

تتحقق بقطع عنق المتهم ، من وجهة نظر الإدعاء . وتتحقق بالبراءة من وجهة نظر الدفاع ...

وقاطعه محمد أحمد ضاحكاً : وبقبض مؤخر الأتعاب !

— ليست الأتعاب هي المهم ... الأهم انقاذ حياة إنسان طالما هناك ظل من الشك ... ثم لا تنس لذة النجاح في كسب القضية !

— كيف اكتسبت سمعتك بأنك محامي القضايا الصعبة ؟

— بالتعاون مع المتهم ...

ثم استطرد وهو ينظر مبتسماً إلى سلمى الشيخ :

— وقد أثبت علي الشيخ أنه خبير في التحقيقات الجنائية .

وقال سامي الشريف : طبعاً ... من يجيد التأليف يجيد التلحين !

— سمعت أن « علي الشيخ » كان محققاً في بلده ، ولذلك فقد كان أستاذاً مع المحققين . كان يرفض أن يجيب على أي سؤال يوجهه له البوليس ، لا يريد أن يجيب عليه ، متمسكاً بحقه في الكلام مع المحقق بحضور محاميه . كان يعرف أن المتهم هو سيد الكلمة التي لم يقلها .

وعاد محمد أحمد ليقول ضاحكاً :

— واحنا كمان كنا عارفين كده ، ورفضنا .

— وانتصرتم طبعاً !

— اقولك الحق ، اتنيلنا على عينا ... عندنا الكلام وعدم الكلام يؤديان إلى نتيجة واحدة . فالمحقق في بلادنا هو القاضي وهو السجان !

ولم يفهم الهر جيرهارد ما قصده محمد أحمد ، فقال :

— على فكرة . من حسن الحظ أن قاضي التحقيق هو « الهر شتوارت » . إنه رجل في الستين من عمره . عمل فترة في ظل الحكم النازي ، وعنده عقدة ضد تلفيقات البوليس . إنه يتحرج الحكم ظلماً

على متهم . ويفضل أن يفلت من بين يديه ألف مذنب على أن يدين بريئاً واحداً . وسوف نستثمر هذا الشعور النبيل عنده إلى آخر مدى !

وتدخل سعيد الطرابلسي لأول مرة في الحديث ، فسأل « الهر جيرهارد » :

ـــ هل أنت مقتنع بأن علي الشيخ قاتل أم بريء ؟

ـــ هذه مهمة « الهر شتوارت » وليست مهمتي . المحامي لا يرى عادة إلا نصف الكأس الملآن . والادعاء عادة لا يرى إلا نصف الكأس الفارغ . وعلى القاضي وحده تقع مسؤولية إصدار الحكم !

وسأل سامي الشريف :

ـــ هل سيصل « علي الشيخ » إلى المحكمة ؟

ـــ في الإمكان تخلية سبيله من قبل قاضي التحقيق إذا تعاون معنا الشهود ، وبصورة خاصة « ريتا » التي يقول علي الشيخ أنه كان معها في غرفة واحدة في فندق « شارلوت » وقت وقوع الجريمة ... ثم الهر راشد أبو المنى الذي اتصل تلفونياً بعلي الشيخ من فرانكفورت وجاء لمقابلته في « هامبورغ » !

وقال راشد أبو المنى : من جهتي سأقول الحقيقة .

وانحنى محمد أحمد على « الهر جيرهارد » وهمس في أذنه بعض الكلمات . ولم يلبث الرجلان أن تطلعا نحو سعيد الطرابلسي . وقال « الهر جيرهارد » :

ـــ اعتقد أن في الإمكان الحصول على اذن للهر طرابلسي لحضور جلسات التحقيق بصفة مستمع . لقد سألت « الهر شتوارت » فلم يمانع . واعترف لكم بأني كذبت عليه . قلت له أنه محام . ولو قلت له بأنه صحفي لما سمح له بالحضور أبداً ...

وقال سعيد الطرابلسي :

ـــ انت لم تكذب يا هر جيرهارد ، فأنا فعلاً أحمل ليسانس حقوق ومسجل في جدول المحامين ، بالرغم من أنني أعمل في الصحافة فقط !

وتنهد « الهر جيرهارد » وقال له :

ـــ لقد أرحتني ... كنت متضايقاً فعلاً لأني كذبت .
ونظر إلى محمد أحمد وقال :

ـــ ولكن ماذا أصنع مع هذا الذئب ؟ لا استطيع أن أقول له « لا » ، ولا أدري كيف فرّطت به بلاده وتركته يخرج منها !

وضحك محمد أحمد ـ وهو يضحك دائماً ـ وقال :

ـــ عندنا مثل عربي يقول « لا كرامة لنبي في وطنه » .
وانصرف الحاضرون لترجمة المثل والتعليق عليه !

* * *

بعد انصراف « الهر جيرهارد » وانسحاب سلمى الشيخ إلى غرفتها ، بقي الرجال الأربعة : سامي الشريف ، وسعيد الطرابلسي ، ومحمد أحمد ، وراشد أبو المنى ، في البار .

وقال سعيد : يبدو أن العدالة واحدة في كل مكان . فالذي يملك

أجر المحامي الكبير يصبح القانون في صفه . لقد لاحظت أن « الهر جيرهارد » لا يهتم بمعرفة إذا كان علي الشيخ مذنباً أم بريئاً بقدر اهتمامه بحسن إفادة الشهود .

وقال محمد أحمد : على ماذا تعترض ، وأنت كما قلت تحمل ليسانساً في الحقوق ومسجل في جدول المحامين ؟ لنفرض أن المحامي البارع نجح في تسهيل افلات مذنب من يد العدالة ... هل هذا أكثر

اهانة للعدالة من الأنظمة التي الغت دور المحامي ، بل جعلت المحامي ينضم إلى الادعاء في طلب أقصى العقوبة للمتهم ، كما لعلك سمعت في بعض دول شرق أوروبا ؟ كم من الأبرياء يمكن أن يدانوا في مثل هذه المحاكمات ؟

وتدخل سامي الشريف ليقول : لماذا نضرب الأمثال بشرق أوروبا ؟ لقد وصل الأمر ، في بعض القضايا التي تولتها أجهزة المخابرات العربية ، ان الأبرياء كانوا يعترفون بجرائم لم يرتكبوها .

وقال محمد أحمد : إن تاريخ البشرية كله ، صراع بين تيارين . تيار يؤمن أن إدانة ألف بريء أفضل من إفلات مذنب واحد . وتيار آخر يفضل أن يفلت ألف مذنب عن أن يدان بريء واحد ...

وابتسم سعيد وقال : يبدو أنه من الصعب الحكم على المبادىء بتجرد ، خصوصاً عندما يكون للإنسان تجربة شخصية ، وخاصة مثل تجربتك ... هل اعترفت أنت أيضاً على يد المخابرات ؟

وخلع محمد أحمد نظارتيه ، ثم أخرج منديله ، وراح يمسح

زجاجها وهو يقول :

ـــ لم يحصل لي الشرف ، لسبب بسيط هو أنهم لم يحققوا معي ... كنت معتقلاً بلا تهمة .

* * *

لم يعامل محمد أحمد معاملة خاصة عندما اعتقلوه . جاءوا الساعة الثالثة صباحاً . في مثل هذا الوقت يعتقلون الناس . لقد عرف سر اختيارهم هذا الوقت من لص منازل التقى به في السجن . وقال له اللص بطريقته الخاصة : إن الجن الأزرق ينام في هذا الوقت مهما كان مصاباً بالأرق ، فلا بد أن تغفل عيناه في الساعة الثالثة صباحاً . لهذا يختار اللصوص ورجال المباحث هذه الساعة لمهاجمة المنازل ، مع فارق أساسي ، هو أن اللصوص يحرصون على عدم إيقاظ أصحاب المنازل ، أما رجال المباحث فلا يريدون إلا صاحب المنزل !

دهش محمد أحمد في البداية . اعتقد أن هناك استدعاء لاجتماع عاجل في الاتحاد الاشتراكي . ولكن ما أن تصفح وجوه الزوار ، والنعاس يغالبه ، حتى اكتشف أنه لا يعرف أي واحد منهم . وقفز خاطر إلى ذهنه : « هل حدث انقلاب ؟ » . لقد كانوا في التنظيم السري يحذرونهم من انقلاب تدبره الرجعية . وكان محمد أحمد يتوقع أن يقوم أحد أجنحة التنظيم باعتقال أفراد الجناح الذي ينتمي إليه . ولكن لم يخطر في باله على الإطلاق أن النظام يمكن أن يشك في ولائه ، فقد كان واحداً من الشباب الذين راهنوا عليه منذ قيامه . كان طالبا في الجامعة

عندما قامت الثورة . ومنذ الأيام الأولى ، أدرك أنه ليس هناك الا خيار واحد ، اما أن تكون مع النظام الجديد أو ضده . وعندما شكلت منظمة الشباب في الجامعة ، فهم ان الذين سينضمون الى هذه المنظمة هم الذين سينالون البعثات العلمية ، وهم الذين سيشغلون المراكز القيادية . ولو ترك الخيار لمحمد أحمد لما اشتغل في السياسة . كان يفضل أن يكون محامياً ناجحاً ، ولكن عندما شعرت الثورة بعزلتها بعدما حلّت الأحزاب ، أصبحت السلطات السياسية تهتم بتحديد الانتماءات السياسية للطلبة . ولم تعد فكرة الطالب الذي ينتمي الى احد مقبولة . وعندما أممت الشركات ، فقدت مهنة المحامـــاة مواردها ، واصبح الأمل الوحيد لحامل شهادة الحقوق ، هو أن يعين في احدى المؤسسات أو أن يدخل في التشكيلات السياسية الحكومية ليصل الى المراكز القيادية . ولأنه لم يكن منتمياً عن قناعة ، فقد نجح نجاحاً باهراً . كان يعرف ماذا يريدون فيقوله . والمحترف دائماً أكثر توفيقاً من الهاوي . والذي قاده الى الرهان على النظام معرفته بأن الجيش في العالم الثالث ، هو القوة الوحيدة القادرة على الاحتفاظ بالسلطة ، فليس في مصر أحزاب حقيقية ، ولا قواعد طبقية واضحة يمكنها فرز قيادات سياسية . وكان محمد أحمد يعتقد أنه لا يمكن للجيش أن يتنازل عن الحكم بعد أن وصل إليه . وعملاً بالقول المأثور « من يتجوز أمي أناديه عمي » .

انخرط محمد أحمد في تنظيمات الثورة حتى وصل إلى منصب أمين المعهد الاشتراكي ، وأصبح عضواً في التنظيم السري ، فكان هو الذي يفحص طلبات العضوية في الاتحاد الاشتراكي ، ويقرر من الموالي ومن غير الموالي .

وهناك حادثة كان يحلو لمحمد أحمد أن يرويها كلما تحدث عن

تنظيمات الثورة . مرة جاءه أحد الكتاب يشكو من مصادرة كتبه ، وكان محمد أحمد قد قرأ بعض هذه الكتب ، وأعجب بأسلوب صاحبها وغزارة معلوماته . فلما جاء إليه بادره قائلاً : أنت خسارة كبيرة ... لماذا تضيع وقتك ومواهبك ؟ هل أستطيع أن أعرف لماذا لا تعمل معنا ؟

ولم يخرج الكاتب من مكتبه إلا وقد أصبح عضواً بارزاً في الاتحاد الاشتراكي ، بل وعهدت إليه مسؤولية مراقبة الكتب !

ويعلق محمد أحمد على هذه الحادثة فيقول : الحقيقة أنه لم يكن هناك أعداء حقيقيون للنظام ، ولكن بعض الذين يتولون المراكز القيادية ، كانوا يحرصون على إثبات وجود أعداء للنظام ، ليبرروا وجودهم في مراكزهم . وكانت تصرفاتهم تدفع الناس دفعاً إلى عداوة النظام .. »

كل هذه الخواطر والأفكار مرت في مخيلته عندما جاءه زوار ما بعد منتصف الليل . وكما حدث مع سامي الشريف في دمشق حدث مع محمد أحمد في القاهرة ، فقد قالوا لأمه : « إن القضية لا تستاهل القلق . سؤال صغير ، ثم يعود إلى البيت ! » .

* * *

أخذوني إلى أحد أقسام البوليس حيث بقيت هناك أسبوعاً كاملاً فشلت خلاله في معرفة الأسباب التي أتوا بي إلى القسم من أجلها ، كما فشلت في الاتصال بعائلتي أو بأي مسؤول في التنظيم السري . وبعد ذلك نقلوني إلى معتقل القلعة ...

وضحك محمد أحمد وقال : إنه استخدام عصري للقلعة

التي بناها صلاح الدين الأيوبي قبل ألف سنة ، ليضع فيها أسرى الصليبيين وجددها محمد علي ، ونظم فيها مذبحة القلعة الشهيرة ... المهم بقيت القلعة مهجورة من أيام محمد علي ، حتى اكتشف أحد عباقرة المباحث ، أن قاعاتها الفسيحة التي أعدت لكي تتسع لأكثر من مائة فارس بخيولهم ، يمكن أن تتسع لألف معتقل ، وأن جدرانها الضخمة من الصخر في قلب الجبل ، كفيلة بكتم كل الأصوات .

وكان هناك أكثر من ألف معتقل في القلعة . وكان هذا العدد الضخم مطمئناً من خطر الاغتيال قبل الطعام أو بعده ...

وضحك محمد أحمد مرة ثانية وقال : لا أعرف إذا كنتم قد قرأتم عن هذه المذبحة . لقد دعا محمد علي زعماء المماليك لحفلة غداء . وهناك خلاف في الرواية بين المؤرخين : هل ذبحهم قبل تقديم الطعام أم بعده ؟ . ولست أدري لماذا كنت في كل مرة ، يوزعون علينا الطعام ، أتذكر دعوة الطعام التي وجهها محمد علي لضحاياه المماليك ..

ثم استطرد : مسكين محمد علي ، لم تكن عملية الاعتقال قد حلت محل المذابح ، فالاعتقال هو صيغة حضارية لتصفية الذين يخالفون

الحكام . ميزة محمد علي أن مذبحته لم يذهب ضحيتها مصري واحد على سبيل الخطأ . كانت أجهزته أدق !

وقال سعيد الطرابلسي : الخطأ لم يكن وارداً ، لأن فرز المماليك كان أسهل . كان بينهم وبين المصريين فارق واضح في اللون والشكل .

وتابع محمد علي : المهم ، أن الذي لا أستطيع أن أنساه ، أن ما

من أحد من رؤسائي أو زملائي في الاتحاد الاشتراكي أو التنظيم السري قد وجد عنده الجرأة ليسأل : لماذا أنا معتقل ؟

وضحك سامي الشريف وقال : هذا إذا كانوا اكتشفوا أصلاً أنك معتقل !

— صحيح . لقد عرفت بعد خروجي من المعتقل أن الناس كانوا يختفون دون أن يجرؤ أحد حتى على السؤال عنهم ، تماماً كما يحدث في شوارع نيويورك ... يقتل الرجل في عرض الطريق ، فلا يتوقف اندفاع السير لحظة واحدة ، ولا يلقي أحد نظرة عليه .

— كم بقيت في المعتقل ؟ (قال سعيد الطرابلسي) .
— حوالي ثمانية أشهر .
— ألم تعرف السبب الذي اعتقلوك من أجله ؟

— نعم ، عرفته فيما بعد ... فخلال زوبعة التحقيق مع الاخوان عام ١٩٦٦ ، قال أحد الذين قبض عليهم أنه كان معهم في التشكيل شخص اسمه محمد أحمد يعمل في وزارة الشباب أو منظمة الشباب لا يدري . وتحوطا ، وحتى لا يفلت العدو ، قامت المخابرات باعتقال كل من اسمه محمد أحمد ...

وأفرغ محمد أحمد كأسه في جوفه ثم قال :

— لو كان محمد أحمد المهدي حياً لاعتقلوه !

ولأول مرة ، تدخل راشد أبو المنى في الحديث قائلاً :

ـــ أخشى أنك تعمد للمبالغة في رواية اعتقالك لتبرير هجرتك من مصر !

ـــ كلنا مهاجرون ... وأظن أنك أنت هاجرت ثلاثاً أو أربع مرات .

ـــ أنا هاجرت من الاحتلال الأجنبي .
ـــ العن . لو كان الأجنبي هو الذي اعتقلني لما هاجرت أبداً .
ـــ أنا فقدت وطني .

ـــ وأنا فقدت مواطنيتي بل شعوري بأني أملك وطناً ، وهذا أكثر قسوة علي ... عندما اعتقلت وجردت من كل الظلال التي يخلعها الانتماء للسلطة ، ووقفت عارياً من كل شيء ، أدركت أن ملايين مثلي يقفون عراة بلا حماية ولا أمن ... فإذا كان الخطأ يمكن أن يصيب أمين المعهد الاشتراكي ، فما هي ضمانات المواطنين العاديين غير المنتمين لتنظيمات السلطة ؟ أنا ابن الثورة ، أنا الذي لا يحيط بولائي شبهة شك ، أعتقل ، وأدخل السجن لمجرد شبهة في الاسم ... عندما أمرني الشاويش بخلع ملابسي في القسم ، خلعت معها كل انتماء للنظام ، بل وحتى للوطن ...» .

وقال سعيد الطرابلسي : ولكن النظام اعترف باخطائه ودان هذه الأعمال ، ومدير المخابرات في السجن الآن .

ـــ منذ عشرين عاماً ونحن ندين الذين سقطوا ... ولا يمكن لأي محمد أحمد أن يطمئن قبل أن يوجد قانون يدين الذين في السلطة إذا ما اعتدوا عليه ... يدينهم وهم في السلطة . عندما تصل يد القانون إلى

الآلهة المتربعين فوق عرش الحكم ، عندها يطمئن أي محمد أحمد إلى انه لن يخلع ثيابه لمجرد شبهة في الإسم !

وهنا ضحك سامي الشريف ، ومال على أذن سعيد الطرابلسي وقال له هامساً : « منذ تلك الحادثة ، لا يستطيع محمد أحمد أن يمارس الحب إلا وهو في ثيابه الكاملة . فمنذ اللحظة التي يخلع جاكيتته يفقد كل رجولته ، بل وحتى الرغبة في أن يكون رجلاً » .

وفي تلك الأثناء ، كانت المناقشة بدأت تحتدم بين محمد أحمد وراشد أبو المنى .

— عبد الناصر غير مسؤول عن تصرفات الموظفين الصغار .

— هذا كلام يقال في جنوب البحر الأبيض المتوسط . نحن هنا في أوروبا . وأظنك تعرف أنه ما من نظام يخضع لحكم المخابرات ، إلا ويصبح رئيس المخابرات هو الحاكم الفعلي ، وتغدو فضائل الزعيم أداة في يد رئيس المخابرات ... من كان يحكم روسيا ؟ ستالين أم بيريا ؟ ومن كان يحكم سوريا أيام الوحدة ؟ عبد الناصر أم عبد الحميد السراج ؟

— هل يمكن الحكم بدون مخابرات ؟

— هذه مشكلة الحاكم . كل بلد في العالم فيه مخابرات ، ولكن ضد من تعمل المخابرات ؟ هذا هو السؤال . عندما تستشري سلطات المخابرات وتلتهم حتى النظام ، يفقد النظام مبرر وجوده .

— لماذا لم ترفع صوتك في الاحتجاج عندما كنت جزءاً من النظام ؟ هل كان يجب أن تعتقل بفعل خطأ ما حتى تشعر بكل المظالم التي تتحدث عنها ؟

وأحس سعيد الطرابلسي بأن الحديث يوشك أن يتحول إلى مشادة ، فقال لمحمد أحمد : لم تقل لنا كيف خرجت من المعتقل ؟

— بنفس البساطة التي اعتقلت بها ، فبعد ثمانية شهور ، أفرجوا عني بلا تحقيق وعدت إلى منصبي وكأن شيئاً لم يكن . ومن يومها أخذت أسعى للخروج من مصر .

وعاد راشد أبو المنى يتكلم :

— عبد الناصر مات ... ولم يعد من المجدي أن نعدد خطايا نظامه . والمشكلة في اعتقادي أنه كان سابقاً لعصره . الأمة العربية لم تنضج بعد لتحمل رسالته ، فأرهقها وأرهقته .

وسكت راشد ، واكتسى وجهه حزناً مفاجئاً ، ثم قال لسامي الشريف :

— هل تذكر ، عندما كنا في باريس ، وعرفنا بنبأ موته ؟

١٢

ليلة ٢٨ أيلول — سبتمبر ١٩٧٠ ، كان سامي الشريف وعلي الشيخ وراشد أبو المنى يخرجون من سينما الشانزليزيه بباريس . وكعادته كل مساء ، تناول سامي جريدة « الهيرالد تريبيون » التي توزع عادة عند منتصف الليل ، والتي تعود سامي أن يشتريها من البائع الوحيد الذي يدور بها في مقاهي الشانزليزيه .

وألقى سامي نظرة سريعة على الجريدة ، فاذا به يقرأ على صدر صفحتها الأولى ، وعلى ثمانية أعمدة — وهو أمر نادر في جريدة « الهيرالد تريبيون » — وبخط ضخم : « عبد الناصر مات » .

ولم يصدق في أول الأمر ، فأعاد قراءة العنوان مرة أخرى ، فلما تأكد ، التفت اليهم قائلاً : هل هذا معقول ؟ عبد الناصر مات !

وبحركة لا ارادية ، هرع كل منهما الى بائع الجرائد ، واشترى نسخة من الجريدة . . . ثم توجه الثلاثة الى المقهى المجاور دون أن

يتبادلوا كلمة واحدة ، فجلس كل منهم على مقعد ، وغرقوا في قراءة تفاصيل الخبر .

وعندما انتهوا من القراءة بقوا صامتين لمدة دقائق دون أن ينظر أي واحد منهم الى وجه الآخر .

وفجأة انفجر راشد أبو المنى بالبكاء ، بينما توجه علي الشيخ الى كابينة التليفون في المقهى ، وظل سامي الشريف ساهماً ، عاجزاً عن البكاء ولو في صمت ، حائراً ماذا يفعل أمام هذا الرجل الذي يبكي كالأطفال ، وكأنه فقد أعز مخلوق عنده .

قبل ساعات ، كان هذا الفلسطيني يتهم عبد الناصر بالسكوت على مجزرة عمان تشفياً بالفلسطينيين الذين انتقدوا قبوله مبادرة روجرز... فلماذا يبكيه الآن ؟

ولم يكن سامي الشريف يعرف راشد أبو المنى معرفة وثيقة ، كل ما يعرفه أنه صديق علي الشيخ الذي كان يمتدحه ويشيد بأخلاقه ويصفه بأنه من أفضل الناس الذين عرفهم .

وغرق سامي في تأملاته ، بينما عاد علي الشيخ ليقول لهما : المنطقة العربية مشتعلة . . . ما فائدة الغضب والبكاء والعويل ؟ هل يرد الحزن انساناً مات ؟

ولما لم يلتفت اليه أحد ، احترم صمتهما وسكت .

وتذكر سامي سنوات الوحدة : « أي حب عميق كان يكنه لعبد الناصر ؟ ثم أي حقد أصبح يضمره بعد ذلك لعبد الناصر . . . هل انتهى كل ذلك ؟ هل حمل عبد الناصر معه كل الحب وكل الحقد ؟ كل الأماني وكل خيبة الآمال ؟ كل خطايا النظام وكل انتقادات

خصومه ؟ هل ستزول الاحقاد ، وتبقى المنجزات . . . أم ستطوى المنجزات مع البطل ولا تبقى الا الشماتة ؟ وماذا بقي لهذا الفلسطيني الذي لا يزال يبكي كالطفل ؟ الضفة الغربية التي ضاعت أم الأمل في استرجاعها ، بعد أن ذهب الرجل الوحيد الذي كان يستطيع أن يجمع العرب ، ووحده أيضاً الذي فرق صفوفهم ؟ هل يحبه علي الشيخ أم يكرهه ؟ وماذا ينفع الحب أو البغض ؟ حتى هو ، الذي عاش سنوات شبابه الأولى وهو يحلم بالوحدة . . . ثم أصبح بعد ذلك يعيش من أجل اثبات خطأ نظام الوحدة ، وطغيان أجهزة السراج . . . من أجل ماذا يعيش الآن بعد أن ذهب عبد الناصر ؟ » .

كان الفلسطيني قد تمكن من السيطرة على نفسه ، فالتفت الى علي الشيخ وقال :

— اليوم ضاعت فلسطين مرة أخرى .

ورد علي الشيخ متظاهراً بالحكمة : اليوم مات عبد الناصر للمرة الثانية !

ولما لم يعلق أحد ، أكمل قائلاً : المرة الأولى كانت في حزيران عام ١٩٦٧ !

وتمتم الفلسطيني : بل أنتم السوريون الذين قتلتموه أول مرة !

— نحن شعب عاطفي .

— هذه ليست رذيلة . عبد الناصر كان أباً للعرب ، ولا يرفض البكاء على أبيه الا الولد العاق !

وأعجب سامي الشريف بالتشبيه . . . نعم عبد الناصر كان مثل الأب . ومهما تكن خطايا الأب ونقائصه ، فموته يعني فراغاً . وعندما يكون الأولاد قاصرين مثل الشعوب العربية في هذه المرحلة ، فموت

الأب خراب . كل الناس سيمشون في جنازتك يا عبد الناصر ، وابنك الوحيد لن يمشي في جنازتك كما لم يمش في جنازة أبيه !

وفجأة وقف سامي وصاح : هيا بنا . . .

ـــ الى أين . . .

ـــ الى الفندق . سأستقل أول طائرة مسافرة من مطار أورلي الى القاهرة .(وبابتسامة صفراء قال علي الشيخ : تريد أن تمشي في جنازته؟

وبنظرة قاسية قال سامي ، وهو يبتعد عنهما باتجاه الفندق : مساكين الذين لا يشفي حتى الموت أحقادهم .

وتضايق راشد أبو المنى ، فقال لعلي : سوف تدركون يوماً أية خسارة نزلت بالأمة العربية بوفاة عبد الناصر . . .

ـــ الحمدلله أنه هو الذي مات وليس الأمة !

واشتبك الصديقان في نقاش انتهى الى ذهاب كل منهما في طريق !

* * *

كان راشد أبو المنى موظفاً في دائرة الكهرباء في الكويت عندما جذبه التيار الناصري .

قبل ذلك كان يعتبر نفسه لاجئاً ، وليس للاجئين حق الاهتمام بالسياسة . كان قد أخذ على نفسه عهداً بأن لا يهتم بغير مسؤوليات عائلته ، وإن خير ما يفعله هو تأمين نفقات التعليم لشقيقه شفيق ، واعداد نفسه للعودة الى ما بقي من القدس . . . ولكن كل ذلك تغير . ان أحداث عام ١٩٥٦ ردته بعنف الى السياسة . لم يكن في استطاعة أي انسان عربي ، مهما بلغ زهده في الابتعاد عن القضايا العامة أن يتجنب

زحف السياسة الى أذنيه . كانت السياسة في كل مكان . . . اجتماعات الفلسطينيين ، قوائم المتطوعين ، التبرعات ، مظاهرات الطلبة ، خطب عبد الناصر ، نداءات أحمد سعيد ، قرارات الأمم المتحدة بانسحاب اسرائيل من سيناء وغزة . رسائل الأقرباء من الضفة الغربية والقدس . . . ومع ذلك فقد بقي في السياسة شبه متفرج ، واقتصرت مساهمته على دفع التبرعات ، والمشاركة في توقيع البرقيات ، وأحياناً الاستماع لبعض المناقشات .

وعلى عكس راشد ، كانت والدته « أسمى » . ولعل اهتماماتها السياسية ، وفضولها لتتبع ما يحدث حولها ، وتسقط أخبار الأهل والأصدقاء في الأراضي المحتلة تعود بالدرجة الأولى الى انها فقدت والدها في الاضطرابات التي وقعت في القدس عام ١٩٢٤ . وهي لا تستطيع أن تنسى كيف انتصبت قامة أمها عندما جاءها نبأ مصرع زوجها وقالت : ان الله لا يمتحن الا المؤمنين ولن نسقط في الامتحان بأذن الله !

ونفس الموقف ، اتخذته « أسمى » عندما جاءها خبر مصرع زوجها في ثورة ١٩٣٦ ، فقد انتصبت قامتها ، وتطلعت الى ابنها البكر « راشد » الذي لم يكن قد تجاوز العاشرة من عمره ، والى شقيقيه « غالي » و « شفيق » ثم قالت : لن يموت من يخلف مثل هؤلاء الرجال !

كانت « أسمى » من النوع الذي تجوهره المحن ، ويصقله التحدي ، فقد وضعت شلحتها السوداء فوق رأسها ، قبل مرور الأربعين على وفاة زوجها ، وأمسكت بايدي أولادها الثلاثة ، ونزلت بهم من قريتها « لفتا » الى القدس ، حيث توجهت بهم الى مدرسة المانية للايتام اسمها « شنالر » كان قد نصحها بها رئيس بلدية القرية .

وكانت المدرسة الألمانية تضم أيتاماً أكثر من قدرتها ، ولكن « أسمى » لم تخرج من المدرسة إلا بعد أن استطاعت أن تؤثر على مديرها ، وتحمله على قبول واحد من أولادها الثلاثة . وهكذا قدر لراشد أن يبقى في المدرسة احد عشر عاماً ، استطاع خلالها أن يتقن اللغتين الألمانية والانكليزية ، ويتخصص في هندسة الميكانيك . . . ولم تكن أمامه الا سنة دراسية واحدة عام ١٩٤٨ ، ليحصل على شهادة الهندسة . ولكن العاصفة الاسرائيلية التي هبت في تلك السنة ، هدمت أحلام الشاب . فقد استولى اليهود على قريته « لفتا » ومعظم مدينة القدس . . . فلجأ هو ووالدته وشقيقاه الى ما تبقى من القدس ، والتي أطلق عليها بعد ذلك اسم « القدس العربية » أو « القدس القديمة » .

وبقي أكثر من شهر وهو في حالة ضياع . لم يكن يتصور أن تهزم خمسة جيوش عربية بالسهولة التي هزمت بها . لقد صدمت هذه الحقيقة شبابه وأحلامه ، وردته الى واقع أكثر قسوة من الهزيمة . ماذا يفعل ؟ شقيقه غالي سافر الى عمان بحثاً عن عمل . وشقيقه الآخر « شفيق » اشتغل خادماً في مطعم . . . أما هو فقد كانت مأساته أنه أكبر من أن يعمل خادماً وأقل من أن يكون مهندساً .

وقرر أن يسافر الى المانيا . وقال لأمه وأخيه شفيق : « لا تعتمدا عليَّ . سأذهب الى المانيا لانهاء دراستي . وآمل أن أعوضكما بعدها » .

وفي المانيا عاش مأساتين : مأساته ومأساتها . كانت هناك علاقة خاصة تربطه بالألمان . علاقة اللغة ، وعلاقة الاعتراف بالجميل ، وعلاقة المصيبة الواحدة . وخلال الخمس سنوات التي عاشها في « كولون » ، استعاد ثقته بنفسه . لقد شاهد الألمان وهم يخرجون من تحت أنقاض الهزيمة . كان يحس أن هذه البلاد تقدم الاجابة لقضية

شعبه المشرد ، بالاضافة الى أن هناك قاسماً مشتركاً يجمع بين شعبه والشعب الألماني ، هو اليهود !

وكانت المانيا قد فقدت كل مصانعها ، ومعظم مبانيها ، حتى كاتدرائية « كولون » التاريخية لم تسلم من قنابل الحلفاء . . . وأسوأ من كل ذلك ، كانت المانيا ترزح تحت وطأة احتلال دولي . شبابها مشردون في معسكرات الاعتقال والسخرة . وكان المجتمع الألماني يضم نسبة هائلة من الأرامل والأيتام والفتيات الصغيرات اللواتي لم يكن لهن وسيلة لكسب القوت الا ممارسة الحب مع أعداء الأمس ، مقابل علبة سكاير ، أو زجاجة ويسكي ، أو قطعة ثياب داخلية من النايلون !

ورغم ذلك رآها تقوم من تحت الأنقاض . . . فالمعجزة الألمانية التي أذهلت الكثيرين بعدما تمت ، رآها هو تتحقق يوماً بعد يوم ، عندما التزم كل مواطن الماني بوضع حجر في صرح المانيا الجديدة . كانت المحاكمات تجري في « نورمبرغ » ، والدول المنتصرة تتصارع على تخطيط الحدود واقتسام مناطق النفوذ ، والألمان متفرغون لبناء قوتهم الصناعية !

وقد شفته ألمانيا من كل العقد التي كانت تثقل عليه . شفته من الكبت الجنسي الذي كان يعانيه وهو طالب في مدرسة الأيتام في القدس ، فقد تهافتت عليه الفتيات الجميلات في كل مكان ذهب اليه في المانيا . شاب في مقتبل العمر ، طويل ، أسمر ، عيناه العسليتان كانتا مصيدة لا تقاوم . . . ثم كان اتقانه للألمانية أحد الأسباب في اندماجه في مجتمعاتهم .

في البداية ، خيل اليه أنه وجد المهجر الذي سيقضي فيه بقية عمره . . . فالألمان هم الذين علموه ، وهم الذين استقبلوه بعد خروجه

من بلاده ، وهم الذين مكنوه من الحصول على شهادة الهندسة الميكانيكية . . . ومجتمعاتهم رحبت به ، ونساؤهم تهافتن عليه ، ومصانعهم استقبلته وساوته بمهندسيها . . . ولكن معجزتهم كانت ، بين الحين والآخر ، تستفز ايمانه بوطنه ، فلقد تعلم أن الوطن وحده الذي يثمر فيه البناء . . .

الى أن جاءته رسالة من والدته « أسمى » :

« هل نسيتنا يا راشد ؟ أخوك غالي تزوج ، وشفيق يتعلم في « الاونروا » ويحاول أن يعمل لسد نفقات معيشته ، وأنا هنا في عمان أعيش على أمل واحد ، هو عودتك الينا . . . »

وقرر أن يعود .

وعندما سنحت له فرصة العمل في دائرة الكهرباء في الكويت ، قبل على الفور ، خاصة وان المرتب كان مغرياً ، يكفيه ليعيش مع والدته ، ويساعد شقيقه الصغير على اتمام دراسته . ولو كانت أوضاعه في المانيا تسمح له باستضافتهم ، لما فكر في السفر الى الكويت . . .

* * *

٢٨ أيلول (سبتمبر) عام ١٩٦١ ، كان يوماً حزيناً في حياة راشد أبو المنى ، لا يقل عن اليوم الذي خرج فيه من قريته « لفتا » عام ١٩٤٨ . . . فيوم الانفصال كان هزيمة مثل هزيمة ١٩٤٨ .

وطفش من مكتبه في دائرة الكهرباء ، بعد أن تسمر الجميع بجانب أجهزة الراديو ، وراحوا ، بين نشرة أخبار وأخرى ، يتناقشون ، ويتبادلون التهم ، وترتفع أصواتهم بصراخ هو أشبه بالتمزق الذي تختلط فيه الدموع بالثورة ، بالحقد ، بالضياع .

وعندما دخل الى بيته في « الصليبجات » سأل الخادم عن أمه ، فقال : يظهر انها مريضة . لقد لازمت غرفتها منذ الصباح .

ودخل عليها ، فوجد أمه جالسة في سريرها ، تبكي بصمت ، وتطلق نظراتها الساهمة في الشاطيء الطويل الممتد بجانب البيت . لم يكن بكاؤها متفجعاً كما كان بكاء زملائه في دائرة الكهرباء ، بل كانت دموعها هادئة كأنها تصلي .

ولم يكن بحاجة ليسألها لماذا تبكي ، فالجميع كان يبكي في ذلك اليوم . . . الكويت كلها كانت تبكي . فهذه المدينة كانت عنيفة في حزنها يوم الانفصال كما كانت عنيفة في فرحتها يوم الوحدة ، عندما سارت المظاهرات وذبحت الخراف في كل مكان .

ويذكر راشد أنه شعر بشيء غير طبيعي قد حدث يوم قيام الوحدة المصرية السورية عام ١٩٥٨ . صحيح أن الموجة العارمة التي اجتاحت الكويت ، والفلسطينيين بصورة خاصة ، قد أخذته معها ، وأيقظت آمالاً كبيرة في أعماقه ، إلا أن عقليته التي تكونت في جوانح المجتمع الألماني ، وقراءته للتاريخ قراءة مادية ، ونوعية الناس الذين عاش معهم في اوروبا . . . كلها كانت تجعله لا يتوقع منعطفاً تاريخياً حاسماً في المسيرة العربية ، برغم ثقته وإيمانه بمستقبل هذه الأمة . . . لقد كانت الظواهر الطافية على سطح الحياة العربية لا توحي أبداً بأن الوقت قد حان لظهور معجزة . لذلك عندما تحققت معجزة الوحدة في ليلة ، شعر بأن شيئاً غير طبيعي قد حدث ، رغم مشاركته الأصدقاء فرحتهم والحفلة الساهرة التي أقاموها في تلك الليلة .

لقد ولدت الوحدة في ليلة ، وتبددت في ليلة .

ونظر الى والدته دون أن يتكلم ، فقد كان يعرف أنها مصابة بنفس

الفجيعة التي اصابت الجميع .

ورفعت « أسمى » رأسها الى ولدها وقالت :

— يالله يا راشد نرجع الى بلادنا .

— لماذا يا أماه ؟

— لا فائدة . . . ما هي نهاية اقامتنا في الكويت ؟ أخوك شفيق قد تخرج من الجامعة الأميركية . وأنت بلا زوجة ولا ولد . وقد جمعت من المال ما يكفينا شر الحاجة . . . فلماذا نبقى هنا ؟

— ولكن الكويت مثل بلدنا يا أماه .

— لا تصدق يا راشد . بلد الانسان لا يستطيع أن يغيرها . بلده وحدها التي تستطيع أن تسعه . . . اذا كانوا طردوا عبد الناصر من سوريا ، فأي شيء يمكن أن ننتظره نحن هنا ؟ ؟

وأحس أن كلام أمه ، رغم بساطته ، يعكس فهماً حقيقياً للواقع . . . فالذي أزعجه في ذلك اليوم الأسود ، ليس الانقلاب الذي قام به الضباط في سوريا ، بل الانقسام الاقليمي الذي وقع بين المصريين والسوريين منذ إذاعة النبأ الأول للانفصال . . . لم يحاول سوري واحد في دائرة الكهرباء اخفاء مشاعره ، بل دار الحديث ، وتحول الى نقاش ، ثم الى شجار حول الاحتلال المصري لسوريا . لذلك اقتنع يومها بأن كل ما كانت تعيش فيه الأمة العربية من عام ١٩٥٦ الى عام ١٩٦١ ، مجرد أوهام تطفو على السطح ، لم تصل بعد الى الأعماق .

وبعد أيام ، جاء قرار عبد الناصر بسحب القوات المصرية من الكويت ، خوفاً من وقوع صدام بينها وبين القوات السورية . . . فوجد نفسه يتخذ قراراً مشابهاً ، بالعودة الى القدس ، أو ما تبقى من القدس .

فاذا كان لا بد من انتظار نضج الأمة العربية ، فالأفضل أن ينتظرها في بلده ، أو في ما تبقى من بلده !

* * *

صباح ٥ حزيران ١٩٦٧ .

استيقظ راشد أبو المنى في الثامنة كما تعود أن يستيقظ كل يوم . تناول القهوة مع والدته في المنزل الذي اشتراه بعد عودته من الكويت في قرية « شعفاط » على طريق رام الله . ولعلها من المرات النادرة ، انه لم يفكر في فتح الراديو ليسمع أخبار الصباح . لقد كان الشعور الذي سيطر على عرب الضفة الغربية يوم الأحد ٤ حزيران — يونيو ، أن خطر المواجهة العربية الاسرائيلية قد زال ، وإن قضية اغلاق المضايق أصبحت في طريق التسوية .

وخرج من منزله ، وركب سيارته ، وتوجه الى « فرن الكردي » ليشتري كيلو من الخبز . وقبل أن يناوله صاحب الفرن كيلو الخبز قال له : ايش رأيك ؟ هل ستطول الحرب ؟

— أية حرب ؟

— ألم تعرف ؟

وانتبه راشد الى صوت الراديو العالي الذي كان ينبعث من داخل الفرن . كانت إذاعة القاهرة تذيع بلاغات عسكرية وأناشيد حماسية . وسمع أن الطائرات الاسرائيلية تسقط كالعصافير . وإن طلائع الجيش المصري قد تجاوزت الحدود وراحت تقاتل داخل الأراضي الاسرائيلية .

وشعر بفرح غامر . لقد بقي ينتظر مثل هذه الساعة منذ عام ١٩٤٨.

وأسرع بالخبز الى البيت ، وقال لأمه : لن أذهب الى الكاراج ،

سأبقى في « قهوة القدس » في باب الزاهري !

هناك وجد أصدقاءه يلتفون حول الراديو . لم يكن المقهى هو الذي التف الناس فيه حول الراديو ، بل كانت كل المحلات حول أجهزة الراديو . وعندما سمع الكل ، أن المعركة تتجه نحو مؤكد للعرب ، التفت أحد الرجال ليقول لصديق له بصوت ؛ ونحن ؟ أليس المفروض أن يدخل الأردن في المعركة ؟

وقال أحد الحاضرين : هذا يتوقف على النتيجة ، إذا انتهت ا بسرعة ، فلن تكون هناك حاجة الى الجيش الأردني .

واحتدمت المناقشات . وفي الساعة الحادية عشرة والثلث ، أول طلقة انطلقت من مدفعية المدينة القديمة ، باتجاه القدس اليه وفي لحظات ، وكما يحدث في الأفلام السينمائية ، انقلب الشار واحدة ، كأن الناس كانوا واقفين على زنبرك ، فلما أفلت الزن أفلت الناس . منهم من ركض ليقفل محله . ومنهم من ركض الى بيته . ومنهم من ركض ليشتري بعض المواد الغذائية ليوا- الطواريء . أما راشد ، فقد ركب سيارته واتجه الى « الكاراج » له العمال الذي يعملون عنده ، انهم اتجهوا الى المحافظة ، السلاح ، فرفض طلبهم . وعندما عاد الى البيت ، وكانت الواحدة ، كانت المدينة القديمة قد ماتت تماماً ، والمدفعية لا تقصف . وشعر بخوف لم يستطع له تفسيراً . وفي الساعة الثاني بدأ الطيران الاسرائيلي يضرب مراكز المدفعية الأردنية . وكا المراكز قريباً من بيته في « شعفاط » . وبلغ عدد المرات التي ضر هذا المركز القريب أربع مرات . وعندما انقضى النهار ، ا أبواب الجحيم مع الليل . من الساعة التاسعة مساء حتى السادسة ص

كانت الطائرات الاسرائيلية تقوم بغارة كل عشر دقائق . وتجمع بعض أهالي « شعفاط » في قبو تحت الأرض قريب من بيته . رجال ونساء وكهول وأطفال لا يملكون الا الانتظار .

في اليوم الثاني — الثلاثاء ٦ حزيران — استمرت الغارات وانفجار القنابل ، ولكنه لاحظ أن ضرب المدفعية الأردنية قد خف .

وفي اليوم الثالث — الأربعاء ٧ حزيران — شاهد راشد أبو المنى كما شاهد سكان « شعفاط » الجيش الأردني وهو ينسحب بآلياته ، التي قضى عليها الطيران الاسرائيلي بعد ذلك وهي في طريقها الى عمان .

وأدرك راشد أن القصة قد انتهت . شعر بالنهاية منذ أن أخذت الاذاعات تتحدث عن اللجوء الى الأمم المتحدة .

وفي اليوم الرابع — الخميس ٨ حزيران — سمع راديو اسرائيل في الساعة الخامسة مساء ، يدعو سكان القدس وضواحيها الى رفع الأعلام البيضاء على سطوح منازلهم ، والقاء أسلحتهم أمامها ، وعدم مقاومة جيش الدفاع الاسرائيلي .

وانفجر في البكاء .

* * *

بعد أقل من أسبوعين ، دق باب منزل راشد أبو المنى في قرية « شعفاط » بضواحي القدس القديمة . وفتحت « اسمى » الباب لتجد أمامها شاباً يهودياً في نحو الثلاثين من عمره ، وشابة لم تكمل العشرين . وكان الاثنان يتكلمان العربية جيداً ، فسألاها عن راشد .

وقالت « أسمى » : إنه في الكاراج .

وأجاب الرجل : من فضلك ، أخبريه بأننا من دائرة الاحصاء

الاسرائيلية ، وإننا سنمر عليه غداً ، فلينتظرنا .

وفي اليوم التالي ، كان راشد في انتظارهما . ولما أخبراه بأنهما يقومان باحصاء السكان ، سألهما : ما هو الهدف من الاحصاء ؟

ـــ لأن هذه المنطقة أصبحت اسرائيلية ، وأنتم أصبحتم مواطنين في دولة اسرائيل .

ـــ وماذا يترتب على ذلك ؟ ؟

ـــ أن تخضع للقوانين الاسرائيلية . تستبدل لوحة سيارتك . تدفع الضرائب مثلنا . تتقدم بطلب جديد للسماح لك في العمل في الكاراج الذي تملكه . وسوف تصلك الكهرباء من اسرائيل ، وكذلك المياه !

ـــ يعني إنني أصبحت اسرائيلياً ؟

ـــ لا . . . بل مواطناً في دولة اسرائيل . ولن تستطيع بعد أسبوع ، أن تتجول في الأراضي الاسرائيلية ، إلا إذا كنت تحمل هوية اسرائيلية تثبت أنك من سكان القدس . . .

وسكت راشد ، وراح يجيب على الأسئلة ، وأفكاره خارج الغرفة .

عندما وصل الجيش الاسرائيلي كان يسيطر عليه أمل بأن يكون هذا الاحتلال موقتاً ، لذلك لم يفكر في الهجرة كما فعل عام ١٩٤٨ ، بل صمم على أن يبقى . ان عمله وبيته هما كل ما بقي له ، فأين يهاجر ؟

وبعد أن أنتهى الشاب والفتاة من تسجيل المعلومات ، جلسا مع راشد يشربان القهوة . وقالت الفتاة ، وهي تشير الى قصر الملك حسين

الذي كان يقع قريباً من بيت راشد :
— لقد تحول قصر الملك الى مزار . مئات السواح والفضوليين يجيئون ليتفرجوا عليه .

وسألها راشد ساخراً : وهل أحصيتموه ؟

وتجاوزت الفتاة سخريته وقالت : لقد دخلت معظم الفيللات في هذه الضاحية . كلها مصنوعة من الحجر الأحمر النادر . ولكل فيللا حديقة وهي مفروشة على أحدث طراز . ولا يسكن معظمها الا أربعة أو خمسة أشخاص . وأنت ، تسكن هذه الفيللا أنت وأمك وحدكما . . .

وما هو الخطأ في ذلك ؟
— أبداً ليس هناك أي خطأ . كنت أتصور أن قصر الملك حسين هو أفخم هذه الفيللات ، فاذا بي أكتشف أن بينها ما هو أفخم .

وتدخل الشاب اليهودي الذي كان مع الفتاة ليقول : في اسرائيل تنام في كل غرفة عائلة كاملة !

وقال راشد : ألاحظ أنكم تتصرفون وكأنكم قررتم البقاء في الأراضي العربية . وتتحدثون وكأن هذه البلاد قد أصبحت ملكاً لكم . فكيف تدعون العرب الى التفاهم معكم إذا كانت هذه نواياكم ؟ لقد مرت على القدس دول كثيرة منذ فجر التاريخ حتى اليوم ، ولكن أهل القدس هم الذين بقوا .

وقال الشاب : هذه المرة ستكون الأخيرة . وأنا لا أقول هذا الكلام

من واقع الانتصار ، فشعورنا قبل المعركة كان أن القدس لا بد وأن تعود الينا . . .

وقالت الفتاة : دعني أروي لك قصة ، لا لأجرح مشاعرك ، بل لأبرهن لك على مدى ايماننا بحتمية ما وقع . ليلة اندلاع الحرب ، مر خطيبي على بيتنا ليودعني . أردت أن أودعه بليلة حب ، فاذا به يقول لي : لن نفعل ذلك مرة أخرى الا على سرير الملك في قصره بشعفاط .

وقد فعلنا ذلك بعد أربعة أيام !

بعد هذا الحديث ، لم يستطع راشد أبو المنى أن يبقى في بيته أكثر من شهرين . . . فعندما تسلم بطاقة هويته الزرقاء ، اكتشف أن ليس عليها حرف عربي واحد . وراح يكتشف كل يوم ماذا يعني أن يصبح مواطناً في دولة اسرائيل . . . اذا أراد أن يسافر فعليه أن يستحصل على رخصة من الحاكم العسكري . وطلب الرخصة يجب أن يكتب باللغة العبرية . وعندما فتحت الطرق بين العرب الذين كانوا يقيمون في اسرائيل بعد ٤٨ ، واختلطوا بالعرب الذين احتلت مناطقهم في ١٩٦٧ ، سمع راشد أبو المنى أن العربي لا يستطيع أن يجد وظيفة في الحكومة ، والطلاب لا يقبلون في الجامعة العبرية ، وإن عليه أن يرضى بالمعاملة على أساس أنه ينتمي الى أقلية لا حقوق لها !

وكانت المضايقات اليومية ، عندما كان يرى تصرفات الشرطة الاسرائيلية مع عمال الكاراج الذي يملكه في القدس ، مضافة الى شعوره الداخلي الذي أخذ يتكون يوماً بعد يوم ، تدفعه الى التساؤل : لو بقيت هنا عشر سنوات أخرى ، هل سيذهبون ؟

وجاء يوم قرر فيه أن يهاجر الى البلد الذي يعرف . . . الى المانيا .

باع كاراجه ، وأعطى أمه المال ، وقال لها : « لم أعد أحتمل البقاء

يا أماه . سأعود الى المانيا . وسأكتب لك . ولن أمنع عنك شيئاً . وسأبعث لك بعنواني هناك ! » .

المضحك المبكي في قصة هجرته من فلسطين ، أن الذي سهل له الهجرة ، وحتى إيجاد العمل في المانيا ، كان أحد المكاتب المتخصصة بتهجير الشباب الفلسطيني في اسرائيل .

وقالت له أمه وهي تودعه في مطار اللد : لا أدري يا راشد اذا كنت سأستطيع أن أعيش طويلاً ، وأنا وحدي هنا !

١٣

خرج الهر « وليام سواين » من مكتبه في مصانع سيارات « مان » بضواحي فرانكفورت ، قبل الموعد الذي تعود أن يخرج فيه مساء كل يوم . وكان في انتظاره أحد موظفي السكرتيريا الذي يعرف الشقة التي يسكن فيها المهندس راشد أبو المنى . لقد مضى على راشد أكثر من أسبوع وهو معتكف في شقته ، بعد أن وصلته رسالة من شقيقه في عمان يخبره فيها بموت والدته . وكان الهر « وليام سواين » يحب راشد ، ويعتبره من أكفأ وأخلص الذين يعملون تحت ادارته في الشركة . وعندما عرف بالحالة النفسية التي أصابت راشد بعد معرفته بوفاة والدته ، قرر أن يذهب اليه .

وقال الرجل العجوز ، وهو يشد على يد راشد بيده اليمنى ، ويضع يده اليسرى على كتفه : أني أعجب لكم أيها الشرقيون . تؤمنون بالقضاء والقدر ، وان كل شيء مكتوب ، ثم تنهارون كالاطفال

عندما يقع المقدر والمكتوب !

وبعد أن أخذ راشد معطف مديره العجوز ، وعلقه عند الباب ، قال وهو يقوده الى الصالة : صدقني اني حاولت أن أكون مثلكم ، أن أخضع كل شيء للعقل . ولكني فشلت هذه المرة . لقد كانت أمي هي كل ما بقي لي من ذلك الوطن الذي فقدناه .

— المهم أن لا تفقد ثقتك بنفسك ؟

— وما الفائدة ؟ لقد تركت فلسطين ، لأنني اقتنعت انني لا أستطيع أن أفعل شيئاً ضد ما يجري هناك ، وانه لم يعد في استطاعتي أن أبقى متفرجاً . . . والآن ، وبعد أن ماتت تلك التي تركتها هناك لتكون الخيط الرفيع الذي يشدني الى الأرض ، والبيت ، والأمل ، شعرت فجأة أنني فقدت كل شيء . وأعترف لك بأني لا أدري إذا كنت سأستطيع أن أستمر في الحياة هكذا ، بلا أرض ، ولا بيت ، ولا أمل !

ووقف الهر « وليام سواين » من مقعده ، وقال لراشد أبو المنى :

— تعال نخرج من هنا . لنذهب الى أي مطعم . أريد أن أتناول العشاء معك !

وفي المطعم قال الهر « وليام سواين » : سأروي لك قصة قد تجد فيها ما يخفف عنك ما أنت فيه . لقد مررت بحالة أسوأ بكثير مما تعانيه . فعندما احتل الجنود السوفيات برلين ، وقعت أسيراً بين أيديهم . كنت ضابطاً في الجيش الألماني برتبة كولونيل . وقد نقلوني الى روسيا أنا وحوالي ألف أسير . وقد تعتبرها مبالغة اذا قلت لك أن ٩٩٩ ماتوا وأنا وحدي الذي عشت . هل تعرف لماذا ؟ لأني وضعت في رأسي تصميماً على أن أعيش وأحيا . ويبدو أن هذا الكلام سهل ، ولكن أن تصمم على تحدي سيبيريا وأن تكون الوحيد الذي يعيش من بين

ألف أسير ، فذلك هو المستحيل . هذا صحيح . ولكنه حدث ، وأنا الشاهد عليه . لقد أخرجونا في اليوم الأول لنحفر في الطريق . أمسكت بالمعول ، وأغمضت عيني ، وأهويت به على الأرض القاسية ، وتخيلت اني أزرع حديقة منزلي هنا في فرانكفورت . وعندما كانوا يأتون الينا بالطعام الرديء ، كنت أتخيل وأنا أتناوله أنني التهم طعامي في أفضل مطعم في ألمانيا . وهكذا كان يحدث في الليل . أغمض عيني ، وأتخيل أنني في أجمل الأماكن التي زرتها في حياتي . لقد قهرت الواقع بالخيال فعشت ، وعدت الى ألمانيا . . . أما الباقون ، فقد دفنوا في روسيا لأنهم استسلموا لليأس والهم والواقع . . . ان الانسان في الحقيقة هو حالة فكرية . وبقدر ما ينجح في تكييف نفسه معها ، بقدر ما ينتصر . ولذلك فعليك أن تقرر ، اما أن تنتصر عليك الحياة ، واما أن تنتصر أنت على الحياة ! !

لم يرد راشد . ولكنه أخذ يلتهم الطعام أمامه بشهية . كان قد مضى عليه سبعة أيام وهو لا يأكل أكثر من وجبة واحدة في اليوم ، ووجبة ناقصة .

ولم يشأ الهر « وليام سواين » أن يخرج راشد عن صمته ، فقد بدا واضحاً عليه ، ان الكلام قد فعل فعله فيه .

وافترقا عند باب المطعم ، فقد شعر راشد بحاجة ملحة إلى السير على قدميه . كان الوقت شتاء . والطقس ممطراً بعض الشيء . والبرد قارساً . والرصيف ممتلئاً بالناس ، فقد كان موعد الخروج من السينما . فأسلم راشد نفسه لأمواج البشر وهي تتقاذفه من كتف الى كتف ، وكلام الهر « وليام سواين » يطن في أذنيه مختلطاً بصفير الريح التي كانت تركض في شوارع المدينة .

* * *

كان راشد أبو المنى في أحد أقسام مصنع السيارات ، يشرف على اصلاح السلسلة الأوتوماتيكية التي تدور فوق رؤوس العمال ، الذين يتولى كل منهم تثبيت جزء من السيارة المحملة عليها . . . عندما أطل الهر « وليام سواين » وبرفقته رجل قدمه اليه قائلاً : « الهر علي الشيخ . صديق من سوريا . تعرفت به عندما زرت دمشق قبل سنوات . أرجو أن ترافقه اذا لم يكن لديك مانع ! » .

ودار به أرجاء المصنع . ولاحظ « علي الشيخ » أن راشد أبو المنى كان لطيفاً ولكنه متحفظ . وكلما كانت تتحرك في أعماق علي الشيخ غريزة رجل المخابرات ، ليعرف عن راشد شيئاً ، كان يواجه بالصمت أو بتغيير الحديث . كل الذي عرفه أنه فلسطيني من القدس ، وانه درس في المانيا ، وانه يعمل في هذا المصنع منذ فترة .

ولما عادا الى مكتب « سواين » قال علي الشيخ لراشد : مستر سواين وزوجته وابنته ، سيتناولون العشاء عندي الليلة في فندق « انتركونتيننتال » ويسعدني لو تكون معنا !

— شكراً ، وعدت بعض الأصدقاء للخروج معهم الليلة !

كان راشد يتحاشى الخروج مع أي عربي . كان يريد أن يقطع كل صلة له مع الماضي . لقد هاجر من ماضيه ولا يريد أن يعود اليه . ولكن الحاج علي الشيخ ومعه الهر « سواين » لم يترك له فرصة للاعتذار .

في التاسعة كان راشد قد حلق ذقنه . ارتدى أحدث بدلة اشتراها قبل شهر . وقف طويلاً يتأمل وجهه وهو يشد ربطة عنقه . كان يعرف أن ابنة « سواين » ستكون هناك ، وكان يريد أن يبدو وسيماً أمامها . لقد خرجت معه ليلة ثم امتنعت عن الخروج معه بدون أي سبب يعرفه . وكان يمني النفس في فرصة ، في رقصة ، في حديث منفرد معها .

ولكن الحديث الذي دار حول المائدة ، طوى هذه الأمنية تماماً . لقد كان « سواين » فضولياً وثرثاراً ، فبعد أن استهلك الحديث عن دمشق ، وسوريا ، واستعاد مع علي الشيخ ذكرياته هناك ، سأل فجأة : الذي لم أفهمه حتى الآن ، وحاولت أن أجد الاجابة عليه لدى كل الأشخاص العرب الذين قابلتهم ، وراشد واحد منهم ، كيف يمكن أن تهزم جيوش ثلاث دول عربية ، تضم نحو أربعين مليوناً ، خلال ستة أيام ، أمام جيش دولة صغيرة لا يتجاوز عدد سكانها الثلاثة ملايين ؟

ــ الحديث عن الهزيمة العربية وأسبابها حديث طويل يحتاج الى عشرة أيام وأكثر ، من الشرح . ولكني أستطيع أن ألخصه لك بجملة واحدة ، وهي أن اسرائيل كانت تستعد للحرب منذ سنوات طويلة وتتحدث عن السلام ، والعرب يتحدثون عن الحرب ، دون أن يستعدوا يوماً واحداً الاستعداد المطلوب للحرب .

ــ وهل هذا كلام مفهوم ؟

ــ نعم ، عندما تفهم أن بين الحديث والفعل مسافة أجيال . ان مأساة العرب أنهم لم يصدقوا أن الحرب ستقع ، لذلك كان الكلام عنها لمجرد الاستهلاك الداخلي ، وحتى تفهم هذه العقلية ، عليك أن تتذكر أن العرب عاشوا أكثر من أربعمائة سنة في ظل السيطرة الخارجية . من الاستعمار التركي ، الى الاستعمار الغربي . وبعد ذلك وجدوا أنفسهم أمام شيء لا قبل لهم به . واجهوا تحدياً أكبر من قدراتهم ، غزواً متطوراً يمثل آخر تجارب الغرب وعلمه . . .

وسكت علي الشيخ لحظة ثم استطرد قائلاً : لا أريد أن أقول أن التاريخ سيكون معنا . لا أحد يدري . ولكن الأكيد أنه اذا خاننا التاريخ ، فلن نكون وحدنا الذين سندفع الثمن . ستدفعه معنا أوروبا أيضاً ، التي سيكون عليها الحصول على تأشيرة مرور اسرائيلية لكي

تصل الى أفريقيا والشرق الأقصى ، وأن تدفع رسوماً باهظة لاسرائيل ، مقابل كل برميل من البترول العربي الذي تشتريه !

عندما فتح حديث أزمة الشرق الأوسط شعر راشد أبو المنى ، كما لو أن أحداً يدق على رأسه ، لذلك بقي صامتاً . لكنه فوجيء بعلي الشيخ يقول كلاماً كان بلسماً لجراحاته . . . كلاماً معقولاً يقبله العقل الأوروبي ، ليس فيه انفعال المهزوم ، ولا يأس المتخاذلين . لذلك ، عندما طلب منه علي الشيخ أن يبقى بعد ذهاب سواين وزوجته وابنته ، ليخرجا معاً ويكملا السهرة ، لأن راشد يعرف المدينة أحسن من علي . . . قبل بدون تردد !

ومنذ تلك الليلة أصبح علي الشيخ وراشد أبو المنى صديقين . ما إن يصل علي الى فرانكفورت ويتصل تلفونياً براشد حتى يسهرا معاً . ثم تطورت العلاقة حتى أصبح راشد يذهب الى المطار لاستقبال علي الشيخ . وفي بعض الأحيان ، كان يذهب اليه في باريس أو لندن أو روما ليقضي معه عطلة الأسبوع !

* * *

كانت ايفا تراقب زوجها القاضي « شبلنجر » وهو يقلب قطعة السكر في فنجان الشاي ، وقد ركز كل انتباهه على ملاحظة قطعة السكر وهي تتفتت وتختفي كأنه طفل يشاهد تجربة مثيرة لأول مرة في حياته . لقد كانت تدرك بحكم خبرتها الطويلة معه ، أنه مستغرق في أمر بعيد كل البعد عن الشاي والسكر . وإنها لو سحبت الفنجان من أمامه ، لما شعر بذلك ، بل لاستمر يقلب الهواء بالملعقة . وكانت تعرف ماذا يشغل باله منذ أكثر من أسبوع . إنها قضية مهرب السلاح الذي وجد مقتولاً في « الترافي موندي » . هي أيضاً كانت مهتمة بالقضية ،

ولكن من زاوية مختلفة تماماً عن اهتمام زوجها القاضي « شبلنجر » .

ولم تكن هذه هي المرة الأولى التي يفكران فيها بقضية واحدة من زاويتين مختلفتين . فمنذ أن أصبح الهر « شبلنجر » القاضي الأول في مدينة « هامبورغ » اكتشف المحامي « الهر جيرهارد » أنه تلقى علومه الابتدائية في نفس المدرسة التي تعلم فيها القاضي شبلنجر . وكان هذا الاكتشاف مبرراً لاقامة صداقة استطاع « جيرهارد » أن يزيل تحفظ شبلنجر وشكوكه من خلال غزو قلب زوجته بالهدايا والدعوات ووضع بيته الصيفي على شاطيء « الترافي موندي » تحت تصرفهما . وهكذا أصبح « جيرهارد » الضيف الدائم على عشاء يوم الأحد في منزل القاضي شبلنجر ، والصديق الذي يحضر بدون دعوة .

وكان « جيرهارد » يعرف عقدة شبلنجر . فبينما تخرج « جيرهارد » والتحق بالحزب الاشتراكي ، آثر « شبلنجر » أن يعمل في القضاء . وعندما وصل هتلر الى السلطة فر « جيرهارد » الى سويسرا حيث اشتغل بتهريب اليهود لقاء عمولات مجزية . وخلال هذه الصفقات التي كان يدبرها بين وكلاء النازي ووكلاء الصهيونية ، أدرك « جيرهارد » زيف كل ما آمن به من شعارات . كان ممثل النازي على استعداد لتهريب أعداء الرايخ ، الخونة عملاء البلاشفة والرأسمالية الدولية ، إذا ما وصل السعر الى رقم مناسب . بينما كان وكلاء الصهيونية على استعداد لترك أبناء شعب الله المختار يواجهون أفران الغاز ، للمساومة عدة أيام على بضعة ألوف من الفرنكات . لقد آمن جيرهارد ، بحقيقة واحدة تنبثق منها كل الحريات والمباديء والقيم ، حقيقة اسمها المال . وقد سيطر عليه هذا الإيمان لدرجة أن الأغاني التي تدور حول المال هي أغانيه المفضلة . وكان يقول : « ليس في العالم مستحيل ما دام هناك رجل يستطيع أن يوقع شيكاً على بياض . . . فالمهمة المستحيلة هي

المهمة التي لم تجد رجلاً ينفق عليها ما تستحق » . وكان جيرهارد يرد على الذين يتحدثون عن براعته في كسب المال ، بأنه بارع في انفاقه ، ولكن في الأرض الخصبة . . . « بعض الناس يزرعون القمح ، وأنا أزرع الماركات . والبعض يربي الخنازير ، وأنا أربي الصداقات » .

أما شبلنجر ، فقد كان التطبيق الحرفي للشعار القائل بأن القانون حمار . لم يهتم في سنوات الدراسة بالسياسة ، رغم أن المانيا كانت بعد الحرب العالمية الأولى تعيش السياسة ، وتأكل وتشرب سياسة . وعندما تخرج ، التحق بالسلك القضائي ، لأنه يعتبر ذلك هو الموقف الطبيعي لكل خريج . فلما جاء النازي الى السلطة ، لم يجد أية غضاضة في الاستمرار . بالعكس ، كان يقول : « ان القاضي لا شأن له بالسياسة ولا بالتشريعات ، فمهمته هي تطبيق القانون . وواجب المواطن الصالح هو احترام القانون . أما إذا شاء مخالفته ، فعليه أن يتجنب الوقوع في يد رجال القانون . ولذلك استمر في منصبه الى أن اكتشف ذات يوم ، تلفيق « الغستابو » للأدلة التي جمعت ضد نقابة عمالية ، فاعتبر ذلك خرقاً للقانون . ولأن هذا الخرق جاء من رجال السلطة ، فهو يعتبر جريمة مزدوجة . وأصدر أمره بتوقيف رجال البوليس . ونفذ أمره في الحال ، ولكن من الجهة المعاكسة ، فقد أوقف « شبلنجر » وأودع في السجن ، حيث بقي الى أن انتهت الحرب . وعندما خرج من السجن لم يكن راغباً في العودة الى القضاء . كان يرى أن القضاء سلطة مستقلة ، ويحكم بارادة الله والشعب ، وقد أهدرت قدسيته في ظل النازي ، بل وفي المحاكمات التي جرت للنازي بعد الحرب . أصبح القضاء صدى للسلطة . يدين خصوم النازيين ما دام هتلر في الحكم ، ويدين النازيين لأن دولتهم قد سقطت . ومع الوقت ، اكتشف « شبلنجر » أنه لا يتقن مهنة سوى القانون . وكان عليه أن يختار بين القضاء الواقف والقضاء

الجالس . ولكن طبيعته كانت ضد مهنة المحاماة ، فالمحامي يدافع عن الحق والباطل بنفس القوة ، ولذلك عاد الى مهنة القضاء الجالس . ربما لأنها أكثر راحة ، لسنه المتقدم .

المهم أنه خرج من السجن يحمل عقدة مزمنة ضد أدلة البوليس . وكان صدامه مع النازي قد أعطاه مكانة محترمة في أوساط رجال القضاء ، بقدر ما كان تشككه في أدلة البوليس موضع تندر في هذه الأوساط . لقد اشتهر « شبلنجر » بأنه يميل الى التبرئة ولو لم يتجاوز الشك الواحد بالمائة . حتى ان رئيس البوليس في مدينة « هامبورغ » وصفه مرة بأنه يطالب البوليس بأن يقدم له فيلماً مصوراً لكل جريمة لحظة وقوعها . وحتى في هذه الحالة قد يحكم أو يطعن بأن الفيلم مركب ، أو يقول بعدم شرعية التلصص المسبق على حياة المواطن .

وكان « شبلنجر » يتلقى دعوات من بعض الجامعات ، لالقاء سلسلة محاضرات في القانون . وفي احدى هذه المحاضرات ، رأته « ايفا » ، وقررت أن تتزوجه . كانت « ايفا » طالبة في السنة الأولى بكلية الحقوق . أصغر منه بعشرين عاماً . كان هو قد تجاوز الأربعين ، وهي لم تتجاوز العشرين . أمها من قرية قريبة من مدينة « ميونيخ» ، وأبوها بولندي . لم تكن جميلة بقدر ما كانت مثيرة ، وتعرف ما تريد . كانت تبحث عن أب ، لأن أباها مات في أحد معسكرات الاعتقال وهي طفلة . ولأنها كانت في سن العشرين ، فقد أدركت أن هذا الأب المنشود يجب أن يكون زوجاً . وعندما التقت بـ « شبلنجر » لأول مرة ، كانت خارجة لتوها من مغامرة فاشلة مع طالب من زملائها . ولم تكن هذه المغامرة الأولى من نوعها ، ولكنها كانت الأخيرة . فعندما توددت لـ « شبلنجر » ودعاها للعشاء ، وجدت نفسها تقارن دون أن تنتبه بين سلوك « شبلنجر » وسلوك صديقها الطالب . كان

« شبلنجر » يريد أن يعطي بغير حساب ، بينما يتركها الطالب تدفع حسابها في المطعم والسينما ، بل ويقتسم معها حتى أجرة الغرفة ، في الفندق ، التي يمارسان فيها الحب . وفي الصباح كان صديقها الطالب يتصل تليفونياً ، وظهره العاري ملتصق بها ، بصديقة أخرى ، ليحدد موعداً معها ، دون أن ينتبه الى منافاة ذلك لأبسط قواعد اللياقة والذوق بالنسبة للتي باتت الليل في أحضانه .

مرة ، اصطدمت « إيفا » مع صديقها الشاب حول تصرفاته ، فأبدى دهشته ، واتهمها بالتخلف والتعلق بعصر الرومانسية الذي انتهى . فقالت له : إذا كنت أنا رومانسية من القرن التاسع عشر ، فأنتم الآلات الجنسية التي تحدث عنها « هيكسلي » في حديثه عن العالم العجيب .

ولم تحب « ايفا » « شبلنجر » ، ولكنها أحست أنه يمثل لها وسادة الأحلام ، التي يرتاح اليها الرأس المتعب . صحيح أن « شبلنجر » غير قادر على اعطائها الانفعال الجنسي الذي عرفته في أحضان زملائها في الجامعة ، ولكنه كان يمثل لها الأمان ، وحتى الغفران عندما تستجيب لسقطات الضعف !

وهكذا تزوجت « ايفا » « شبلنجر » .

وسرعان ما اكتشفت نقاط ضعفه ، فسيطرت عليه . واكتشف « جيرهارد » حبها للمال وقلقها من المستقبل ، فاستثمر ذلك على أوسع نطاق .

وفي كل مرة ، تحال قضية الى « شبلنجر » يكون « جيرهارد » هو وكيل أحد أطرافها ، كان التوتر يسيطر على منزل القاضي . لم يكن « شبلنجر » يثق كثيراً بشرعية أساليب صديقه « جيرهارد » وإن كان لا يسمح لنفسه بادانتها . كان يفضل أن لا ينظر في قضاياه ،

لأنه كان يحس بأنها تتحول الى لعبة ذكاء ، فضلاً عن الحرج الذي يعانيه بحكم صداقته لجيرهارد ، أو بمعنى أصح ، صداقة « جيرهارد » لزوجته . وفي كل مرة كان « جيرهارد » يستعين عليه بزوجته ، لا ليحكم له ، فجيرهارد وإيفا يعرفان انهما إذا ألمحا بمثل هذا الطلب ، لما تردد في ابلاغ السلطة عنهما . كل ما كان يريده « جيرهارد » هو قبول « شبلنجر » النظر في القضية ، وبذلك يضمن النتيجة .

حتى « ايفا » لم تكن تفهم بالضبط لعبة « جيرهارد » بل كانت تعتقد أنها نوع من الثقة بزوجها .

في ذلك الصباح ، قالت ايفا ، بعد أن راقبت زوجها طويلا وهو مستغرق في تقليب قطعة السكر في الشاي : هل تسمح بأن أقطع عليك تفكيرك ، لأعرف إذا كنت ستحضر لتناول طعام الغداء معنا هذا اليوم ؟

ــ لا أعرف . اذا تمكنت من احالة قضية « جريمة الترافي موندي » الى أحد معاوني فسأحضر .

ــ هل تنوي أن تحولها ؟

ــ نعم . . . رغم أن صديقنا « جيرهارد » هو محامي المتهم .

ــ وهل هذا يمنعك من نظر القضية ؟

ــ لا . . . ولكني لا أحب القضايا السياسية .

ــ وهل تختلف العدالة بين القضايا السياسية والقضايا العادية ؟

ــ نعم . البوليس لا يمكن أن يكون محايداً في قضية سياسية .

ــ ولكنهم أجانب .

ــ وهل يمكن أن يكون البوليس الألماني محايداً في قضية ، أبطالها عرب ويهود ؟

ـــ اذن فليكن القاضي هو المحايد . وإذا كان « شبلنجر » يتهيب النظر في هذه القضية ، فمن تراه يجرؤ عليها ؟

ـــ لست متهيباً ، ولكن الحقيقة لا يمكن الوصول اليها بغير معرفة . وفي مثل هذه القضايا ، يكذب الجميع ، لأن أكثر من طرف يكون متورطاً . . . لقد اطلعت على الملف ، وشعرت بأن كل الذين وردت اسماؤهم يمكن أن يكون كل واحد منهم هو القاتل . حتى خليل الأزرق ، القتيل نفسه ، يصعب تبرئته من تهمة التحريض على اغتياله .

وضحكت ايفا ، فمالت وقبلته على خده قائلة : أتمنى لو استطيع حضور التحقيق ، لأرى كيف تنتزع الحقيقة من أفواه الشياطين !

* * *

في قاعة الانتظار كان سامي الشريف ، ومحمد أحمد ، وراشد أبو المنى ، وسلمى ، وريتا ، وسمير حلبي ، وموظفة فندق ، « شارلوت » وصاحبة فندق « اتلنتيك » وضابط البوليس الذي أشرف على التحقيق الاولي . . . بينما كان في غرفة التحقيق علي الشيخ ومحاميه « جيرهارد » وسعيد الطرابلسي الذي سمح له بحضور التحقيق كمحام .

وسأل القاضي « شبلنجر » المتهم علي الشيخ :

ـــ متى تعرفت بخليل الأزرق ؟

ـــ منذ سنوات طويلة ، عندما كنا في سوريا .

ـــ ومتى قابلته آخر مرة ؟

ـــ منذ حوالي شهرين في باريس .

ـــ ألم تقابله ليلة الثلاثين من ابريل (نيسان) الماضي ؟

ـــ قابلته في الصباح ، وفي المساء ، اتصلت به تليفونياً .

ـــ لماذا ؟

— لكي أعتذر له عن عدم تمكني من الحضور اليه !
— كنتما على موعد ؟

— نعم . عندما ذهبت اليه في الصباح أبلغني بوجود صفقة « الماس » وطلب حضوري مساء لمقابلة الوكلاء في الفندق . وفعلاً اتفقت معه على الحضور الى فندقه مساء نفس اليوم — أي مساء الثلاثين من أبريل (نيسان) .
— ولماذا لم تذهب اليه ؟
— لأنني عندما وصلت كنت متعباً ، وفضلت تأجيل الموعد الى الصباح . وفعلاً اتصلت به ، واتفقنا على ذلك .
— من كان معك ؟
— ريتا ؟
— هل استمعت لمكالمتك ؟
— نعم ، كانت بجانبي .
— وأين قضيت الوقت ، منذ أن تركته في الصباح الى أن قبض عليك البوليس صباح اليوم التالي ؟
— في غرفتي . . . لم أغادرها .
— ومن يشهد على ذلك ؟
— ريتا وراشد أبو المنى .
— وكيف عرفا ؟
— ريتا كانت معي في الغرفة طوال الوقت . وراشد اتصل بي من هامبورغ مرتين : مرة في التاسعة مساء والمرة الثانية في الحادية عشرة والنصف .
— لماذا طلبت منه تأجيل الموعد وفندقك يقع على مسافة تقل عن المائة متر من الفندق الذي ينزل فيه ؟

ـــ لأني فضلت البقاء مع « ريتا » في الفندق !
ـــ ما نوع العلاقة التي كانت بينك وبين خليل ؟
ـــ كان شريكي .
ـــ أي نوع من الشراكة ؟
ـــ في كل أعمالي التجارية .
ـــ هل تعمل في تجارة السلاح ؟
ـــ نعم .
ـــ وهل وقع بينكما خلاف ؟
ـــ لا يخلو الأمر ، ولكنه خلاف شركاء .
ـــ هل كنت تعلم بعلاقته بسكرتيرتك « ريتا » ؟
ـــ ليس من شأني الاهتمام بسلوك الموظفين الذين يعملون معي خارج نطاق العمل .
ـــ ريتا لم تكن مجرد موظفة . . ألم تقل أنك أجلت موعدك مع خليل من أجلها ؟
ـــ هذا لا يعني أنني أعتبر نفسي الرجل الوحيد في حياتها .
ـــ هل كنت تعرف أن في حياتها رجالاً آخرين ؟
ـــ نعم . . . كان هناك شاب تعود أن يتصل بها ، فتخرج معه !
ـــ ولكن الشرقيين يغارون عادة !
ـــ إلا إذا كانوا يعيشون في ألمانيا .
ـــ وهل ينطبق هذا على علاقة ابنتك بخليل الأزرق ؟
ـــ لا أعتقد أنه كانت بينهما علاقة مشينة . سلمى لا يعجبها هذا النوع من الرجال .
ـــ هل تظن أن هذا هو نفس رأي « ريتا » في هذه العلاقة ؟
ـــ وما شأن « ريتا » بسلمى ؟

— اسمع يا هر شيخ ، لا تحاول أن تخفي عن التحقيق شيئاً . أنت تعرف علاقة « ريتا » بخليل . وتعرف شعور « ريتا » نحو سلمى .

— أنا لا أخفي شيئاً .

— ألا تعرف أن ريتا شاهدت سلمى في غرفة خليل في فندق « برنس ده غال » ؟

— سلمى تتردد كثيراً على خليل ، وهي تعرفه منذ كانت طفلة في سوريا . ولا أرى معنى لزج اسم سلمى في التحقيق .

— البوليس يشك في أن لك كما لريتا مصلحة مشتركة في التخلص من خليل الأزرق .

— هل هذا اتهام يا سيدي المحقق ؟

— لم نصل بعد الى مرحلة الاتهام . . .

وأشار القاضي « شبلنجر » الى الحارس ، الذي خرج بعلي الشيخ الى غرفة مجاورة .

١٤

دخل ضابط البوليس « أدولف رويس » الى غرفة القاضي « شبلنجر » وبعد أن أدى التحية وأعطى البيانات الشكلية ، قال :

ـــ في الساعة التاسعة من صباح يوم الثلاثين من أبريل (نيسان) ، أتصل بنا فندق « أتلنتيك » وقال أن النزيل في الغرفة رقم ٤٥ ، وجد مقتولاً . فانتقلنا الى هناك على الفور ، حيث علمنا من ادارة الفندق أن الموظفة المكلفة بتفقد الغرف صباح كل يوم ، طرقت باب الغرفة ٤٥ ، فلما لم تسمع اجابة ، ولم تكن هناك ورقة « عدم الازعاج » فتحت باب الغرفة بالمفتاح العمومي ، فوجدت النزيل ملقى على الأرض وسط بركة من الدماء ، فهرولت صارخة . وأبلغت الادارة التي اتصلت بدورها بي . وتبين من سجلات الفندق ، أن ساكن الغرفة هو خليل الأزرق ، سوري الجنسية ، نزل في الفندق في الساعة الثالثة من بعد ظهر يوم ٢٧ أبريل (نيسان) . وصعدنا الى الغرفة ، فوجدنا القتيل ملقى على وجهه ،

فوق الأرض بالقرب من المقعد ، وهو مرتد قميصاً وبنطلوناً . وبالكشف على الجثة ، تبين أن القتيل قد أصيب بطلقة نافذة في القلب من مسدس عيار ٦ مليمتر ، أطلق من مسافة قريبة ، فقد وجدت آثار البارود على قميصه . كما لم تلاحظ أية آثار لشجار أو مقاومة . وبتفتيش الغرفة ، عثر في حقيبة المتهم على ٣ جوازات سفر ، تحمل صورة المتهم باسماء مختلفة : الأول ايطالي ، والثاني أردني ، والثالث من دولة اسمها ، « عجمان » . كما لوحظ وجود تأشيرتين على الجواز الايطالي تفيدان دخوله اسرائيل . وعثر أيضاً على مبلغ خمسين الف دولار أميركي ، كلها من فئة الالف دولار . و ٤٩٢ جنيها استرلينياً و ٤٦٣٠ ماركاً المانياً وثلاثة دفاتر شيكات على ثلاثة بنوك في فرنسا وسويسرا والمانيا ، كما عثر على مفكرة صغيرة مدون بها أرقام تليفونات ومواعيد ، كان أهمها موعد الساعة التاسعة مع علي الشيخ في نفس اليوم الذي قتل فيه .

ولأن تقرير الطبيب الشرعي أفاد أن الجريمة وقعت بين الساعة التاسعة والحادية عشر مساء ، فقد القينا القبض على علي الشيخ .

وبسؤال موظفي الفندق ، عرفنا أن القتيل اجتمع صباح نفس اليوم مع علي الشيخ كما اجتمع قبل ذلك بثلاثة أشخاص ، احدهم يتكلم الالمانية ، ويمكن أن يكون المانياً ، اتصلوا به من صالة الاستقبال ، ثم ذهبوا الى مقهى قريب من الفندق . وفي مساء اليوم الذي قتل فيه تلقى مكالمة تليفونية في الساعة الثامنة مساء من فندق « شارلوت » .

وكان القاضي « شبلنجر » يقلب الأوراق ، ويدون بعض الملاحظات في ورقة أمامه ، فلما انتهى ضابط البوليس من الادلاء باقواله ، سأله القاضي :

— ألم تستغرب أن يكون علي الشيخ لا يزال في غرفته بالفندق

حتى الساعة العاشرة صباحاً عندما القيتم القبض عليه ؟ أي أنه مكث في غرفته حوالي ١٤ ساعة ؟

ـــ الحالة التي وجدناه فيها تبرر ذلك ... الا اذا كان قد تعمد أن نراه في هذا الوضع .

ـــ كيف وجدتموه ؟

ـــ وجدناه وريتا يا سيدي القاضي عاريين تماماً ، وفي سرير واحد . وقد استدعينا طبيباً ليساعدنا على ازالة آثار الخمر والحشيش التي يبدو أنهما كانا يتعاطيانها طوال الليل .

ـــ وماذا وجدتم في الغرفة ؟

ـــ لا شيء ، سوى ورقة صغيرة بجوار التليفون مكتوب عليها ، « خليل الأزرق » غداً الساعة الواحدة .

ـــ ومن أين استقيت المعلومات الواردة في محاضر التحقيق عـن القتيل والمتهم ؟

ـــ استعنا بمعلومات أجهزة الأمن الأخرى ، لأن القتيل خليل الأزرق كان متصلاً ببعض أجهزة المخابرات الأجنبية ، كما أن المتهم علي الشيخ كان شخصية سياسية في بلده .

ـــ جاء في تقريرك ، أن خليل الأزرق قد عقد صفقة سلاح لمصلحة اسرائيل .... هل كان علي الشيخ مشتركاً بهذه الصفقة ؟

ـــ لم نستطع توضيح هذه النقطة رغم أهميتها ، وان كان الشاهد « سمير حلبي » يرجح ذلك . ولما سألنا علي الشيخ ، نفى علمه تماماً بها .

ـــ هل كان لعلي الشيخ نشاط آخر غير تجارة السلاح ؟

— ليس لدينا معلومات . وجوازه سليم . وتحركاته كلها في اطار القانون .

— على أي أساس بنيت شكوكك حول علي الشيخ ؟

— لأنه هو الشخص الوحيد الذي كان يمكن أن يوجه اليه الاتهام . كما أنه كان على موعد معه في نفس الليلة التي قتل فيها . وقرب الفندقين يسهل له الانتقال الى مكان الجريمة والعودة دون أن يلاحظ أحد غيابه . ثم أن بين القتيل والمتهم علاقات من النوع الذي ينتهي عادة بالجريمة . هناك دوافع مالية ، ورغبة في كتمان بعض الفضائح . فاذا أضفنا الى ذلك عامل الغيرة عند علي الشيخ كأب ، وكعاشق مخدوع ، كان لنا الحق في التحفظ على المتهم ، وتقديمه اليكم .

وهنا التفت القاضي « شبلنجر » الى المحامي « جيرهارد » وقال له : أرى أن يبقى المفوض « رويس » معنا ، حتى نهاية التحقيق ، اذا لم يكن لديك مانع .

— بالعكس ، اقترح أيضاً أن يحضر المتهم ، حتى يمكن مناقشة الشهود ، ونفرغ من هذه القضية الواضحة باسرع وقت ممكن .

وجيء بعلي الشيخ ، ونودي على « ريتا » .

ودخلت « ريتا » ... أنيقـة معطرة كأنها متوجهة الى حفلة ساهرة . وبعد أن القت التحية باشارة من رأسها لعلي الشيخ ، توجهت الى المقعد الذي أشار اليه القاضي « شبلنجر » وجلست في رشاقة بالغة ، متجنبة النظر للمحامي جيرهارد كأنها لم تكن معه ليلة أمس .

وبعد أن عرفت نفسها في المحضر ، بأنها سكرتيرة « علي الشيخ » .

المانية الجنسية . سنها٢٨ سنة . سألها القاضي « شبلنجر » :

— متى وصلتما الى الفندق ؟

— لا أذكر بالضبط ، ما بين السابعة والثامنة صباحاً وصلنا بالسيارة وكنت أنا التي أقودها .

— هل نزلتما في غرفة واحدة ؟

— تقريباً .

— ماذا تقصدين ؟

— نزلنا غرفتين لهما باب مشترك .

— وهل بقيتما في تلك الغرفة المزدوجة طوال الليل ؟

— نعم ... أحياناً كنا نذهب الى غرفته لنشرب أو نأكل ،ثم نعود الى غرفتي للنوم والراحة .

— أقصد هل أنت متأكدة أنه كان معك منذ الساعة السابعة مساء حتى العاشرة صباح اليوم التالي ؟

— بالطبع . . كان معي إلى أقصى حد يمكن أن يكون فيه رجل مع امرأة .

— متى بدأتما في تعاطي الخمر ؟

— بعد منتصف الليل .

— ولماذا بعد منتصف الليل لا قبله ؟

— لأني لا أحب أن أشرب الا بعد انتهاء برنامج التلفزيون . وقد شهدت فيلم « كباريه » حتى نهايته .

— والحشيش ؟

ونظرت ريتا الى القاضي « شبلنجر » ثم قالت :

— هل تحققون معي بتهمة تعاطي المخدرات ؟

— أرجوك أن تكتفي أنت بالاجابة ، وتتركي لنا توجيه الأسئلة .

ثم أكمل :

— ان معلومات البوليس تقول أنك كنت على علاقة مع خليل الأزرق ،فلماذافضلت في تلك الليلة البقاء مع علي الشيخ ؟

— هل صدر في ألمانيا قانون يمنع تعدد العشاق ؟

وشعر القاضي « شبلنجر » أنه أمام امرأة ليست عادية ، فغير مجرى الاسئلة ، وقال :

— متى اتصل علي الشيخ بخليل الأزرق ؟

— ربما منذ عشر سنوات .

— فرولين ريتا ، لا تحاولي العبث أثناء التحقيق . متى اتصل به ليلة الحادث ؟

— اتصل به حوالي الثامنة مساء واتفقا على تأجيل الموعد الى ظهر اليوم التالي .

— لماذا ؟

— ماذا تعني يا سيدي المحقق ؟

— أعني أنه اذا كان معك كل ليلة ، فلماذا يؤجل موعده مع خليل الذي حضر خصيصاً ليراه ؟

— قد لا تصدق ما حدث يا سيدي القاضي . عندما خرجنا من « هامبورغ » كان الطقس جميلاً . وأنت تعرف يا سيدي تأثير الطبيعة الجميلة في يوم مشمس . . . وغمزت « ريتا » بعينيها ، وابتسمت وهي تقول :

— ألسنا في الربيع ؟ واكتشفنا بعد مغادرتنا بلدة « لوبيك » أننا لم نأخذ اجازة منذ عدة أشهر . واتفقنا أن نقضي الليلة بلا عمل !

وبينما كان « شبلنجر » يحاول النفاذ الى أغوار ريتا ، حائراً بين أن يصدق روايتها ، فيطمئن ضميره لبراءة علي الشيخ ، وبين أن تكون كاذبة وذلك يعني أنه أمام جريمة كاملة ، لا يستطيع القاضي أن يكتشف حقيقتها .

في هذه الأثناء ، قدم المحامي « جيرهارد » شهادتين كتابيتين من عامل التليفون في فندق « أتلنتيك » شهد في احداهما بانه تسلم في الساعة الثامنة ، مكالمة تليفونية من فندق « شارلوت » ، حولت الى الغرفة رقم ٤٥ ، وكان المتكلم رجلاً . ودار الحديث بلغة غير أوروبية . أما الشهادة الثانية فكانت من موظف فندق « شارلوت » الذي أفاد بانه حول مكالمة ، من علي الشيخ الى فندق « أتلنتيك » .

وبعد أن ضم القاضي « شبلنجر » الشهادتين الى المحضر ، تابع سؤال « ريتا » :

— هل كان خليل الأزرق يعرف أنك قادمة مع علي الشيخ ؟

— طبعاً ، فانا سكرتيرته .

— وهل وافق بسهولة على تأجيل موعد المساء الى اليوم التالي ؟

— لم استمع الى المكالمة . كنت في الحمام .

— كيف عرفت أنها تأجلت ؟

— علي الشيخ أخبرني بعدما عدت من الحمام ، وقال : « أصبحت الليلة كلها لنا » . ثم طلب مني الاتصال بعامل التليفون ، لاطلب منه عدم تحويل أية مخابرة الينا .

— وجد معك مفتاح شقة خليل الأزرق في باريس !

— نعم ، هو الذي أعطاه لي !

— وهل هو الذي أعطاك أيضاً مفتاح خزانته الخاصة ؟

وسكتت لحظة ثم قالت :

— أنا الذي صنعته .

— لماذا ؟

— كنت أحبه ، وأحب أن أطلع على أسراره !

— وكيف تحبينه ، وتقضين الليلة مع شريكه علي الشيخ ؟

— اسمح لي يا سيدي القاضي أن أقول بان جيلنا يختلف تماما عن جيلكم .

وقفزت الى مخيلة القاضي « شبلنجر » صورة زوجته « ايفا » ، وسألها بحدة :

— وهل جيلكم أيضاً يسجل المخابرات على من يحب ، كما

وجد في بيتك ؟

— جيلنا يفعل ما يحلو له . وبعض هذه التسجيلات كانت لحساب علي الشيخ .

— ولحساب من كنت تسجلين مكالمات علي الشيخ ؟

ورفع علي الشيخ رأسه فجأة ، وظهرت الدهشة على وجهه ، ولكن أحداً لم ينتبه اليه . ولما لم تجب « ريتا » تابع « شبلنجر » :

— لحساب خليل الأزرق أم لحساب توماسيان ؟

— اذن أنت تعرف !

— نعم يا آنسة ، ونحن نعرف أنك يهودية ؟

— نصف يهودية . أمي فقط .

وتبادلت النظرات مع علي الشيخ ، الذي بدا عليه وكأنه فوجيء بهذه المعلومات . وتمالكت « ريتا » نفسها ، وعادت اليها روح التحدى وتابع القاضي « شبلنجر » :

— نصف يهودية ؟ اذا كانت أمك يهودية فأنت يهودية كاملة . ومع ذلك كنت تسهلين حصول العرب على السلاح .

— لتحقيق التوازن ... الا تعطي حكومتنا السلاح لاسرائيل (قالتها ريتا ساخرة) .

— ولكن السلاح مع العرب يقتل اليهود !

وتغيرت ملامح ريتا ، وبدت امرأة أخرى لا يعرفها « علي الشيخ » وقالت :

— السلاح مع العرب لا يقتل غير العرب . ما من أحد منهم يأتي ليشتري سلاحاً يحارب به .

وقلبت شفتيها بازدراء وتابعت :

— كلها صفقات رشوة وسمسرة . وأفضلهم من يريد السلاح لحماية نظامه من شعبه ، أو من جيرانه العرب !

وتغير لون علي الشيخ . وضرب المنضدة بيده بعصبية ظاهرة . فتدخل محاميه الهر جيرهارد قائلاً :

— هذا الكلام يسيء الى موكلي .

قال « جيرهارد » ذلك ، مع أنه كان سعيداً بما وقع لأنه يدعم شهادة « ريتا » لصالح موكله ، اذ ينفي شبهة التواطؤ بينها وبين « علي الشيخ » .

وقال القاضي « شبلنجر » :

— لنعد الى التحقيق ... متى عرفت بعلاقة خليل الأزرق بسلمى ابنة علي الشيخ ؟

— يوم رأيتها عنده في فندق « برنس ده غال » بباريس .

— كانت تلك أول مرة تكشفين علاقتهما ؟

— كنت قبل ذلك أشك في علاقتهما . ولكن خليل كان يؤكد لي أنه يستغل سلمى لتوثيق علاقته بأبيها ... ثم لم ألبث أن تأكدت من نوع علاقتهما .

— وهل أحسست بالغيرة ؟

— في البداية نعم . ثم أدركت أنني أقضي أوقات سعيدة معه ،

ولا داعي لافسادها بغيرة حمقاء . فالشباب عمره قصير يا سيدي القاضي .

ــ ألم تفكري في قتلهما معاً ؟

وأطلقت ريتا ضحكة ذات صدى ، ثم قالت :

ــ هل أنت جاد يا سيدي القاضي ؟ ريتا لا تقتل من أجل الغيرة !

ــ ولكنك غضبت منه وقاطعته ... كم استمرت خصومتكما ؟

ــ ثلاثة أيام .

ــ ومن الذي عاود الاتصال ؟

ــ ليس من عادة خليل الأزرق الاتصال بامرأة .

ــ ولا حتى سلمى ؟

ــ لا أعرف ... ولكنه لم يتصل بامرأة أمامي . كل النساء يطاردنه .

شبلنجر ساخراً :

ــ سحر الرجل أم حنين النساء في الغرب الى عهد الفروسية ؟

ــ لا أظن أن مثل هذه الأسئلة تخدم التحقيق يا سيدي .

ــ هل تحتفظين بأسلحة ؟

ــ أنا أعمل بتجارة السلاح .

ــ هل تملكين مسدساً عيار ٦ مليمتر ؟ أو تعرفين أحداً يملك مسدساً من هذا النوع ؟

ــ نعم أنا وعلي الشيخ وخليل الأزرق . لقد بعنا صفقة مسدسات ٦ مليمتر واحتفظنا بعشرة منها ، لانها كانت من النوع الممتاز . وكلها محفوظة في خزانة خليل الأزرق .

— هل كان علي الشيخ يعلم بعلاقة خليل الأزرق بك ؟

تفكر قليلاً دون أن تنظر الى علي الشيخ وتقول :

— أعتقد ذلك .

— ماذا كانت ردة فعله ؟

تحني رأسها وتهمس :

— أظنه تألم كثيراً .

— متى عرف ؟

— كان يشك في الفترة الأخيرة ، الى أن رآني معه في شقته .

— هل يمكن أن يقتل علي الشيخ خليل الأزرق من أجلك ؟

تتأمل علي الشيخ طويلاً ، وبعد أن ترتسم ابتسامة خفيفة على شفتيها تقول :

— لا أظن . كان يعرف أن لي صديقا المانياً .

— هل هو « فولكنر » عميل المخابرات الاسرائيلية ؟

يخفي علي الشيخ وجهه بين يديه ، بينما تقول ريتا بصوت مرتفع :

— اسمه « فوكنر » ، ولا أعرف عنه شيئاً مما تقول . كان يتردد عليَّ ، وكنا نخرج معاً ، وهو شاب لطيف ، عرفته بعلي الشيخ فلم يهتم .

— هل كان علي الشيخ يعرف بعلاقة خليل الأزرق بابنته ؟

— نعم عرف .

— من الذي أخبره ؟

— أنا ...

— لماذا ؟

— ليمنع ابنته عن خليل .

* * *

لم يعد علي الشيخ يسمع حرفاً مما يدور في غرفة التحقيق . هرب الى أيامه الأولى في سوريا . وجد نفسه يفكر في قضية « ايلي كوهين » . لقد اجتمع بايلي كوهين أو كما كان يسمى « كامل أمين ثابت » . من يدري ما هو اسمك الحقيقي يا ريتا ؟ نفس الصوت ، ونفس الدور ، ولكنه هو الذي يحاكم هذه المرة . كيف استطاع ايلي كوهين أن يحتفظ بدوره في مواجهة سوريا كلها ؟ كيف استطاع أن يدخل حزب البعث ؟ بل كيف حشد كبار الضباط في مخدعه ؟... ومرة أخرى استطاعت « ريتا » أن تتسلل الى مكتبه ، وان تكون عشيقته وعشيقة خليل الأزرق وعشيقة « فوكنر » عميل المخابرات الاسرائيلية ... بل وان تصبح حياته رهنا بشهادتها ...

وضحك بمرارة : هل أصبحت حياته مهمة للمخابرات الاسرائيلية

حتى تشهد « ريتا » بأنه كان يبيت ليلته في مخدعها لتنقذ حياته ؟ هل صحيح انها كانت تحب خليل الأزرق أم كنا جميعاً مجرد أدوات ؟

(وأحس وكأن يداً تعصر قلبه ، وهو يحاول أن يفر من السؤال : لماذا يتفوقون علينا ؟

ووجد نفسه يجيب بسؤال آخر : كم مرة فكرت يا علي الشيخ بقضية فلسطين ، منذ خرجت من سوريا ؟

* * *

— شخص اسمه راشد أبو المنى يريد التحدث معك ...

وتحدث علي الشيخ قائلاً : أهلاً راشد !

وقال له راشد: أريد أن أراك على الفور .

— اذن احضر في أول طائرة .

الآن فقط لاحظ كيف كانت « ريتا » تضيق بصلته مع راشد ، وكيف حاولت في ذلك اليوم أن تخرجه من المكتب ، وان تفتعل عدة مواعيد لتعطيل لقائه مع راشد أبو المنى ... كيف لم تتنبه يا علي الشيخ ، يا ضابط المخابرات ؟ وكيف لم يثر فضولك هذا النفور المتبادل بين راشد أبو المنى وريتا ؟

ووصل راشد أبو المنى الى باريس ... وكانت اللطمة قاسية : راشد أبو المنى يتكلم في السياسة لأول مرة .

— أنت تعلم يا علي أنني لا أتعاطى السياسة ، ولم أحاول أن أتدخل في أعمالك ، ولم أسألك مرة واحدة عن طبيعة تجارتك ، ولا مع من تتعامل ... ولكن هناك قضايا لا يمكن مواجهتها بعدم المبالاة ... انها فوق المواقف السياسية .

— ما حكايتك اليوم ؟ لماذا لا تدخل في الموضوع مباشرة ؟

— لأنه موضوع حساس ، واتمنى أن تكون معلوماتي خاطئة . وأنا واثق من أنك لا تعلم عنه شيئا . ولكنه يمسك بشكل مباشر .

— أرجوك يا راشد ، لا تلعب باعصابي ، قل مباشرة ماذا حدث ؟

— أنت تعلم أنني لست منضما لاية تنظيمات ، ولكن حركة المقاومة الفلسطينية في المانيا اتصلت بي وأبلغتني معلومات أكيدة لديها أن خليل الأزرق كان طرفاً في صفقة قطع غيار السلاح التي هربت من فرنسا الى اسرائيل .

— صفقة سلاح ؟ .. لاسرائيل ؟ وخليل الأزرق ؟ يعني أنا .

لم يكن علي الشيخ منزعجاً لاحتمال صحة الخبر ، بقدر ما كان منزعجاً من صدور هذا الخبر عن المقاومة الفلسطينية . كان علي الشيخ على استعداد ليواجه بازدراء اتهام أية سلطة عربية ، فكلها مدانة ، وكلها متهمة ... أما المقاومة فهي وحدها التي يحرص كل عربي على تبرئة ساحته أمامها ...

والتفت الى راشد أبو المنى مستجدياً :

— هل تصدق أنت يا راشد ، انني أفعل مثل ذلك ؟

— أنا أثق بك . ولكن معلومات المقاومة صحيحة . والتفسير الوحيد أن خليل الأزرق فعلها من ورائك ، أو أنه تورط فيها دون أن يدري . وإن كنت شخصياً أعتقد أنه لا يتورع عن شيء .

وهمس علي الشيخ كأنه يحدث نفسه : حتى إسرائيل ؟

وضغط على الديكتافون . وردت ريتا . فقال لها علي الشيخ : اطلبي خليل الأزرق في « هامبورغ » .

ثم التفت إلى راشد وقال له : ستسافر معنا إلى « هامبورغ » أريدك أن تطلع على كل التفاصيل ...

* * *

خلع القاضي « شبلنجر » نظارته ، ثم رفع صوته وهو يتطلع إلى ريتا قائلاً : في الشهادة التي أدليت بها للبوليس ، قلت أن راشد أبو المنى هو الذي أبلغ علي الشيخ بصفقة السلاح الإسرائيلي .

— أخبرني بذلك علي الشيخ ونحن متجهون من باريس إلى « هامبورغ » . وفهمت أنه غاضب لأن خليل الأزرق أخفى عنه خبر الصفقة .

— كان غاضباً من أجل الصفقة أم من أجل العمولة ؟
— هذا سؤال يجب أن يوجه إلى علي الشيخ ... ولكني لا اعتقد

أنه يهتم كثيراً بالسياسة

ولأول مرة ، قطع علي الشيخ مجرى التحقيق قائلاً :

ـ سيدي القاضي ، أحب أن أوضح هذه النقطة . أنا لا يمكن أن أوافق على عقد صفقة سلاح تخدم إسرائيل . إنني تاجر سلاح ولكنني عربي قبل كل شيء . ولو كنت قد تأكدت فعلاً أن خليل الأزرق عقد هذه الصفقة ، لكان لي موقف آخر .

ـ ما هو الموقف الآخر ؟ هل كنت تقتله ؟

ـ ربما ، ولكن إرادة الله شاءت أن يقتل قبل أن أتأكد من الصفقة !

وعاد علي الشيخ إلى صمته ، وتابع القاضي « شبلنجر » استجوابه لريتا : ما هي معلوماتك عن راشد أبو المنى ؟

ـ فلسطيني له علاقة بالإرهابيين .

وحده علي الشيخ ، مزقت قلبه كلمة إرهابيين . ريتا لا تحاول حتى إخفاء عواطفها .

ـ هل كانت معرفتك بالصفقة عن طريق علي الشيخ ... أم أنك كنت على علم بها عندما تمت قبل ثلاث سنوات ؟

ـ من أين سأعرف يا سيدي القاضي ؟

ولم يصدق علي الشيخ ما قالته « ريتا » . لقد كشف له التحقيق

حقيقة هذه المرأة التي كانت تسجل له ولخليل الأزرق احاديثهما ، والتي كانت تحتفظ بمفتاح خاص لخزانة خليل الأزرق السرية ... ومن يدري كم من المفاتيح لخزائنه ؟ وهل كانت هناك أسرار على ريتا ؟ كانت ريتا تعرف كل شيء . وكان ذلك أمراً طبيعياً لسكرتيرة وعشيقة ، ولكن بعد أن تبين أنها يهودية وعلى علاقة بالمخابرات الإسرائيلية ، اكتشف أنه كان في قبضة المخابرات الإسرائيلية وهو لا يدري . وهي غلطة لا تغتفر لرجل كان يعمل في المخابرات . لقد اكتسبت ريتا ثقته بسرعة كما اكتسب إيلي كوهين ثقة حزب البعث وثقة الدولة السورية . صحيح أن الأسرار التي حصلت عليها ريتا لا تمثل شيئاً بالنسبة للأسرار التي نقلها إيلي كوهين ... فصفقات السلاح فيها طرف أجنبي لا تعجز إسرائيل عن الاتصال به ، ومعرفة ما تريد ... أن الذي يعذبه الآن هو : لماذا تتكلم ريتا لتحميه ، ولماذا صمت إيلي كوهين في المحاكمة فحمى بصمته بعض النافذين في دمشق ؟ هل أصبحت حياته مفيدة لمخططات إسرائيل ؟

* * *

وعاد القاضي « شبلنجر » يسأل ريتا : ما هي طبيعة العلاقة بين راشد أبو المنى وعلي الشيخ ؟

— علاقة ابتزاز . إن راشد أبو المنى يعمل في مصنع بفرانكفورت يديره نازي سابق . وهو يستغل علاقته بالإرهابيين الفلسطينين لابتزاز أموال علي الشيخ ...

وارتفع صوت علي الشيخ بالعربية : كذابة !

وتطلع القاضي « شبلنجر » إليه متسائلاً : ماذا تقول ؟

وبينما كانت ريتا تغادر قاعة التحقيق ، كان المحامي « جيرهارد »

يسأل سعيد الطرابلسي عن معنى الكلمة ، ليثبتها في محضر التحقيق .

ودخل راشد أبو المنى ...

١٥

ودخل راشد ابو المنى ، فالقي نظرة سريعة على من في الغرفة ، ثم توجه الى المقعد ، وانتظرحتى أشار اليه القاضي « شبلنجر » .

— اسمك ؟

— راشد ابو المنى .

— الجنسية ؟

— انا فلسطيني الجنسية ... ولكنها غير مدرجة على لائحة الجنسيات المعترف بها في المانيا ، ولذلك احمل جوازسفر اردنيا .

— كم مضى عليك في المانيا ؟

— خمس سنوات .

— ماذا تعمل في المانيا ؟

— مهندساً في شركة مصنع « مان » للسيارات في فرنكفورت .

— متى تعرفت بعلي الشيخ ؟

— منذ ثلاث سنوات .
— هل تعمل معه في تجارة السلاح ؟
— لا ... مجرد صداقة .
— ما الذي اتى بك الى « هامبورغ » ؟
— طلب مني علي الشيخ أن أجيء معه ...
— هل كان ذلك ، بعد ان أبلغت انت علي الشيخ بخبر صفقة السلاح ؟
— نعم .
— وهل تعرف خليل الأزرق ؟
— معرفة سطحية . قابلته مرة او مرتين بالصدفة في شقة علي الشيخ في باريس .
— وما هي المعلومات التي نقلتها الى علي الشيخ ؟
— قلت له ان هناك أخبارا تتردد في الأوساط العربية حول صفقة سلاح لحساب اسرائيل ، اشترك فيها خليل الازرق .
— هل استقيت معلوماتك من اوساط الارهابيين الفلسطينيين ؟
ورفع راشد ابو المني رأسه بكبرياء وقال :
— تقصد الفدائيين ؟
واستدرك القاضي « شبلنجر » : آسف ... هل حصلت على معلوماتك من المنظمات الفلسطينية ؟
— من الأوساط العربية يا سيدي القاضي . هذه الصفقة لم تعد سرا ، وهي موضع حديث كل العرب في اوروبا .
— وما رأيك فيما يقوله البوليس ، من ان المنظمات الفلسطينية اصدرت حكمها باعدام خليل الازرق ؟
— لا علم لي بذلك يا سيدي .

— هل تعتقد ان علي الشيخ كان مكلفا بتنفيذ هذا الحكم ؟

— في حدود علمي ، فان هذه المنظمات تنفذ أحكامهابنفسها .

— كيف عرفت ذلك ؟ هل لك اتصال معهم ؟

— ليس لي هذا الشرف . انا لا اعمل في القضايا السياسية .

— ولكنك اهتممت بابلاغ علي الشيخ بأخبار الصفقة .

— كانت تهمني سمعة صديقي علي الشيخ بالدرجة الأولى . وإذا كنت لا اشترك مع شعبي في مقاتلة الإسرائليين ، فلا أقبل ان أكون صديقا لرجل يسلح الاسرائليين .

— الا ترى ان نشاطك هذا يتعارض مع واجباتك ازاء الضيافة التي منحتك اياها الحكومة الالمانية ؟

— انا لا أقوم بأي شيء مخالف للقانون ... ولكن اقامتي في المانيا لا تعني ان انسى قضية شعبي ، او ان اترك صديقي ينزلق في ما يسيء الى سمعته .

— وما هي علاقتك بريتا ؟

— ليس هناك علاقة خاصة . وكنت أشك فيها دائماً ، وهي من جانبها حاولت ان تتقرب مني .

— هل كنت تعرف انها يهودية ؟

— ابدا ... ولو عرفت لما تغير موقفي . نحن يا سيدي القاضي لا نعاني من عقدة يهودية . نحن لم نضطهدهم ، ولا نحتاج لتملقهم من تحت تأثيرعقدة ذنب .اليهود اضطهدوا في كل بلاد العالم الا في الوطن العربي .

ولأن القاضي « شبلنجر » لم يواجه في حياته فلسطينيا . ولانه ايضا قليل الاهتمام بالسياسة ، وليس له ميول الا كراهية غامضة للنازية ، فقد استهوته الفرصة ، واراد أن يعرف من راشد ابو المنى شيئا عن طبيعة

القضية التي أصبحت تحتل مكانا الصدارة في الصحف الالمانية .

— هل تستطيع ، انت الشاب المثقف ، والذي لا تعاني اية عقدة يهودية كما تقول ، ان تفسرلي سرعدائكم لليهود ؟

ولاح شبح ابتسامة على شفتي راشد ابو المنى وقال :

— نحن لا نعادي اليهود ولكننا نعادي الحركة الصهيونية التي انتزعت ارضنا ، وشردت شعبنا ، واقامت كيانا عنصريا عدوانيا . والارهابيون الذين يتحدثون عنهم يا سيدي القاضي ، لا يعملون الا لازالة الطبيعة العدوانية العنصرية لهذا الكيان . بعدها يمكن العيش في ظل دولة ديمقراطية غير عنصرية تضم العرب واليهود على قدم المساواة .

— لماذا تنقلون حربكم إلى عواصم العالم ؟ ما دخلنا نحن في خلافاتكم ؟

— عواصم العالم هي التي نقلت المشكلة اليها . واسمح لي يا سيدي القاضي ان أذكرك بان سياسة هتلركانت احدى العوامل الاساسية في خلق مأساة بلدي ...

وعلق القاضي « شبلنجر » سجين النازي القديم قائلا :

— وهل ترك هتلر بلدا لم يسبب له مأساة ؟

— ولكنها كانت كلها مآسي عابرة ، أما مأساة بلدي فهي مأساة مصير !

ولم يشأ القاضي ان يستمر في الحوار السياسي ، بل عاد ليسأل :

— اين قضيت وقتك في « هامبورغ »،منذ وصولك اليها مع علي الشيخ وريتا ؟

أوصلاني الى فندق « انتركونتيننتال » فتناولنا الغداء معاً. وفي

المساء ، أخبرني علي الشيخ ونحن نتناول العشاء ، أنه سيسافر صباح اليوم التالي في ساعة مبكرة الى « الترافي موندي » . وأعطاني عنوانه في فندق « شارلوت » . وفي الساعة التاسعة من صباح اليوم التالي اتصلت بعلي الشيخ ، فأخبرني بأنه سيقابل خليل الأزرق على الغداء ظهراً ، لأنه وصل متعباً ويريد أن يرتاح . وفي الساعة الحادية عشرة ليلاً ، اتصل بي علي الشيخ مرة أخرى ، واقترح علي المجيء الى « الترافي موندي » لتناول الغداء معه ومع خليل الأزرق .

— الا يمكن ان يكون علي الشيخ قد اتصل بك لكي يثبت وجوده خارج مكان الجريمة ؟

— ممكن . وممكن ايضا ان يكون هدف دعوتي الى الغداء ، هو حضوري المناقشة بينه وبين خليل الأزرق ، حتى اتاكد أن لا علاقة له بصفقة السلاح ، لقد كان حريصا على تبرئة نفسه امامي .

— وماذا فعلت ؟

— نمت . وفي الصباح توجهت الى فندق « شارلوت » في « الترافي موندي » . وهناك وجدت البوليس الذي استجوبني واوقفني ثلاثة ايام .

— هل انزعجت عندما عرفت ان خليل الأزرق قد قتل ؟

— بالعكس ... وان كان ذلك لا يحل القضية .

— اية قضية ؟

— القضية التي جمع ثروته على حسابها .

وهنا ارتفع صوت علي الشيخ قائلا :

— انا الذي انزعج يا سيدي القاضي . لقد مات قبل ان اعرف منه الحقيقة !

كانت الساعة الثالثة ، عندما التفت القاضي « شبلنجر » الى معاونه

وسأله من بقي من الشهود ؟

— سلمى بنت علي الشيخ . وعاملة الفندق . وسمير حلبي احد سماسرة السلاح .

— نسمعهم غدا .

ثم التفت الى المحامي « جيرهارد » وقال : ما رأيك ان نستأنف التحقيق في التاسعة غدا ؟

— اذا سمحت ان نجعلها العاشرة !

ووافق القاضي ، ورفعت الجلسة .

* * *

في غرفة الطعام بفندق « الانتركونتيننتال » بهامبورغ ، جلس سعيد الطرابلسي وسامي الشريف ومحمد احمد وسمير حلبي وراشد ابو المنى وسلمى الشيخ حول مائدة واحدة .

وكان طبيعيا ان يدور حديث حول جلسة التحقيق . قال سامي الشريف مخاطبا سعيد الطرابلسي : هل لك يا حضرة المحامي المستمع ان تعطينا فكرة عن أقوال الشهود ؟

— لا تختلف كثيرا عن ما جاء في محاضر التحقيق . ولكن المثير في جلسة اليوم هو اعتراف ريتا بان امها يهودية ، وانها على علاقة بالمخابرات الاسرائيلية ، وكشفها عن عدائها للعرب .

والقت سلمى بالشوكة والسكين اللتين كانت تمسك بهما ، وقالت :

— كنت دائماً أشك بهذه المرأة . ولكنكم انتم الرجال تعمى عيونكم بمجرد روية امرأة حسناء .

ورد سامي الشريف : ليس الرجال وحدهم يا ست سلمى ... الم تسمعي باتصالات خليل الأزرق باسرائيل ؟

وتدخل سعيد الطرابلسي وقال : هل تريدون ان تعرفوا ما جرى في الجلسة أم تفضلون العراك ؟

وسكت الجميع ، فأستأنف حديثه : القضية كلها تعتمد على شهادة « ريتا » . فالقاضي لا يستطيع تجاهل شهادة أمرأة معادية للعرب ، لان هذا العربي بات ليلة الجريمة في أحضانها ، كما ان جميع الشهود الاخرين لم يستطيعوا اثبات رواية مخالفة . حتى البوليس ، على الرغم من المعلومات التي جمعها عن القضية ، لم يستطع ان يجزم بشيء عن تحركات علي الشيخ خلال الفترة التي وقعت فيها الجريمة .

وقال محمد أحمد : هل تعتقد ان علي الشيخ هو القاتل ؟

وبادر سامي الشريف ليرد قائلا : استبعد ذلك . كان خليل الازرق هو الدجاجة التي تبيض له ذهبا . اما حكاية الصفقة مع إسرائيل ، فصحيح ان علي الشيخ يمكن ان لا يكون قد عرف بها ، ولكني لا أعتقد ان حماسته الوطنية ستصل الى حد ارتكاب جريمة قتل ... وقتل من ؟ خليل الأزرق !

ونظر سعيد الطرابلسي الى سلمى ثم قال : ربما كانت جريمة شرف .

وضحك سامي الشريف وقال : شرف من ؟

وتابع سعيد الطرابلسي قائلا : ليس من المعقول ان تقدم « ريتا » كل هذه التغطية لعلي الشيخ دون دافع شخصي . وأنا أميل إلى الإعتقاد ان الدافع الشخصي هو رغبتها في الانتقام من خليل الأزرق الذي انصرف عنها في المدة الأخيرة .

وقالت سلمى الشيخ : لا أريد أن أقطع حديثكم ، ولكني اعتقد ان « ريتا » الجاسوسة الاسرائيلية لا يمكن ان تعرف الحب اوالغيرة .

وتكلم لاول مرة سمير حلبي ، وهو شاب من اصل سوري ، يقيم في باريس منذ أكثر من عشرين عاما ، ويوصف بانه رجل العلاقات في سوق السلاح ، فقال : ألاحظ أنكم تفكررن بالقاتل وكأنه بينكم ، بينما معلوماتي عن خليل الازرق ، توسع دائرة الراغبين في قتله ، لتشمل أكثر من دولة . لقد كان عميلا مزدوجا ، مثلثا بل مسبعا لهذا الكار.

وعلق سعيد الطرابلسي : هذا احتمال وارد . لقد لاحظت ان التحقيق لم يتوصل الى كشف حقيقة الرجال الثلاثة الذين كانوا يجتمعون بخليل في « الترافي موندي » قبل مقتله . كل الذي نعرف عنهم أنهم كانوا طرفا في صفقة « الماس » ويحملون جوازات مزورة . ويحتمل ان يكونوا هم القتلة .

وقال سمير : في مثل هذه العمليات ، هناك حد للمعرفة لا يسمح بتجاوزه ... وخليل الازرق تجاوز هذا الحد فصفّوه .

— من الذي صفاه ؟

— اسرائيل أو شركة سلاح منافسة . في تجارة السلاح كل شيء مباح .

وسأله محمد أحمد ساخرا : ألم تتجاوز هذا الحد بعد ؟

— أنا اعرف حجمي . مجرد واسطة خير .ومع ذلك لقد تعرضت لحوادث كثيرة أقنعتني ان عالم تجارة السلاح أشبه بعالم المافيا ، بل ان المافيا هي المسيطرة على جانب كبير منه .

* * *

شهر تموز هو شهر الثورات في العالم العربي ، وهو ايضا شهر صفقات السلاح في باريس . كل الناس يهربون من باريس في هذا الشهر ، ولا

يبقى الا الذين يفضلون ان تتم اعمالهم بعيدا عن فضول الفرنسيين والسواح العرب . فسمسار السلاح حريص على ان يبقي اتصالاته في منتهى السرية . فهو مثلا ، لا يريد ان يرى مصادفة برفقة احد كبار الضباط العرب الذين يأتون لعقد الصفقات ، خوفا من اتصال المنافسين بهم . ولذلك فاذا نزل الضابط في فندق « البرنس ده غال » حرص السمسار على النزول في فندق بعيد جدا ، مثل « الغراند اوتيل » في الأوبرا . وهو يحرص على يبقى الضابط تحت مراقبته مدة ٢٤ ساعة في اليوم ، ويتفنن في منعه بالاتصال باي غريب . انه يخصص له من يبقون برفقته ليل نهار. هناك فتيات متخصصة في شغل وقت الزبون طوال الليل . واذا حدث واعجب الضابط بفتاة من فتيات الليل في أحدى الملاهي الليلية ، تختفي الفتاة على الفور ، ولا تحضر الى مكان عملها الا بعد مغادرة الضابط للعاصمة ، فقد تكون عميلة لشركة منافسة ، اوتعمل مع جهاز مخابرات .

ومهما حاول اي انسان الاتصال بالضابط تلفونيا اوشخصيا ، يتلقى ردا واحدا : « غير موجود » . ومرة ، عرفت بوجود ضابط كبير في فندق « كريون » . واستطعت رشوة موظف الاستقبال ، فاعطاني رقم غرفته . ولأنني مدرب ، لم أحاول الاتصال به تليفونيا ، بل صعدت مباشرة الى غرفته ، فاذا برجل يقف على بابها ، وينقض علي . وآثرت السلامة ، فهربت .

ان الناس لا يعلمون ان معظم عاملات التليفون في فنادق باريس الكبرى لهن صلات بسماسرة السلاح . لذلك ، قلما يلجأ السمسار الى استخدام التليفون ، الا اذا كان يهدف الى تضليل خصمه بمحادثات وهمية .

وسمسار السلاح يعيش على المعلومات ، وهو اذا لم يستطع الحصول

عليها بالرشوة ، لجأ الى السرقة . وقد اقدمنا مرة على سرقة حقيبة يد احد الزملاء اللبنانيين ، خلال نصف دقيقة قضاها في الحمام .

والعادة عند سماسرة السلاح انهم لا يطمئنون لاحد ، بما في ذلك سكرتيراتهم . ففي الصفقات الهامة ، يتولى السمسار كتابة العقد على الآلة الكاتبة بنفسه ، ومن نسخة واحدة .

ولا يعقد السمسار اي اجتماع في الفندق الذي يقيم فيه او في بيته ، بل تتم اللقاءات عادة في أغرب الاماكن . نوادي القمار ، او في سيارة يقودها السمسار . ومرة عقدت انا لقاء واقمت المفاوضات في دورة مياه ... لقد وقفت انا وموظف كبير في وزارة الدفاع الفرنسي ، نبول متجاورين. ودار الحديث ، وتم الاتفاق في هذا الوضع .

أما أخطر العمليات التي تعرضت لها ، فكانت عندما اتصل بي خليل الازرق وابلغني ان عميلا اميركيا ، نزل في فندق « لوزان بالاس » في الغرفة ٣٥ ، وانه ينتظرني هناك لاصطحبه الى خليل الازرق . وعندما توجهت الى هناك ، لم أجده . وبعد ان طارت الصفقة عرفنا ان منافسا لنا قد التقط المكالمة ، وأرسل على الفور أحد رجاله فطرق الباب ، وقدم نفسه على انه سمير الحلبي ، واصطحب الزبون الى احدى القرى المجاورة للعاصمة ، حيث بقي محتجزا هناك لمدة اسبوع . وكان ذلك كافيا لاقناعه بالتعامل معهم ، بينما كنا نحن نقلب الدنيا بحثا عنه .

* * *

استطاع سمير الحلبي ان يسيطر على مائدة الغداء ، فقد كان الحديث عن عالم غريب بالنسبة اليهم جميعا . وسأله سعيد الطرابلسي : هل تلجأون الى القتل احيانا ؟ .

— نادرا ما يحدث ذلك . ان القاعدة الاساسية في تجارة السلاح

هي استخدام المال والنساء ، واحيانا بعض الطلبات الخاصة . ولكن اذا دخل في الصفقة عنصر الصراع بين المخابرات ، يقع القتل .

— اذن انت ترجح وجود جهة اجنبية في مصرع خليل الأزرق ؟

— انا لا أرجح شيئا ، ولكني حرصت على اعطائكم بعض المعلومات عن عالم لا تعرفونه ... ثم ضحك واستطرد قائلا : من يدري ؟ فقد يحب احدكم ان يجرب حظه . سمير حلبي في خدمتكم دائماً .

وسأله سامي الشريف : هل استجوبت في التحقيقات الاولية ؟

— نعم ، ولكن بواسطة البوليس الفرنسي ، وسأدلي غدا بشهادتي شخصيا .

وقالت سلمى وهي تتوجه الى سمير الحلبي : هل كنت تعرف « ريتا » ؟

— طبعا ... كل اتصالاتي مع شركة والدك كانت تتم عن طريقها .

— وهل كنت تشك فيها ؟

— ماذا تقصدين ؟

— هل كنت تعلم انها يهودية وجاسوسة اسرائيلية ؟

— اسمعي يا آنسة . احب ان اقول لك شيئا . كل الفتيات اللاتي يعملن عند شخصيات عربية مهمة ، جاسوسات ، ان لم يكن لاسرائيل فلغيرها من اجهزة المخابرات ... هل يريحك هذا ؟

— وكنت تتعامل مع جاسوسة ؟

— مثل هذه القضايا لا اتدخل فيها ، فأنا لا اتعاطى السياسة . كل مهمتي هي توفير وقت ممتع لضيوفنا العرب . وما اراه وما أسمعه ، يفقدني كل اهتمام بجدية الحديث عن الحرب والسياسة وحتى الوطنية في العالم العربي ...

واطلق راشد ابو المنى ضحكة ساخرة وقال : الكل يعتذر بخطايا الاخرين .

وانفعل سمير الحلبي وقال لراشد : اسمع ، انا لا وطني ولا صاحب قضية ولا فدائي . انا بكل وضوح ، وبالأذن من الانسة « قواد » .

* * *

ربيع عام ١٩٦٦

كان خليل الأزرق قد خسر على مائدة الروليت في نادي « كلوب أفياسيون » كل ما معه من مال .

وككل سماسرة السلاح فان « القمار » هو هوايتهم الاساسية . ولعل السبب أن حياتهم كلها نوع من المقامرة ، وان المال لا قيمة له عندهم ، فهو يأتي سهلاً ويذهب سهلاً ، وربما لانهم من كثرة الربح ، تصبح لذتهم الوحيدة هي الخسارة . وكبار السماسرة لهم حساب مفتوح في كل نوادي القمار في العالم ، فهم لا يحملون نقودا ، ولا حتى بطاقة « كريدي » ، بل يكتفون بتوقيع الفاتورة التي تحول الى موظفيهم ، فيتولون تسديدها .

ولكن خليل الأزرق كان لا يزال جديداً في عالم السلاح والقمار ، لذلك لما نفدت نقوده ، بدأ يلعب بالترافلر شيك . فلما خسر كل الدفتر الذي يحمله ، أخرج دفتر شيكاته ، وأراد أن يحرر شيكاً على البنك ، ولكن مدير النادي قال له : متأسف . نحن لا نقبل شيكات شخصية .

واحتج خليل الأزرق ، ولكن المدير عاود الاعتذار قائلاً : لقد

شرفت النادي مرتين من قبل ، ولم تتح لنا فرصة معرفتك جيداً .

وارتفع صوت من المائدة المجاورة يقول : اعط مسيو ازرق ما يريد على مسؤوليتي !

وانحنى المدير قائلاً : تحت أمرك مسيو حلبي .

واستلم خليل الأزرق قيمة الشيك ، والتفت إلى المائدة المجاورة وقال لصاحب الصوت : شكراً .

فأجابه مسيو حلبي بالعربية : ولو ؟ تكرم يا سيد خليل . نحن في الخدمة ...

وتذكر خليل أنه اصطدم بهذا الشاب أكثر من مرة في بارات الفنادق ، وفي صالات القمار ، وفي الملاهي الليلية ... ولكنه لم يهتم به من قبل .

ونشطت غريزة المخبر فيه ، فقرر أن يعرف ماذا يريد هذا الشاب . وبعد أن انتهى اللعب ، توجه إلى المائدة حيث كان يجلس مسيو حلبي ، وقال له : « أريد أن أشكرك مرة أخرى » .

وكما كان يتوقع ، هب مسيوحلبي على الفور ، مستأذناً من اللاعبين ، فتأبط ذراعه قائلاً : لا داعي للشكر . لماذا أنت منصرف مبكراً ؟

قال خليل : ذاهب الى فندقي لأنام .

ورفع الحلبي يديه كأنه سمع نكتة سخيفة ، وقال : وهل ينام شاب

مثلك في باريس في الساعة الواحدة ؟ تعال معي ...

على الباب ، كانت سيارة « جاكوار » يقودها سائق زنجي . وبينما كان السائق يفتح لهما الباب ، كان الشاب يعرف نفسه : اسمي سمير حلبي . ربما أهلي من حلب . ولكني لبناني ، وفي خدمتك في باريس .

وأراد خليل أن يعرف نفسه ، ولكن الشاب اللبناني قاطعه قائلاً : ولو يا أخ خليل ، أنا أعرف عنك كل شيء .

ولاذ خليل بالصمت . واتخذ مقعده بجانب سمير حلبي .

وانطلقت بهما السيارة دون أن يسألهما السائق إلى أين ، لتتوقف أمام ستيريو « نيوجيمي » . وما أن أطل سمير على الباب ، حتى استقبل استقبال أصحاب الملايين . قادوه إلى أفضل مائدة يجلس حولها أكثر من ١٥ شاباً وفتاة . وصاح الجميع مرحبين بسمير الذي رفع يده ، فسكت الجميع ، وعندها قال : أقدم لكم صديقي المليونير خليل الأزرق .

وكأن كلمة « مليونير » كانت إشارة متفقا عليها ، فقد تفرغ الجميع لتكريم خليل الأزرق . وتزاحمت النساء على التودد إليه .

واستمر السهر والرقص حتى الصباح ، حيث انتقلوا إلى مطعم « الكالافاروس » وقبل أن ينتهوا من طعام الإفطار ، كان سمير يعلن : الكل مدعوون على العشاء غداً عندي في الشقة ، احتفالاً بخليل بك .

ومرة أخرى سكت خليل ...
وأوصل سمير صديقه الجديد إلى الفندق ، وودعه قائلاً : حاول أن

تنام ، سوف أمر عليك في التاسعة مساء ...

ولم يكن خليل الأزرق بحاجة إلى معلومات حتى يدرك أن سميراً يقدم له طعماً ما . ولم يفكر في التراجع ، بل لعله كان راغباً في بلع هذا الطعم .

وفي الموعد المحدد جاء سمير ، واصطحبه إلى شقته التي أذهلت فخامتها خليلاً رغم كل تجاربه . كانت تجمع بين الستيل والاليكترونيات . الأضواء الخفية ، والجدران التي تتحرك بالضغط على أحد الأزرار ، والبانيو الذي يدور ، والمخدع المزود بجهاز تلفزيوني يعرض ما يجري في الغرف الأخرى . كان هناك نساء من كل الجنسيات . وفي نهاية السهرة ، بقيت أربع نساء وسمير وخليل . وقال سمير : اختر لك اثنتين !

وبحركة مزاح ، أشار خليل إلى واحدة شقراء والأخرى سمراء .

وبإشارة من اصبع سمير ، توجهت الفتاتان إلى إحدى الغرف ، وقال سمير ، وهو يمسك بذراع خليل الأزرق : أظن أنك تستطيع الصبر عشر دقائق حتى نتفاهم .

وانتقل به إلى غرفة مكتب .

وتكلم خليل فقال : اعترف أنك أذهلتني ، فماذا تريد ؟

ـــ نتعاون .

ـــ على ماذا ؟

ـــ أنا رجل علاقات عامة . أستطيع أن أقدم لك أي شيء ، ما

دام الثمن حاضراً . وأعمالك تحتاج إلى « فازلين » وعندي منه الكثير . جربني وستجد ما يسرك .

— سنرى ... قم بنا نجرب بضاعتك .

* * *

كانت « ريتا » في غرفتها بالفندق ، عندما دق الباب . فقامت لتفتحه ، وتفاجأ بسلمى امامها .

ولم تنطق ريتا بحرف ، بل ابتعدت عن الباب مشيرة اليها بالدخول .

ودخلت سلمى . ولم تغلق ريتا الباب .

وجلست سلمى على المقعد المجاور للسرير ، بينما جلست ريتا فوق المقعد الصغير امام التواليت .

وانتظرت سلمى ان تسألها ريتا عن سبب قدومها . ولكن ريتا بقيت صامتة ، تتأملها بنظرات لا معنى لها .

واخيرا قالت سلمى : أظن انك تستغربين حضوري .

— الى حد ما .

— انت قتلت خليل الأزرق

وبكل برودة أعصاب ، ردت « ريتا » : ألا يكفي تحقيق الصباح ؟ لماذا لم تتقدمي بشهادتك الى البوليس ؟

— سأفعل غدا عند قاضي التحقيق .

— عظيم ... ولماذا جئت تخبرينني ؟

ولم تجد سلمى ما تجيب به . فالذي حدث ان قرار مجيئها الى فندق « ريتا » ومقابلتها ، اتخذته عندما كانت تتناول طعام الغداء ،

وسمعت سعيد الطرابلسي يقول : « ان ريتا هي التي تشكل ضمانة البراءة لأبيها » .

وقامت على الفور من مقعدها ، وتوجهت فورا الى الفندق الذي تنزل فيه ريتا .

وعاودت سلمى الهجوم : تتظاهرين بانك تحمين ابي بشهادتك . أنا وحدي أعرف الحقيقة . أنت تحمين نفسك بهذه الشهادة . فأنت قتلت خليل الازرق وتريدين ابتزازي بالتظاهر بحمايته .

— بماذا تهتمين أكثر؟ بتبرئة أبيك ام بشنقي انا وهو معا ؟

واحتارت سلمى . ما الذي تريده حقا ؟ هل أصبح لديها في هذا العالم من يهمها أمره ؟ ولماذا شوهت صور الجميع على هذا النحو؟ خليل متعامل مع إسرائيل . عشيق لريتا . وابوها متهم بالتعامل مع اسرائيل . متهم بجريمة قتل ... أهذه هي حصيلة كل سنوات الغربة ؟ وهل ينتهي كل شيء ؟ ابوها في السجن . وحبيبها في القبر . وتنتصر ريتا وحدها ؟

١٦

وخيم على الغرفة صمت ثقيل . لأول مرة تعترف سلمى لنفسها بانها هزمت ، وانها لا تعرف كيف تتقبل الهزيمة . هذه المرأة التي تجلس في مواجهتها صامتة ، وكأنها تتلذذ بمراقبتها ، وتدرك حيرتها وعجزها . ريتا اقتحمت حياتهم ، دون أن ينتبه أحد . واستطاعت في غفلتهم جميعا أن تمسك بكل الخيوط ، وتديرها كما شاءت . لقد دسها « توماسيان » في حياة خليل الأزرق . ومن خليل الأزرق انتقلت الى مكتب أبيها . ومن يدري ، فقد تكون هي التي سعت وخططت لذلك كله ، ولم يكن « توماسيان » نفسه الا مجرد اداة في مخططها . كيف تستطيع امرأة مثلها ان تبدو متفوقة الى هذا الحد ؟ كل ما حدث خلال السنوات التي انقضت ، منذ أن التقى خليل الأزرق بريتا في مكتب « توماسيان » ... الى أن أصبح خليل الأزرق جثة هامدة في غرفته بفندق « أتلنتيك » وأبوها موقوفاً في السجن ، حياته رهن بشهادة ريتا ، يبدو وكأنه تم وفق مخطط محكم مدروس .

وفتحت عينيها تتأمل ريتا ، فوجدتها منشغلة عنها في صباغ أظافرها بالمانيكور . لماذا انتصرت هذه المرأة ؟ ليست أجمل مني . بالعكس . كل الرجال الذين عرفونا معاً كانوا يفضلونني عليها . اذن ما السر ؟ كيف استطاعت أن تقهرنا نحن الثلاثة ، وان تفرق بيننا ، وتحولنا ما بين قتيل ومتهم وضائعة ؟

واحست بيد تعتصر قلبها . هل قهرتنا لأننا منحلون ؟ ولكن ريتا أكثر انحلالاً منا . ألم تكن تتنقل بين ثلاثة رجال ... أبي وخليل الأزرق وصديقها الاسرائيلي ؟

وفجأة قفز الى خاطرها سعيد الطرابلسي . وتذكرت ليلة حواره معها ، يوم باتت في سريره ، وأعربت له عن استيائها من الحديث في السياسة . ليلتها قال لها سعيد : « عبثاً تهربين من السياسة . أنت لست أكثر من ضحية سياسية . ولا تظني أنك نجوت منها . ستقتحم حياتك يوماً » .

— عليك اللعنة يا سعيد . تحققت نبوءتك كأبشع ما تكون النبوءات المشؤومة ...

ليلتها قال سعيد أيضاً : « الفرق بيننا وبين اليهود ، أننا نعيش بلا هدف ، أما هم ، فيوظفون كل شيء لقضيتهم . من الدين إلى الجنس ! » .

وهل طالبها أحد بخدمة قضية ؟ وما هي القضية التي يخدمها سعيد ؟ ولماذا اقتحمت هذه اليهودية حياتهم ؟ أي خطر كانوا يشكلون عليها ؟ ألم تقل اليوم عند قاضي التحقيق « ان كل صفقات السلاح التي أثرى منها أبي ، لم تحقق الا قتل العرب للعرب ؟ » فلماذا ؟ ... لماذا لم تتركنا في حالنا ؟

ومدت ريتا يدها بزجاجة المانيكور . وقالت لسلمى : ربما لن يتسع وقتك غداً لطلاء أظافرك !

وبذلت سلمى جهداً كبيراً لكي تمنع نفسها من البكاء أمام هذه المرأة .

ووضعت ريتا يدها على كتف سلمى . فلما لم تتحرك سلمى ، قالت ريتا : هل حان الوقت لان نتكلم بهدوء وعقل وصراحة ؟
وبقيت سلمى معتصمة بصمتها .

وتابعت « ريتا » قائلة : أعرف أنك حاقدة علي من أجل خليل الأزرق ، ولكنك تنسين أنني كنت أعرف خليلاً قبلك . وتعرفين أن خليلاً لم يكن لإمرأة واحدة . وأيضاً تعرفين أن علاقتي بخليل لم تكن علاقة جنس بقدر ما كانت علاقة عمل . وخليل مات ... لم يعد لي ولا لك ، فلماذا لا تتقبلين الأمر الواقع ؟

— من الذي قتله ؟ أريد أن أعرف منك الحقيقة ؟

— هل جربت أن تسألي أباك ؟

— أنا متأكدة أنك أنت التي قتلت خليلاً .

— لقد كنت مع أبيك في غرفة واحدة . فاما انه هو القاتل ، واما أنه يتستر عليَّ ؟ فلماذا تتخلين عن أبيك وأنت كل ما بقي له ؟

— أنت لا تعرفين علاقة أبي بخليل . انها حياة كاملة . وأبي لا يمكن أن يقتل خليلاً .

— من الذي ادعى أن أباك هو القاتل ؟ التحقيق يشك في الرجال الثلاثة الذين جاؤوا لعقد صفقة الماس مع خليل . وتجيئين أنت . بدافع شخصي هو الحقد على ريتا ، فتلصقين التهمة بي أو بأبيك .

— أنت تخططين للسيطرة على أبي .

ـــ كنت أظن أنك أكثر ذكاء من ذلك . يجب أن تعرفي أن علاقتي بأبيك قد انتهت بمقتل خليل الأزرق ، والفضيحة التي أعقبت ذلك .

وبصوت بارد ، أكملت ريتا :

ـــ علي الشيخ انتهى .

ـــ وأنت أيضاً . لن أتركك . سأشهد في المحكمة . سأقول أنك أنت التي قتلتنا جميعاً !

* * *

في غرفةالتحقيق ، وقبل أن يدخل القاضي « شبلنجر » ، كان علي الشيخ يجلس بين حارسيه . والى جانبه المحامي « جيرهارد » . أما سعيد الطرابلسي فكان يجلس بجوارسلمى ، في الطرف الآخر من الغرفة ، يحاول أن يخفف من توتر أعصابها ... ولكن سلمى لم تكن تسمع له ، بل لم تكن في غرفة التحقيق ، ولا حتى في « هامبورغ » كلها ... ارتدت مراهقة صغيرة في دمشق تقف مشدوهة ، كسيرة القلب في فيللا بحي أبو رمانة ، وأبوها يقف أمامها في الروب ده شامبر فوق جسده العاري . يحاول أن يداري خجله ، بافتعال الغضب والسيطرة على النفس ... وها هو أبوها يبدو في عينيها عاريا ، وهو جالس في غرفة التحقيق بمدينة « هامبورغ » . في هذه المرة لا يستطيع حتى أن يدعي الغضب . أنه لا يجرؤ حتى على مواجهة عينيها . حطم قلبها وقلب أمها من أجل امرأة . يومها ، في دمشق ، استطاعت أن تصرخ ، وأن تبكي ، وأن تسأل : « من هي تلك المرأة التي معه في الغرفة ؟ » . أما في « هامبورغ » فهي لا تملك حتى الصراخ أو البكاء . وهي لا تريد أن تسأل « من هي تلك المرأة » لأنه لا يعرف عنها أكثر مما تعرف هي .

— هل قتلت خليلاً يا أبي من أجل ريتا — قالت سلمى لنفسها — أم هل تضع نفسك في قفص الاتهام لكي تتستر على جريمتها ؟ كيف كنت تبدو جباراً مستبداً في حي المهاجرين في مواجهة أمي ... وكيف أصبحت ألعوبة عاجزة في يد ريتا ؟ لو كان اسمك « ريتا » يا أماه ، لما تحطمت حياتنا ، بين استبداد العاجز ، وذل المستسلمين .

ورفعت رأسها ونظرت الى حيث كان يجلس أبوها ، يختلس اليها ، النظرات ، كأنه يحاول أن يتلمس رأيها فيه .

والتقت نظراتهما ، ولكنها لم تره ، فقد كانت لا تزال مع نفسها . مع حياتها . انه أبي . لا أستطيع أن أنفصل عنه . ولا أملك أن أحقد عليه ولا أستطيع أن أحبه .

وفتح الباب ، ودخل القاضي « شبلنجر » .

وبعد أن جلس وراء مكتبه ، تأمل سلمى طويلاً ثم سأل المحامي « جيرهارد » : هل هي سلمى ابنة المتهم ؟

— نعم يا سيدي القاضي . وقد استدعيت للشهادة اليوم .

وراح « شبلنجر » يملأ عينيه من وجهها . كانت ترتدي فستاناً بسيطاً ووجهها بلا مكياج ، ومع ذلك فقد كانت تبدو آية في الجمال ...

وتنبه « شبلنجر » الى أنه أطال النظر فيها ، فبادر بفتح الملف ثم قال لسلمى : البوليس لم يستجوبك . والأمر يرجع اليك اذا كنت ترغبين في الشهادة . فنحن نحب الاستنارة ببعض أرائك في هذه القضية ، ولا سيما أنك على علاقة قوية بخليل الأزرق .

كانت سلمى قد استعادت شيئاً من ثقتها بنفسها ، عندما ادركت بغريزتها ما أحدثته من تأثير في نفس القاضي ... فقالت :

— اذا كانت شهادتي تفيد العدالة ، فأنا بين أيديكم .

— ما هي علاقتك بخليل الأزرق ؟

وسكتت سلمى . لقد أعدت نفسها لكل سؤال الا هذا السؤال . صحيح ، ما علاقتي بخليل الأزرق ؟ عشيقي ؟ حبيبي ؟ خطيبي ؟ الوصي الذي رعاني ؟

وارتفع صوتها وقالت :

— كل شيء ...

وتظاهر القاضي « شبلنجر » بانه يقلب بعض الأوراق ليخفي دهشته من الاجابة ، ثم قال :

— ماذا يعني كل شيء ؟

— يعني كل شي . كان وطني في الغربة . وكان الرجل الوحيد الذي عرفته ... غيره لم يكن شيئاً .

وتطلعت شبه معتذرة الى سعيد الطرابلسي ، ثم قالت : كنت أحبه يا سيدي . هل تعرف كيف تحب الفتاة في سن العشرين ؟

ودون أن يدري ، وجد القاضي « شبلنجر » نفسه يفك ربطة عنقه ، ويطيل النظر الى سلمى التي اختلطت ملامحها بملامح زوجته « ايفا » ، ويهمس لنفسه « وهل يعرف هذا الجيل من الحب ... الا الجنس ؟ » .

— دعينا من هذا ... هل كنت تعلمين بعلاقته مع ريتا ؟

— نعم ... ولكنها علاقة عمل . وريتا كانت تستغله .

— هل يمكن أن توضحي أكثر ؟

— ريتا كما تبين الآن ، كانت تعمل لحساب المخابرات الاسرائيلية .

وعلاقتها بخليل الأزرق لم تكن تهدف الا خدمة أغراضها . مثل هذا الصنف من النساء يا سيدي لا يعرف الحب .

— ونفس الشيء بالنسبة لأبيك ؟

والقت نظرة حزينة على أبيها ثم قالت :

(– ابي رجل مخدوع .

أرادت أن تقول : « طيب » ولكن اللفظة سبقتها . فعضت على شفتها السفلى كأنها تعتذر . وأكملت :

— كان يثق بها . وكانت تخونه على كل المستويات . كلنا ضحيتها يا سيدي .

— هل كان أبوك يعرف بعلاقتك بخليل الأزرق ؟

— مرة دار بيننا حديث عن خطوبتي لخليل ، ولكننا لم نعلن ذلك رسمياً ؟

— هل كان يعلم بعلاقته بريتا ؟

— لا أعرف .

— هل تعتقدين أنه كان يغار من خليل الأزرق ؟

وفجأة فقدت سلمى هدوءها ، واندفعت تقول :

— سيدي القاضي . أبي لم يقتل خليل الأزرق . ريتا هي التي قتلته . شهادة ريتا كاذبة . أبي لم يكن معها في الغرفة ، انني أقسم على ذلك . ريتا مجرمة ، جاسوسة . قذرة لا تتورع عن ارتكاب أية جريمة تنفيذاً لمآربها . لقد اتصلت ليلة الجريمة بأبي من باريس . وقيل لي في فندق « شارلوت » أن أبي طلب عدم تحويل المكالمات اليه ! .

وانفجرت باكية وهي تقول : أبي لم يكن في الغرفة ، ولا ريتا . ريتا ريتا هي المجرمة ، هي القاتلة .

وتدخل المحامي « جيرهارد » قائلاً :

ــ سيدي القاضي ، لقد فقدت الشاهدة أعصابها ، ولم يعد من الممكن الاعتماد على شهادتها .

كان القاضي « شبلنجر » يتمنى لو يسمع المزيد . لم تكن شهادة سلمى تساعد على وضوح قضية علي الشيخ بقدر ما كانت تساعد « شبلنجر » على فهم علاقته بزوجته « ايفا » . ما أكثر الشبه بين « ايفا » « وريتا » وبينه وبين علي الشيخ . أيضا اقتحمت حياته كما فعلت ريتا بحياة علي الشيخ . وعلي الشيخ وشبلنجر لم يكونا سوى أداة لتحقيق مآرب المراءة التي تعرف ماذا تريد . هل قتل علي الشيخ عشيق « ايفا » ؟

وتنبه « شبلنجر » الى الالتباس الذي أخذ يلف تفكيره . فبادر الى انتزاع نفسه من هذه الخواطر ، بالموافقة على انهاء شهادة سلمى . ولكنه شعر بالتعب . فرفع الجلسة .

وقبل أن يغادر قاعة التحقيق ، القى نظرة طويلة على علي الشيخ . وتمنى لو يستطيع أن يعرف الحقيقة . هل هو الذي قتله ؟

* * *

كان المحامي « جيرهارد » متجهم الوجه وهو في طريقه الى الكافيتيريا المجاورة لقاعة التحقيق ، حيث كان سامي الشريف ومحمد أحمد وراشد أبو المنى وسمير الحلبي يجلسون الى احدى الموائد . وبعد أن طلب المحامي « جيرهارد » فنجاناً من القهوة ، حمله واتجه الى حيث يجلسون . وما ان اقترب من صديقه محمد أحمد حتى صاح : ويل لمن

يعتمد عليكم . أهذه هي سلمى التي أوشكت أن تفسد القضية ؟

ولم يرد محمد أحمد ، بل أفسح له مكاناً بجانبه وقال :

— خبرنا ، ماذا حدث ؟ لقد كنا كمن يشاهد فيلماً مثيراً . سلمى تخرج من قاعة التحقيق باكية . وسعيد الطرابلسي يهرول وراءها وكأنه يحاول منعها من الانتحار .

ورد سامي الشريف ساخراً : سلمى تنتحر ؟ أتمنى أن تروا ماذا يفعل سعيد الطرابلسي الآن معها .

ولم يكن المحامي « جيرهارد » في مزاج يسمح له بتقبل المزاح . لقد ضرب المنضدة بيده وقال : أما أن تكون هذه البنت مجنونة أو أن الغيرة قد أعمتها ، تصوروا انها لم تهتم في شهادتها الا باثبات أن ريتا لم تكن مع أبيها في الغرفة ؟ تظن بذلك انها تدين « ريتا » بينما لو أخذت المحكمة بمزاعمها ، لنسف كل دفاعنا .

وأخرج سمير الحلبي علبة سجائره الخاصة التي يقول بأنها تصنع له خصيصاً ، وقدم منها الى المحامي « جيرهارد » سيجارة وهو يقول : دخن واحدة ... انها مخلوطة بمواد طبية خاصة ، تهدىء الأعصاب وتساعد على فهم النساء .

وضحك ضحكته الخليعة : من منكم يترجم له المثل العربي الذي يقول « تنسى المرأة خالقها ولا تنسى ... » وأطلق ضحكة أكثر خلاعة أثارت انتباه الجالسين في الكافيتيريا . وظهر الضيق على وجه محمد أحمد الذي حاول أن يغير مجرى الحديث ، فقال :

— هل بقيت هناك شهادات أخرى ؟

— بقيت شهادة صديقك هذا الذي يضحك (قالها المحامي

جيرهارد بغيظ ثم استطرد) والله يعلم ماذا سيفعل بنا !

وعاد سمير يقهقه من جديد :

— شهادتي لا تزعج الا أصحاب الفضيلة . وأنا لا أعرف عن علي الشيخ وخليل الأزرق الا مجموعة أخبار تتعلق بصفقات سلاح واختلاسات وسمسرة ونساء وبضع علاقات مشبوهة . ولا أعتقد أن التحقيق يهتم كثيراً بهذه الأشياء .

وتدخل راشد أبو المنى ، وقال باشمئزاز : اذا كانت هذه هي اختصاصاتك ، فلماذا أزعجت نفسك بالحضور ؟

— لانقاذ صديقنا المشترك ! ... هل أنت تريد الاستئثار بشرف الشهادة وحدك ؟

وهمس راشد كأنه يعتذر لنفسه : علي الشيخ الذي أعرفه يختلف تماماً عن ما تقول .

— الناس كالعملة لها وجهان . ولكن بعض الناس يرفض أن يرى ما لا يحب !

وتدخل محمد أحمد للمرة الثانية ليوقف هذه المهاترة ، فقال للمحامي « جيرهارد » : هل ستؤثر شهادة سلمى على اتجاه التحقيق ؟

— لحسن الحظ نجحنا في استبعاد شهادتها من التحقيق . ولكن تركت انطباعاً سيئاً في نفس القاضي ، مما دفعه لرفع الجلسة .

— وهل بقيت شهادات مهمة غير شهادة الاستاذ سمير ؟

— هناك شهادتان . واحدة لموظفة التليفون في فندق « شارلوت » والثانية لموظف الاستقبال في فندق « اتلنتيك » .

* * *

« مارلين » موظفة التليفون في فندق « شارلوت » في الثامنة والاربعين من عمرها . قصيرة القامة . نحيفة . ترتدي نظارات سميكة ، وتعرج عرجاً خفيفاً بسبب اصابة في احدى الغارات . جلست سعيدة على مقعد الشهود ، تتأمل في انبهار كل ما حولها ، وقد أفعم قلبها بالرضا لانها شعرت بأهميتها ، وان كل من في الغرفة من القاضي الى الكاتب والمحامي والمتهم تتعلق أنظارهم بشفتيها . ان ما ستقوله سيقرر مصير هذا الرجل الذي كان نزيلاً في الفندق ، والذي سهرت ليلة كاملة تحاول أن تتنصت وترسم في خيالها صورة لما كان يجري في غرفته بينه وبين السيدة التي كانت معه .

— هل كنت في الفندق ليلة الحادث ؟

— وهل تتوقع أن أكون يا سيدي القاضي في مكان آخر ؟ الى أين تريدني أن أذهب ؟ هل أنا من هذا الجيل الخليع ؟

— أرجوك يا سيدة مارلين أن تجيبي على الاسئلة باختصار ... هل كنت في الفندق ليلة الحادث ؟

— عجباً يا سيدي القاضي ... هل يمكن أن يجري العمل في فندق شارلوت بدون مارلين ابتداء من السابعة مساء حتى الواحدة .

— وبعد الواحدة ؟

— هذا فندق محترم يا سيدي القاضي . والذي لا يأتي قبل الواحدة لا مكان له عندنا . ولكن أحياناً يا سيدي نخطيء الاختيار ويأتي الينا من يسيئون الى سمعتنا (ونظرت الى علي الشيخ وأخرجت منديلها وبصقت فيه) .

وكان القاضي « شبلنجر » يحاول أن يركز أفكاره ، ويمنع نفسه

من الضحك ، كلما وقع نظره على الشعرات المتنافرة النامية في ذقن مارلين وعندما بصقت في منديلها ، تمنى لو كان قريباً منها ليقتلع هذه الشعرات النابية بعنف ، ليجبرها على احترام القضاء .

— متى وصل علي الشيخ الى الفندق ؟

— كان معه سيدة ، ظلت طوال الليل في قميص النوم . ووجدوها في الصباح عارية تماماً . تصور انها اضطرت لتغطي جسدها بملاءة السرير . اذا استمر هذا الجيل ، سنضطر الى غسل الملاءات أكثر من مرة في اليوم .

— هل رأيتهما معا ؟

— رأيتها هي . وصلت الساعة السادسة ، فلما راجعت اسماء النزلاء لفت انتباهي ان رجلاً وامرأة يشغلان الغرفتين ٧ و ٨ ، وهما غرفتان بينهما باب مشترك يسهل الانتقال بينهما . وفي الساعة الثامنة ، طلبت السيدة ثلجاً وزجاجتين من السودا وكأسين . فحملت ذلك الى غرفتها . فوجئت بالسيدة في الحمام ، وهذا الرجل يقيم في غرفتها بالروب ده شامبر . ومنحني بقشيشاً عشرة ماركات .

وضحكت باستخفاف .

— أحسست أنه يحاول رشوتي . وفي الساعة التاسعة والنصف عادت السيدة وطلبت ثلجاً وكأسين جديدين ، فلما صعدت الى غرفتها ، كانت هي بقميص النوم . بالقميص فقط يا سيدي القاضي . قميص شفاف جداً . واضطررت أن أدير وجهي .

— هل كان السيد معها ؟

كان في الحمام . وكان يتحدث معها بلغة لا أعرفها .

— هل رأيته ؟

— لا ... ولكن خياله كان واضحاً وراء حاجز الحمام الزجاجي .

كل الانتباه كان موجها لمارلين ... الا علي الشيخ . شهادة مارلين نزلت عليه كالصاعقة . من كان مع ريتا في التاسعة والنصف ؟ من كان في الحمام ؟

ولم يسمع حرفاً واحداً بعد ذلك مما دار فيالمحكمة . كانت شهادة مارلينقد أخذت تتحول الى مهزلة ، وهي تروي للقاضي ، كم مرة خيل لها ان السرير في الغرفة رقم ٧ اوشك على السقوط فوق رأسها . وكم مرة دخلت ريتا » الحمام .

— انهم مرضى يا سيدي القاضي ، لا يشبعون . جيل لم يعرف التضحية . كل شيء سهل وبلا حدود . هل تصدق يا سيدي القاضي انني تزوجت ليلة واحدة ؟ لقد سافرزوجي في الصباح الى ساحة الواجب . وما زلت انتظره . ثلاثين عاما يا سيدي .

واخرجت« مارلين » المنديل مرة أخرى ، وبصقت فيه ، ثم قالت :

— وهؤلاء لا يصبرون ساعة واحدة .

١٧

لم يستطع القاضي « شبلنجر » أن ينهـي شهادة « مارلين » الا برفع الجلسة . وعنـد باب القاعة ، أمسك القاضي بذراع صديقه المحامي « جيرهارد » وقال : يخيل اليَّ أنه من الأفضل أن يتولى التحقيق في هذه القضية طبيب نفساني . لقد بدأت المحكمة تتحول الى مستشفى للأمراض العقلية تحكم ما بين التي تتزوج أكثر من رجل في الليلة وبين التي لم تتزوج الا ليلة واحدة . هل بقي لديك شهود من هذا الصنف ؟

— تستطيع أن تطمئن . لم يبق عندنا نساء للشهادة . وآسف اذا كانت القضية قد أزعجتك ، ولكن ما حيلتي ؟ هذه هي الدنيا يا صديقي .

وعندما استدعي « رودولف » موظف الاستقبال في فندق « اتلنتيك » للشهادة ، كان يمثل حالة معاكسة تماماً لحالة « مارلين » . لقد اضطر القاضي أن ينتزع منه الشهادة انتزاعاً ، وبعد أكثر من ساعة كاملة . وكل ما استطاع أن يستخلصه منه هو أن خليل الأزرق وصل الى الفندق قبل مصرعه بثلاثة أيام . وانه لا يستطيع أن يحدد متى كان يجيء الى

غرفته ومتى كان يغادرها ، فقد اعتاد أن يأخذ مفتاح غرفته معه . وقد طلب مرة مفتاح الباب الخارجي بحجة أنه قد يتأخر . وقال رودولف أيضاً : انه من الممكن أن يتردد أي شخص على نزيل في غرفته دون أن يراه ، لأن الدرج لا يقع في مواجهة مكتب الاستقبال .

وشعر القاضي « شبلنجر » بالارتياح ، لأن الشهادات جعلت من الصعب توجيه الاتهام لعلي الشيخ . ربما يكون دبر جريمته باتقان كامل ، ولكن أين الدليل ؟ إن الشك الذي يحيط بموقفه ،يعادل الشك الذي يحيط بموقف ريتا . و« شبلنجر » لا يحب الادانة ، ويشعر بالامتنان للمتهم الذي يجيد الدفاع عن نفسه . ولكن بقيت نقطة واحدة غامضة ، هي مدى علم علي الشيخ بالصفقة مع اسرائيل . ألم يكن يعرف بالصفقة قبل أن يخبره راشد أبو المنى ؟ وهل انفعل عندما سمع بها الى حد ارتكاب القتل ؟ أم كان يعلم ، وتظاهر بالانفعال ليغطي موقفه أمام صديقه الفلسطيني ؟ هل هو وطني متعصب يقتل شريكه من أجل المبادىء ... أم مجرد تاجر لا يفكر الا بالمال ؟

وكان سمير الحلبي قد جلس على مقعد الشهود .

كان يرتدي جاكيتة حمراء ، وقميصاً مطرزاً ، وربطة عنق عريضة عليها رسوم سريالية ، وبنطلوناً واسعاً أسود ، وحذاء بكعب عال . وكان يشبك يديه ليبرز الخاتم الماسي في أصبعه .

والقى القاضي « شبلنجر » نظرة سريعة عليه ، تركت عنده شعوراً بالتقزز . انه الوجه الداعر من هذا الجيل الذي أتعبه . انه يغفر لزوجته « ايفا » أي شيء الا أن يراها برفقة مثل هذا الطاووس .

وقدم سمير الحلبي نفسه بانه لبناني سابقاً ويحمل حالياً جنسية امارة « موناكو » ويعمل في العلاقات العامة .

كان « شبلنجر » يعرف ماذا تعني كلمة « علاقات عامة » ، ولكنه اراد أن يسمع التفاصيل منه كلون من الاذلال ، فسأله :

— أي نوع من العلاقات العامة كنت تقوم به في باريس ؟

— ليس في باريس وحدها يا سيدي القاضي ...بل في كل مكان يمكننا أن نقدم هذا النوع من الخدمات !

— مثلاً ؟

— في عالم السلاح ، يأتي الى أوروبا ضباط ، غالباً ما تكون هذه

هي رحلتهم الأولى . ورجال السلاح هـم دائماً متـوترو الأعصاب . ومهمتي أنا أن أعمل على إراحة أعصابهم وتسهيل اقامتهم في أوروبا ، ووضع برنامج يكفل اقناعهم بصلاحية الأسلحة التي جاءوا لكتابة تقارير عنها .

— دون دراستها ؟

— مهمتي هي أن أجعل أوقاتهم لا تتسع لذلك . نحن نعرف أن مدة اقامتهم قصيرة ، لأن مسؤولياتهم كبيرة في بلادهم ، والواجب يحتم علينا ان نتيح لهم أكبر فرصة للتعرف على الجانب الآخر من الحياة ، وهو جانب غير متوفر في بلادهم . وحتى اذا توفر ، فمراكزهم لا تسمح لهم بممارسة هذا اللون من الحياة . وبقدر ما يكون برنامج الليل ممتعاً وحافلاً ، بقدر ما تكون زيارات الصباح للمصانع العسكرية ومناقشات الخبراء مجرد روتين واجراء شكلي .

— اذن العملية عملية خداع ؟

—أبداً ، نحن نسهل الأمور . فالاسلحة ممتازة ، والصفقة مفيدة لكل

الاطراف . ولا داعي لاضاعة الوقت في ما لا يفيد .

— ومع من كانت صلتك ؟ مع خليل الأزرق أم مع علي الشيخ ؟

— صلتي بدأت بخليل الأزرق . كـان رجلاً بكل معنى الكلمة . يفهم الحياة . ويجيد تذوقها . لا يخاف ، ولا يضن بخدمة على صديق أو زبون . وكان يكتفي باعطاء اسماء ومواعيد وصول الضباط العرب . وأنا أتكفل بالباقي ، ابتداء من استقبالهم في المطارات ، وانتهاء بشراء الهدايا للأهل والأصدقاء .

— ما هي علاقتك بعلي الشيخ ؟

— لم تكن لي علاقة مباشرة به . كنت أعرف أنه شريك خليل الأزرق ، وأنه هو الذي يتولى الجانب العربي من الصفقة ، أي أنه كان يتولى تدبير الأمور مع الجانب المشتري ، بينما كان خليل الأزرق يتولى تدبير الأمور مع الجانب البائع .

— وأنت ؟

وكتم سمير ضحكة أوشكت أن تفلت من بين شفتيه وقال :

— إنا الفازلين يا سيدي القاضي الذي يسهل لقاء البائعين بالمشترين .

— هل كان علي الشيخ شريكاً لخليل الأزرق في كل الصفقات ... أم كان كل منهما يقوم بصفقات لحسابه الخاص ؟

— يصعب تصور ذلك ... خليل الأزرق لم يكن مختصاً بالعلاقات مع العرب .

— ولكن كانت هناك صفقة اشرت اليها أنت في تحقيق البوليس الفرنسي ، لم يكن المشتري فيهاعربياً ... فهل كانت بعلم علي الشيخ ؟

ــ اسمح لي يا سيدي بان أروي لك القصة كلها ... يبدو أنها هي التي تهم التحقيق . لقد حدث عندما فرضت فرنسا الحظر على شحنات السلاح لاسرائيل ، ان وصل الى باريس ضابط اميركي ، كانت له علاقات ببعض كبار المسؤولين في مصانع « داسو » ، لشراء صفقة ضخمة من قطع غيار طائرات الميراج . فاشار عليه المسؤولون الفرنسيون بالاتصال بخليل الأزرق . وعندما اجتمع الضابط الاميركي بخليل الأزرق ، وطلب منه مساعدته للحصول على الصفقة ، ادرك خليل على الفور أن اسرائيل هي التي تريد قطع الغيار . وسأل الضابط متخابثاً :

ــ هل أصبح لدى الولايات المتحدة طائرات ميراج ؟

وادرك الضابط الاميركي أنه أمام رجل لا يمكن خداعه ، فاعترف له بصراحة أنه اسرائيلي ، وأن الصفقة لحساب اسرائيل ، وانه مخول بدفع الرقم الذي يحدده خليل الأزرق . وطلب خليل مهلة اسبوع ليبحث الأمر . وأنا لا أعرف اذا كان اتصل بشريكه علي الشيخ واطلعه على الصفقة ، ولكن الذي أعرفه هو أن (خليل) اتصل بي . واعترف يا سيدي القاضي بكل تواضع أنني أنا الذي اقترحت عليه الحل . لم يكن من اكتشافي ، ولكنه كان اقتراحاً من خبير في وزارة الدفاع الفرنسية ، أفهمني أن كل المشكلة هي في الحصول على « شهادة ادخال » للصفقة لبلد لا يشمله قرار الحظر . وان هذا البلد لو كان عربياً ، فستتم الصفقة في سهولة ، وسيغمض المسؤولون عيونهم . ولما نقلت ذلك الى خليل الأزرق ، لمعت عيناه ، وهتف فرحاً : « عجمان ... أنا مواطن عجماني » واخرج لي جواز سفر من عجمان . وهكذا كتبنا الطلب باسم امارة عجمان ، ووقع الطلب خليل الأزرق باعتباره مخولاً من حكومة عجمان بشراء قطع الغيار . وقمت أنا بالباقي في وزارة الدفاع لضمان توقيع

المسؤولين فيها على صفقة بمائة مليون فرنك لدولة يعرفون أنها لا تملك طائرة شراعية .

— وهل شحنت الصفقة الى عجمان فعلاً ؟

— الذي أعرفه يا سيدي القاضي أنها شحنت من ميناء مرسيليا . أما بعد ذلك ، فالبحر كبير ، وأعالي البحار مياه حرة !

— وكيف انكشف سر الصفقة ؟

— الحسد يا سيدي ... الحسد ... في عالم السلاح يتصارع التجار بأساليب أكثر عنفاً من صراع المخابرات والدول .. يبدو أن منافساً حسوداً علم بالصفقة فوشى بنا .

— وهل كان خليل الأزرق ، وهو الرجل الذكي كما وصفته ، يعتقد أنه يمكنه اخفاء نبأ مثل هذه الصفقة عن شريكه علي الشيخ ؟

— هذا ما يجعلني أرجح أن علي الشيخ لم يكن بعيداً عن الصفقة .

وهنا انفعل علي الشيخ وطلب الكلمة ، فلما أعطيت له قال :

— أؤكد أنني لم أكن أعرف شيئاً عن هذه الصفقة قبل أن يخبرني راشد أبو المنى . واعترف بأنني صدمت عندما عرفت . ولم أصدق . واذا كنت آسفاً على شيء ، فلأنني لم أقابل خليل الأزرق ، لكي أعرف منه حقيقة القصة .

— هذا الكلام الذي تقوله يعزز اتهام البوليس بوجود دافع للجريمة ؟

— أنا أقول الحقيقة . لو كنت قد علمت بهذه الصفقة ، لفعلت أي شيء يحول دون اتمامها .

— ماذا تعني بأي شيء ؟ هل كنت تقتل خليل الأزرق اذا تأكد لك أنه فعلاً قام بهذه الصفقة ؟

— لست أدري . ربما . من الصعب أن تحدد الأسلوب الذي يمكن أن يعبر فيه الانسان عن غضبه . ولكن الفرصة لم تتح لي لتجربة ذلك . مات خليل الأزرق قبل أن أراه .

— من تعتقد أنه قتل خليل الأزرق ؟

— لم تتح لي الفرصة لإجراء أية تحريات . لقد اعتقلت وأنا مازلت في السرير ، ولم اسمع بالنبأ الا بعد أن القي القبض عليَّ . لقد أخبرني خليل الأزرق قبل أن يحضر الى « الترافي موندي » انه مرتبط بموعد لاتمام صفقة ماس .

— هل انتقلتما من تجارة السلاح الى تجارة الالماس ؟

— نعم ... سوق السلاح بدأت تضيق في الأيام الأخيرة ، بعد أن أخذت الدول العربية تعقد صفقاتها مباشرة مع الدول أو بواسطتها دون الحاجة الى سماسرة .

* * *

— ماذا أطلب لك ؟

كانت ريتا تجلس في المقعد المواجه لسعيد الطرابلسي في شقتها بفندق « امباسادور » . وكانت ترتدي بنطلوناً أبيض واسعاً ، وبلوزة بيضاء بدون سوتيان ، تركتها مفتوحة قليلاً من أعلى الصدر .

ورد سعيد الطرابلسي : أشرب ما تشربين .

وبينما أمسكت « ريتا » بسماعة التلفون تطلب زجاجة ويسكي ،

كان سعيد يتأملها وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة ارتياح . لقد فهم معنى طلبها لزجاجة ويسكي . ان الجلسة سوف تطول ، وقد تمتد حتى نهاية الزجاجة . وراح يتأملها . شعرها الاصفر المعقود على شكل ذيل حصان . عيناها الواسعتان الزرقاوان تشعان بالذكاء والحيوية . جسدها الممشوق الذي يتحرك بعصبية توحي بقوة الارادة والسيطرة على النفس ، وتجعل أنوثتها ممزوجة بشيء من القسوة . انها طراز آخر يختلف عن سلمى .

ووضعت السماعة ، والقت ساقاً فوق ساق ، ثم التفتت اليه قائلة :

— كيف حال صديقنا راشد أبو المنى ؟ أليس هو الذي أرسلك الى هنا ؟

وصدمه السؤال . كيف عرفت ؟ راشد أبو المنى هو الذي اقترح عليه أن يقابلها ، لعله يجد الجواب الذي حيرهم جميعاً ، وهو لماذا تتستر « ريتا » على علي الشيخ ؟

وتمالك سعيد الطرابلسي نفسه ، وأطلق ضحكة وقال :

— يبدو أن جهاز مخابراتك نشط حتى بيننا ... نعم ، راشد أبو المنى هو صاحب الفكرة ، لأن معلوماته تؤكد أن « علي الشيخ » لم يكن معك في الغرفة ؟

وتناولت « ريتا » سيجارة ، أسرع سعيد باشعالها وهو يبتسم ، وكأنه رد لها الكرة التي قذفتها في وجهه .

— منذ متى تعرف راشد أبو المنى ؟

— منذ ثلاثة أيام ، عندما وصلت الى « هامبورغ » . رأيته في المطار ثم سمعته أثناء التحقيق .

— وبهذه السرعة تثق بمعلوماته ؟

— طبعاً ... أليس هو الذي كشف صفقة السلاح ؟

— وهل تعتقد أن الصفقة التي يعرفها أكثر من عشرة أشخاص يمكن أن تعتبر سراً ؟

— على الأقل ، كانت هكذا بالنسبة لعلي الشيخ .

— وكيف تأكدت من ذلك ؟

وشعر سعيد الطرابلسي بارتباك ، فهذا هو السؤال الذي جاء يبحث له عن جواب .

وانقذه من ارتباكه صوت جرس الباب .

وقامت « ريتا » ففتحته . ودخل عامل الفندق يدفع أمامه عربة عليها زجاجة الويسكي ولوازمها . وبين صف الكؤوس ، والاطباق ، ووعاء الثلج ، وفتح الزجاجة ، راح سعيد الطرابلسي يفكر بماذا يجيب ؟

وعندما خرج الخادم ، كانت ريتا هي التي استأنفت الحديث فقالت :

— ما سر اهتمامك بهذه القضية ؟

— أبداً ... لقد دخلت فيها بمحض الصدفة . كنت في اجازة بمونت كارلو عندما وجدت نفسي أعيش الفصل الثاني من قصة رجال عرفتهم قبل تسع سنوات .

— وهل عرفت علي الشيخ في سوريا ؟

— أبداً ... لم أقابله الا في المحكمة !

— وابنته سلمى ؟

— التقيت بها في « مونت كارلو » .

— وما رأيك فيها ؟

وتنبه سعيد الطرابلسي الى أنه هو الذي يجيب على الأسئلة التي بدأت تمطره بها ريتا ، مع أنه جاء ليسألها :

— أريد أن أعرف رأيك أنت في سلمى .. رأيك أنت أهم !

— لماذا ؟

— لانها كانت غريمتك ... ألم تكن خطيبة خليل الأزرق ؟

وأطلقت « ريتا » ضحكة ماكرة ، ثم رفعت كأسها وهي تقول :

— في صحة خطيبات خليل الأزرق .

ثم أكملت بعد أن جرعت من كأسها :

— كل امرأة عرفت خليل الأزرق اعتبرته خطيبها ... ولكن المهم هو نظرة خليل الأزرق لهذا النوع من العلاقات ... فليست الحقيقة حتماً هي ما نراه ، بل أيضاً ما يراه الآخرون .

— لم أفهم ماذا تريدين أن تقولي ...

— هل تعتبر أنت سلمى خطيبتك ؟

ومرة ثانية ، شعر بانها سجلت نقطة عليه . كيف عرفت بعلاقته مع سلمى ؟ وفجأةلمعت فكرة في رأسه فقال :

— متى التقيت بسامي الشريف آخر مرة ؟

— وما دخل سامي الشريف في ذلك ؟

— أليس هو الذي أخبرك بأن لي علاقة مع سلمى ؟

— وهل علاقات سلمى تحتاج الى من يخبر عنها ؟

— كنت أعيب على سلمى غيرتها العمياء من أية امرأة مع أي رجل ... ولكن يبدو أن كل النساء في الغيرة سواء . فانت على ذكائك وقدرتك على السيطرة لا تختلفين عن سلمى !

ورفعت الكأس الى شفتيها ، ورشفت منها بتمهل ، ثم قالت :

— هل أتيت الى هنا لتستفزني ؟ من الذي اعتدى على الآخر ؟ أنا أعرف خليل الأزرق قبلها . قبل أن يهاجر أبوها من سوريا الى فرنسا .

وضحك سعيد الطرابلسي . لقد استطاع أخيراً أن يثيرها ، وقال :

— منطقك غريب ... أنت تعرفين خليل الأزرق قبل سلمى ؟ لقد ولدت بين ذراعيه .

— علاقتي بخليل الأزرق مختلفة .

— أعرف ذلك . قيل لي أنه كان استاذاً في علاقته مع النساء .

— هذا هو الفرق . سلمى لم تكن أكثر من امرأة في حياة خليل الأزرق . بينما كان خليل بالنسبة لي أكثر من مجرد علاقة جنسية .

— وهل لهذا السبب تتسترين على قاتله ؟

— هل تعرف أنت من هو قاتله ؟

— انه أنت .. أو علي الشيخ !

ولأول مرة ، أطلقت « ريتا » ضحكة ذكرته بضحكات سلمى الهستيرية ، وقالت

— لماذا لا تضع في قائمة اتهاماتك الرجال الثلاثة الذين اجتمع بهم خليل ... ثم اختفوا ليلة الجريمة ؟

وملأ سعيد كأسها ، وتابع هجومه :

— تقصدين مخابرات اسرائيل ؟

— أو مخابرات دولة عربية .

— ولماذا يقتله العرب ؟

— اسأل صديقك « أبو المنى » عن مصدر معلوماته حول دور خليل الأزرق في صفقة السلاح .

— اذن دم خليل ضائع بين عدة جهات .

— وهل هذا هو الدم الوحيد الضائع في هذا العالم ؟

— ولماذا تحرصين أنت على دم علي الشيخ ؟ ما سر اهتمامك به ؟

— خليل الأزرق مات . وعلى الشيخ حي ... فلماذا يموت ، اذا كان ذلك لن يعيد خليل الأزرق ؟

— اذن ، فانت تغطين علي الشيخ ؟

— لا تحاول أن تكون أذكى من المحققين ، شهادتي صحيحة .

وبدورها ملأت كأسه ، ثم قالت بعد أن غيرت نبرات صوتها :

— أنا لا أفهم موقفك . خليل الأزرق وعلي الشيخ ... وحتى راشد أبو المنى يدفعون ثمن اختيارهم . أما أنت ، فاذا كنت تريد أن تكتب قصة ، فاقبل نهايتها كما وقعت . لا تحاول أن تكون أكثر ذكاء من القدر . فلعل أفضل مزاياكم ، أنتم اللبنانيين ، أنكم تقبلون الواقع كما هو !

— نحن نقبل الواقع لكي نغيره ...

ثم وقف ، والكأس بيده ، وتمشى في الغرفة حتى وصل الى النافذة المطلة على بحيرة « هامبورغ » ، وقال :

— يخيل الي أن القصة لم تنته ... أن دفاعك عن علي الشيخ يوحي بأن دوره لم ينته بعد !

— أهذه معلومات راشد أبو المنى ؟ قل له ، إذا حدث وقابلته ، ان كل شيء قد انتهى ، ولم يعد على المسرح دور لبطل . لقد أقفل التحقيق اليوم ، وخلال الأيام القادمة سيصدر القاضي « شبلنجر » قراره . وستحفظ القضية ضد مجهول . وسيذهب كل في طريقه !

— وأنت . . . ألن تستمري في العمل مع علي الشيخ ؟

— وهل بقي لعلي الشيخ ما يعمله ؟

— اذن كل شيء قد انتهى . . . هكذا تظنين ؟

— نعم . . . مصرع خليل الأزرق أنهى كل الأدوار .

— حتى دورك ؟

— حتى دوري . . . ولولا الحاح المحامي « جيرهارد » بأن أبقى في « هامبورغ » الى أن يقفل التحقيق ، لاعتبرت شهادتي نهاية دوري في هذه القصة . . . صدقني ، لقد أسدل الستار ، وانطفأت الأنوار !

وشعر سعيد أن مهمته قد فشلت . لم يستطع أن يأخذ منها جواباً على أي سؤال ، بل ازدادت القضية غموضاً في ذهنه .

والتفت اليها بعد أن أفرغ ما في الكأس مرة واحدة ، وقال :

— نادراً ما يجتمع الذكاء والجمال في امرأة واحدة .

وضحكت ريتا وقالت :

— أنت تطعن في جمالي أم في ذكائي ؟

— بالعكس . . . صدقيني انني عندما دخلت الى غرفتك ، ورأيتك بهذه الحلاوة التي تختلف تماماً عن الصورة التي ظهرت بها في المحكمة . . . أحسست بحيرة . أيهما أكثر اثارة ، ذكاؤك أم جمالك ؟

وقامت « ريتا » من مقعدها ، واتجهت نحو سعيد حيث كان يقف أمام النافذة . ووضعت يدها على كتفه ، وسمرت نظراتها في عينيه ، ثم قالت : أستاذ سعيد . لا تضيع ليلتك هنا . سلمى أشد حاجة لحنانك . انها لم تكن في يوم من الأيام بحاجة الى كلامك الرقيق أكثر منها الليلة .

١٨

كان يوماً غير عادي في « هامبورغ » . فالسماء صافية ، والشمس مشرقة ، وحرارة الجو تغري بالخروج الى الشواطيء والحدائق .

وفي السيارة التي كانت متجهة الى المطار ، قال محمد أحمد لسامي الشريف :

ــ أليس حراماً أن أغادر « هامبورغ » في مثل هذا اليوم ؟ الشمس هنا نادرة الظهور حتى في الصيف .

ــ لن تندم يا محمد . ليس في الدنيا أجمل من « مونت كارلو » . سوف تقضي فيها اجازة تنسيك كل المتاعب التي سببناها لك في « هامبورغ » .

ــ ولكن المتاعب ستسافر معنا ... هل تعتقد أن المتعة ممكنة مع علي الشيخ ، ومع ... ؟

وأشار برأسه حيث كانت تجلس سلمى مع سعيد الطرابلسي في المقعد

الخلفي من السيارة .

وكانت سلمى ترتدي « أنسامبل » أبيضـ اللون ، وبلوزة سوداء مخططة بالأبيض . كانت تجلس ساهمة ، عيناها ضائعتان تتطلعان من خلال نافذة السيارة الى الطريق . وتأملها سامي الشريف من خلال المرآة المثبتة أمامه ، فبدت له صغيرة ، رائعة ، تماماً كما رآها في المرة الأولى عندما اصطحبها في الطائرة من بيروت الى جنيف . كم كانت يومهـا شقية ، لعوباً ، شديدة الثقة بنفسها . وكم تبدو اليوم مهزومة ، جريحة ، فقدت الثقة بكل شيء .

وكان سعيد الطرابلسي يتطلع هو الآخر من خلال نافذة السيارة الى الطريق ، يفكر في أحداث هذه القصة التي وجد نفسه فجأة يعيش فيها ... هل يمكن أن يكون اليوم هو نهايتها ؟ لقد صدر قرار القاضي « شبلنجر » بوقف المحاكمة عن علي الشيخ . وهاهم جميعاً يتوجهون الى « مونت كارلو » ... هل هذه هي النهاية ؟ هل يمكن أن تنتهي هذه القصة بمثل هذا الغموض ؟ من الذي قتل خليل الأزرق ؟ ولماذا ؟ وماذا يعرف علي الشيخ وماذا يخفي ؟

وبعقلية كتاب القصة ، وجد نفسه يجيب : هناك قصص كثيرة تبقى غامضة ، لا تنكشف كل أسرارها . هكذا قصص الحب والجريمة ، وحتى قصص الحروب !

ووضع محمد أحمد سيارته في الكاراج المجاور للمطار ، كما تعود كلما سافر من « هامبورغ » ، واتجه الجميع الى قاعة المسافرين في المطار ، في انتظار وصول المحامي « جيرهارد » ، وعلي الشيخ الذي قررت سلطات الأمن ترحيله الى خارج المانيا .

والتزم الجميع الصمت . لقد استنفدت الأحداث المتلاحقة قواهم ،

ولم يعد هناك ما يقال في مابينهم . وكانت أصوات النداء على الطائرات المغادرة والقادمة تترك في النفس إحساساً بالرحيل . إحساساً بعدم الاستقرار ، وهو الشعور الذي يسيطر على المسافرين عادة . ولكن الاحساس به كان مضاعفاً في نفوس الأربعة . كانت النهاية تبدو وكأنها نهاية حقبة كاملة من حياتهم . صحيح أن « علي الشيخ » هو وحده المبعد عن المانيا ، ولكنه يأخذ معه ذكريات جمعتهم لسنوات طويلة .

لم يكن يشغل بال سلمى الا معرفة السبب الذي جعل أباها يتستر على ريتا . كانت سلمى واثقة أن ريتا هي التي قتلت خليل الأزرق . وجاء قرار الافراج عن أبيها يؤكد ظنونها ... بينما كان سامي الشريف ، على العكس من ذلك ، مؤمناً أن علي الشيخ هو القاتل . ولم تكن هذه النقطة هي التي تشغل باله ، بل كان يفكر في أمرين : الدوافع التي جعلت علي الشيخ يقدم على قتل شريكه . والنتائج التي ستترتب على ذلك . هل يسترد علي الشيخ أمواله التي يستثمرها له ، ليبدأ بها حياة جديدة ؟ ثم أين ستذهب أموال خليل الأزرق ؟ ان هذا الصبي اللقيط ، ذهب الى المجهول كما جاء من المجهول . لا أقارب ، ولا ورثة ، بل ملايين لا يعرف أحد عددها ولا مكانها ، ربما إلا علي الشيخ وريتا . هل هذا هو السر الذي يجمع بينهما ؟

ووصل المحامي « جيرهارد » و « علي الشيخ » ومعهما ضابطان من البوليس .

وأمام سلم الطائرة ، صافح « جيرهارد » علي الشيخ وهو يقول :

ـــ آمل أن لا تحتاجني مرة أخرى ، وإن كنت في خدمتك دائماً .

وغمغم علي الشيخ بكلمات غير مفهومة ، وشد على يده ، ثم صعد الى الطائرة . وخلفه صعدت سلمى ، ثم سامي الشريف . بينما تأخر محمد

أحمد وسعيد الطرابلسي بسبب اصرار كل منهما على أن يتقدمه الآخر ، ثم تنبها أنهما في مطار « هامبورغ » وبصحبة مسافر يرحله البوليس ، فاندفعا معاً يصعدان السلم !

وجلست سلمى بجوار أبيها ، وخلفهما سعيد الطرابلسي ومحمد أحمد ، بينما آثر سامي الشريف أن يجلس وحيداً في الجانب المواجه لمقاعدهم .

سلمى وعلي الشيخ جلسا صامتين كأنهما غريبان يفصل بينهما حاجز الخجل . لا سلمى تعرف كيف تبدأ الحديث مع أبيها ، ولا علي الشيخ يعرف ماذا يجب عليه أن يقول . كانت تشعر أنها اذا نطقت بكلمة واحدة فستفقد السيطرة على نفسها ، وستنفجر كما انفجرت في المحكمة . وكان « علي » يشعر أن سلمى تصرفت معه تصرفاً خاطئاً ، وأنه قد أفرط في التساهل معها . أعطاها حرية لم تحسن استخدامها ، فدمرت حياتها فيما تريد أن تحمله المسؤولية . ولكنه كان يدرك أيضاً أن الوقت قد فات لاصلاح ذلك الخطأ ، وأن الطائرة ليست المكان الصالح لمناقشة هذا الموضوع .

وسأل محمد أحمد مضيفة الطائرة : هل يمكننا الانتقال الى المقعد الخلفي ؟

ولما سأله سعيد الطرابلسي عن السبب ، جذبه من يده ، واتجه الى مؤخرة الدرجة الأولى ، وهو يقول : جلوسنا خلفهما يسبب لنا ولهما حرجاً ، وأنا لا أحب جو المآسي !

ووضعت المضيفة أمامهما كأسي الويسكي ، بينما كان سامي الشريف يلاحقها بمداعبات جريئة جعلت المضيفة تقول لمحمد أحمد : يظهر أن صديقكم أفرط في الشراب قبل أن يصعد الى الطائرة .

وأجاب محمد أحمد : صديقي يسكر بالجمال !

وانصرفت المضيفة وهي تقول : من فضلك ... يكفي سكران واحد !

والتفت محمد أحمد الى سعيد الطرابلسي وقال : ما لك لا تتكلم ؟ أليست أجمل من سلمى ؟

— دع سلمى في حالها ... هل تعرفها من قبل ؟

— لم يحصل لي الشرف . رأيتها أول مرة عندما جئتم الى « هامبورغ » وقد لاحظت أن علاقتك بها وثيقة جداً .

— أعرفها قبلك بأسبوع !

— غير معقول ... بهذه السرعة ؟ في « هامبورغ » كنتما لا تفترقان !

وضحك سعيد وقال :

— يبدو أنني أجيد تسلية الحزانى !

— بدون شك ، أنا أحسدك على مثل هذه الموهبة ، فالحزانى يزداد حزنهن معي . مرة اصطحبت فتاة حزينة ، فقضينا الليل في البكاء معاً !

— سلمى لا تبكي في الليل عادة .

— أتوقع ذلك ، مثلها يقضي الليل في التنهدات !

— أو في الحديث عن خليل الأزرق ؟

— وأبوها ؟

— علاقتها بأبيها معقدة جداً . أحياناً انسى أنه أبوها . ولو لم تخبرني عن ظروف حياتها ، لما استطعت أن أفهم طبيعة العلاقة بينهما !

— الواضح ، أن علي الشيخ منسجم مع نفسه . انه أول عربي عرفته

يتحدث في التقدمية ويمارسها في حياته الشخصية . فالتقدميون العرب ، محافظون ، عادة ، في حياتهم الشخصية ، بل يتظاهرون أحياناً بالتزمت . أما علي الشيخ فقد أعترف لأبنته بأقصى ما يعترف به التقدميون للمرأة الأوروبية !

— السلوك الإجتماعي لا علاقة له بالقناعات الفكرية . انه انعكاس للتقاليد والقيم السائدة في المجتمع . لوكان علي الشيخ يعيش مع سلمى في اللاذقية أو دمشق لفرض عليها المحافظة ... بل التزمت .

وقطع حديثهما صوت سلمى يقول للمضيفة بعصبية اعطيني كاس ويسكي !!

وعاد الصمت يخيم على مقاعد الدرجة الأولى .

* * *

كان علي الشيخ متوتر الأعصاب أكثر مما يجب ، وهو على مائدة العشاء في اليخت « سوريا » . وعندما بدأ « عبدو » يجمع الأطباق ، طلب علي الشيخ المزيد من الخمر . ولم يعلق أحد على افراطه في الشراب ، فقد كانوا يعرفون أنه في حالة لا علاج لها إلا الشراب . كان سامي الشريف وسعيد الطرابلسي ومحمد أحمد يتبادلون عبارات لا معنى لها ، لمجرد محاولة كسر حدة الجو ، وتجنب الحديث مع سلمى وأبيها .

وفجأة ، قال علي الشيخ :

— ألم يقل لاحد منكم الى أين سيذهب ؟

كانوا يعرفون عن من يتحدث . فمنذ أن أفرج عن علي الشيخ ، وهو لا همَّ له إلا البحث عن راشد أبو المنى ، الذي اختفى بعد ادلائه بشهادته ، دون أن يخبر أحداً إلى أين ...

وعاد علي الشيخ يقول : لقد اتصلت به في منزله بفرانكفورت ، وسألت عنه في المصنع ، فأكد لي « الهر سواين » أنه لم يعد من « هامبورغ » منذ أن سافر اليها ...

ومرة أخرى لم يرد أحد .

واستأنف علي الشيخ وكأنه يحدث نفسه : أين ذهب ؟ وكيف يتركني في مثل هذه الظروف ؟ ولماذا ؟

كان علي الشيخ يشعر في أعماقه . أنه لم يكن يوماً بحاجة الى راشد أبو المنى مثله اليوم . في الماضي كان وجود راشد بجانبه يكفيه للاعتذار لنفسه بأنه لا يزال يفكر في القضية . أما اليوم فإن وجود راشد أبو المنى هو كل ما تبقى له . انه شاهد الإثبات الوحيد على الدافع الوطني الذي حمله على الذهاب الى « الترافي موندي » . انه الشاهد الذي يستطيع تبرئته أمامتلك العيون التي تتطلع اليه وتحمل كل اتهام . عيون أصدقائه وأقرب الناس اليه .

— غريب ؟ أين يمكن أن يكون ؟

وتردد سامي الشريف قبل أن يقول لعلي الشيخ :

— هل سألت عنه ريتا ؟

— وما علاقة راشد بريتا ؟

وتذكر سعيد الطرابلسي عبارة « ريتا » عندما زارها في الفندق : « قل له ، اذا حدث وقابلته ، ان كل شيء قد انتهى »

وقالت سلمى : اذا لم تكن « ريتا » قد قتلته كما قتلت خليل الأزرق فلا بد أنه يتجنب الاتصال بك .

— لماذا ؟ (قالها علي الشيخ بإنفعال)

ـــ ربما لديه بعض الشكوك !

وضرب علي الشيخ الكأس بيده ، وصرخ في وجهها :

ـــ شكوك ؟ لو كان راشد أبو المنى هنا لعرفت من هو أبوك .

وهب علي الشيخ واقفاً ، وراح يذرع الغرفة ، وكأنه محام يرافع عن متهم .

* * *

غريزة رجل المخابرات جعلت علي الشيخ يتسلل الى غرفة خليل الأزرق وهو حريص على أن لا يراه موظف الاستقبال . ولم يكن بحاجة الى سؤال أحد عن موقع الغرفة ، فقد كان يعرف الرقم ، والفندق من طابقين ، وعدد الغرف محدودة .

وبنفس الغريزة كان يحمل مسدسه الكاتم للصوت والذي لم يستعمله في حياته قط .

وفتح خليل الأزرق الباب ، وعاد الى مقعده وهو يقول :

ـــ لوجئت مبكراً ، لعرفتك باصدقاء ممتازين .

ـــ هناك كثير من أصدقائك لم تعرفني بهم .

وتنبه خليل على الفور ، ان هناك أمراً ما يغضب علي الشيخ ، فقال :

ـــ من تقصد ؟

ـــ ألا تعرف ؟

ـــ ماذا أصابك سيادة العقيد ؟ هل جئت لاستجوابي ؟

ـــ طبعاً ... أنا لم أصدق عندما سمعت الخبر ..

ـــ أي خبر ؟

— صفقة عجمان ...

وسكت خليل الأزرق .

— لماذا سكتَّ ؟

— لأن هذه الصفقة لا علاقة لك بها ؟

— لماذا لا علاقة لي بها ؟

— لأن أصحابها طلبوا ذلك ...

— ... أم لأنك خشيت أن أرفض ؟

— ولماذا ترفض ؟

وازداد انفعال علي الشيخ من لهجة خليل الأزرق الساخرة ، فقال :

— اسمع يا ابن الكلب ... هل وصلنا لبيع السلاح لاسرائيل ؟

— وما المانع ؟ نحن تجار سلاح ، نبيع لمن يدفع الثمن !

— الا اسرائيل ؟

— اسرائيل ، اسرائيل ، اسرائيل ... هل جئت تخطب هنا ؟ صفقة قطع غيار ، لن تقدم ولن تؤخر ..

— كيف لن تقدم ولن تؤخر ؟ ألا تعرف أن معركتنا مع اسرائيل هي معركة حياة أو موت ؟

وضحك خليل الأزرق باستخفاف ، ومد ساقيه فوق المقعد المواجه لمقعده ، وقال : الآن فقط تذكرت ؟ هل نسيت صفقة السلاح مع الأكراد ؟ هل كانت تخدم المعركة ؟ ... لنتكلم بصراحة ، أنت غاضب لأنك لم تأخذ حصتك من العمولة ؟

وقبل أن يكمل خليل الأزرق جملته ، كانت يد علي الشيخ تهوي على وجهه . وتتابعت الأحداث بلا تفكير .

قفز خليل الأزرق من مقعده ، فاطبق على عنق علي الشيخ ، وبدأ يخنقه . وبدون تردد ، أخرج علي الشيخ مسدسه ، وأطلق النار .

ولمعت نظرة دهشة وبؤس في عيني خليل الأزرق .

وتراخت يداه ، ثم هوى على الأرض .

ووقف علي الشيخ مذهولاً كأنه شخص ثالث ، شهد الحادث ، لا علاقة له به .

ولم يدم ذلك أكثر من دقيقة . وسرعان ما تنبهت فيه طبيعة رجل المخابرات ، فدس المسدس في جيبه ، وأخرج منديله ، فمسح مسكة الباب ، ثم تنصت ليسمع ما اذا كان سقوط خليل الأزرق على الأرض قد أثار انتباه أحد ، فلما اطمأن الى أن المكان هادىء ، فتح الباب بالمنديل وأغلقه . وانسل خارجاً .

* * *

لم يأبه علي الشيخ ، عندما اندفعت سلمى خارجة من غرفة الطعام في اليخت « سوريا » . كان تقديره انها ارادت اخفاء مشاعرها ، فخرجت تبكي على ظهر اليخت .

ولم يتحرك احد للخروج وراء سلمى . كان الرجال الثلاثة يتابعون رواية علي الشيخ ، وهو يتحدث عن الطريقة التي تسلل بها الى فندق « شارلوت » دون أن تراه الثرثارة .

سعيد الطرابلسي كان أول من استطاع التخلص من ذهوله . كان الوحيد بين سامي الشريف ومحمد أحمد الذي حضر جلسات التحقيق .

فسأل علي الشيخ :

ـــ اذا كنت انت الذي قتل خليل الأزرق ، فمن هو الرجل الذي كان مع ريتا عندما صعدت موظفة الفندق بكؤوس الويسكي في المرة الثانية الى الغرفة ، وشاهدت ظله على زجاج الحمام ؟

وسكت علي الشيخ ، ثم قال :

ـــ هذا هو السؤال الذي لا بد أن تجيب عليه « ريتا » .

* * *

جرس التليفون يدق ، وكأنه يأتي من مكان سحيق ، ليتحول الى كابوس . سيارة المطافىء تنهب ساحة المرجة بدمشق ، والحريق مشتعل في سوق الحميدية ، والناس متبلدون ، جالسون في مقاعدهم ، بعضهم يدخن النارجيلة ، لا أحد يهرب من الحريق ، ولا أحد يحاول اطفاءه ، وكأن النيران لا تهدد حياتهم ولا منازلهم . وراح سامي يصرخ ، ولكن صوته لم يكن يخرج من فمه . واطل وجه أبيه بنظراته الحائرة . وارتفع صوت امرأة تقول :

ـــ الو ...

وفتح سامي الشريف عينيه ، ليرى نفسه فوق سريره في يخته ، والى جانبه ظهر عار ، في أعلاه رأس أشقر ، يغالب النعاس ، ويمسك بسماعة التليفون .

كان لا يزال بين الكابوس ، وذكريات ليلتين من البحث المضني عن سلمى الشيخ .

وحدق في المرأة العارية التي بجانبه . وفي لحظة خيل اليه انها سلمى الشيخ ..

وفرك عينيه ليرى أن هذه المرأة ليست سلمى الشيخ ، بل انه لا يعرف حتى اسمها !

لقد اختفت سلمى منذ خروجها من غرفة الطعام ، ليلة اعتراف أبيها بقتل خليل الأزرق .ظنوا في البداية أنها صعدت الى أعلى اليخت ، ولكن « ماريو » البحار أخبرهم أنها غادرت اليخت ، واستقلت سيارة تاكسي . وبحثوا عنها في الفندق . وفي ملهى « جيمي » ، وفي كل مكان اعتادت أن تذهب اليه ... ولما لم يعثروا عليها ، اتصلوا بالبوليس . وفي اليوم التالي ، استقل علي الشيخ سيارة ، وذهب الى « سان ريمو » على الشاطىء الايطالي القريب . ليبحث عن ابنته . وقال لسامي قبل أن يتركه : « اذا وجدتها هذه المرة . فلن أدعها تضيع مني » .

والتفتت المرأة العارية التي كانت بجانبه تمسك بسماعة التليفون . ثم قالت : أنت اسمك سامي الشريف ؟

وانتزع سامي السماعة من يدها ، ليسمع صوت سعيد الطرابلسي يقول : سامي ؟ لقد وجد البوليس الايطالي صديقنا علي الشيخ مقتولاً في دورة مياه عامة في « سان ريمو » !

وسقطت سماعة التلفون من يده !

* * *

في ذلك المساء ، كان الرجال الثلاثة يجلسون على مقاعدهم فوق سطح اليخت « سوريا » يتأملون الشمس وهي تغرق في مياه البحر . كانوا كل ما تبقى من عالم سقط بكامله . وعندما ينهار كل شيء ، يحدث دوي عظيم . ويملاء الغبار الكون . ثم ينقشع . وينبت الصمت من حطام الدوي . ومن أعماق الأرض المهجورة ، ينبعث صوت الحنين .

غرقت الشمس كلها في البحر . وحلت الظلمة . وبدت أطياف اليخوت في مرفأ « مونت كارلو » وكأنها ذكريات عالم مفقود .

ومرت الساعات ، كما مرت السنون .

ولا يدري أحد من الذي أدار جهاز التسجيل .

وارتفع صوت فيروز وكأنه يأتي من وراء الأفق :

« وينن .. وينن .. وينن

وين وجوهن .. وين صواتن .. وينن

صار في وادي بيني وبينن

...وينن »

(انتهت)